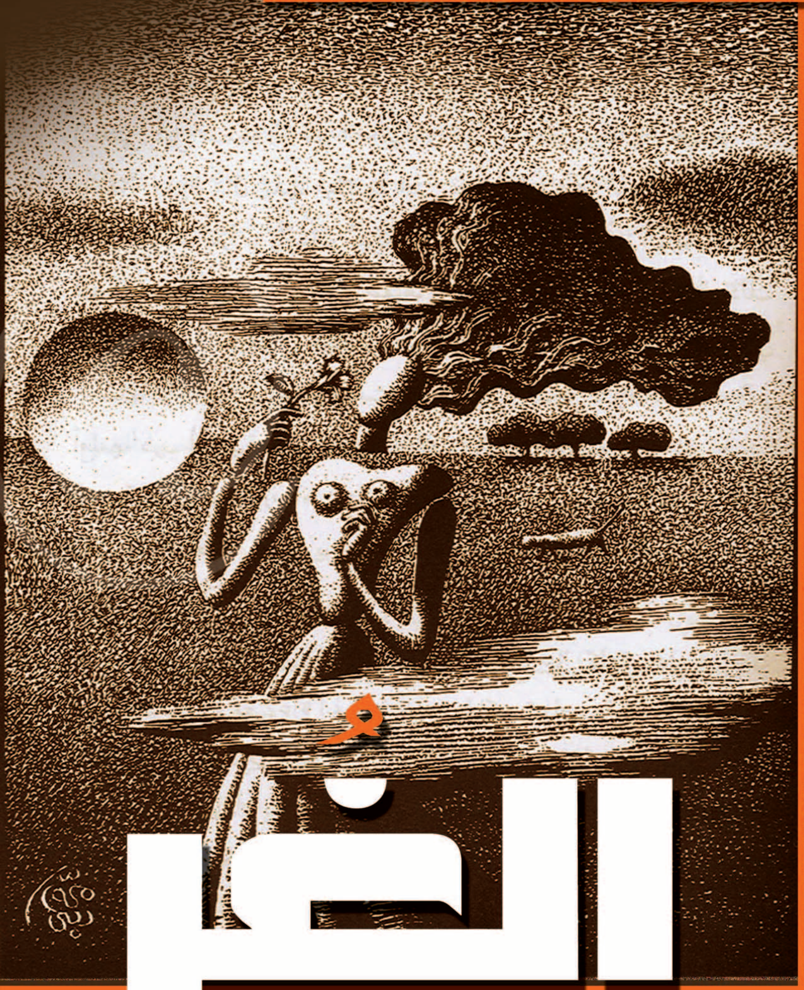


الغُر

نجوى شعبان

نجوى شعبان

الغُـــــــر

رواية

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

الإهداء

إلى ناجي الصهرجتي

الفصل الأول

الأم الأبدية

- ١ -

أوديب: يا ذوات النظر النافذ إلاهاتي، إن كنت همت فقعدت في مقاعدكن في الأرض فاغفرن لي... تعالين يا إلاهاتي فقدرن خاتمة ونهاية لحياتي.. تعالين يا بنات الظلام القديم أيتها الملاح... تعالين شفقة بأدويب الذي لم يبق من جسمه غير ظله، قد ذوى جسمه القديم..

الكورس: إنه رجل مسن ضل السبيل وهو غريب، وإلا ما وطئت قدماه الغابة المقدسة التي تقيم بها الصبايا اللائي نرتاع من ذكرهن ونغض أبصارنا ونكمم أفواهنا إذا جاورناهن.

(أوديب في كولون) سوفوكل.

فتحت واطفة الشباك. رأت حقلاً فسيحاً ممتداً في جوانبه بتجمعات من النخيل، كل مجموعة خمس نخلات تئن من ثقل البلح الناضج وتشم رائحة نجيلة الحدائق بعد ريهـا ،وفـي البعيد كان البيت الحجري للجدة الكبيرة صافيا لا يزال ماثلا بطابقه الواحد والحجرات الكثيرة التـي اتسـعت لإخوتهـا وأولادها بعدما كانوا أسراً.

نادت "صافيا" الصغيرة حفيدة أختها زينب: انظري هذا الجمال!!أطلت صافيا عبر النافذة مدركة لمـا سـتراه مـن حارات لزجة طينية تفوح برائحة البوتاس ومساحيق الغسيل والاستحمام،وكذلك بالغائط إن أمكن.. والبيـوت متلاصـقة قبيحة.. لا مكان للجمال، فقط ما يسد رمق الحياة، حجـرات ضيقة واطئة، شباك صغير، الجمال هنـا رفاهيـة ولـيس ضرورة.

سألتها واطفة مجدداً: ألا ترين بيت الجدة؟

- يا جدتي، نحن هنا في المعصرة ولسنا بقرية السنانية بدمياط.

-حقا!! لكن ما إن تحصلي على شهادتك الجامعية، حتى نعود لبيت الجدة.

-وساعتها لن أعرف أية صافيا تنادين؟

- إنه نذر والدي بأن يطلق على الحفيـدة البكريـة لبناتـه وأولاده اسم صافيا.

-طبيعي، متعلق بها، كان وحيدها.

-بل لأن صافيا كانت غير كل الستات... متى موعدنا مـع طبيب العيون؟

- ألم يطمئنك أن العلم تقدم في علاج المياه البيضاء!!

***

... في يوم شتوي بديع أواخـر عـام ١٨٧٧، تقلبـت صافيا على العنجريب.. لم تنم على سرير بمثل تلك الليونة، بدا العنجريب كقطعة السكر تذوب من تحتها، تقلبـت علـى الجانب الآخر.. أحاطت المياه بها من كل جانـب، غاصـت إلى عمق البحر، لكن رأسها ظل غير مبتل ، لعلها سـتأخذ " العهد" من أهل الأعماق، وتصبح ساحرة أو عرافة.. تذكرت نبوءة عرافة " غرباوية": ستتزوجين رجـلاً يحمـل اسـمك وتحملين اسمه.

ساءلت نفسها: هل تتـزوج السـرية؟ ورأت صـخوراً ونباتات ملونة بشكل باذخ يدفع المرء للضحك، إنهـا ألـوان

مبهجة مدغدغة.. أحاطتها أسماك ملونة ودود، قادتها حتـى المدينة الغارقة، ورأت نفسها وقريناتها في أحد القصور، و " ستنا" تقول لهن: لا بد أن تكوني نظيفة ومعطرة.

ولا تعرف لم رأت نفسها جميلـة،وأقبل شـاب وسـيم نحوها، لكن نصفه التحتي ذيل سمكة، كم أعجبها، فأشـارت له بيدها إلى جيدها.. وأتاها، ما إن مال عليها ليلثمها حتـى ظهر مسِنا هرماً أسود كالأبنوس، وعيناه تتقدان ناراً،وأسنانه مفرقة.. جرى وراءها ،وكاد أن يمسكها، فطرحت بذراعيها لتسبح على ظهرها إلى الوراء وتبتعد عنه.. أثناء ذاك نزلت قطرة ماء مالحة في عينيها، شـعرت بالحرقان،وفتحتهمـا، اعتدلت في جلستها ، كانت صافيا قد غفت على شاطئ البحر ، وحالت الصخور أمامها دون أن يجرفها مد البحر بعيـداً.. كان الجلاب يهرب إلى الجزيرة العربية عبيداً على قـوارب من جذوع أشجار الدوم، مربوطة بجبال من التيل والسـعف صنعها لهم بشاريون.. من سواكن القديمة التي لم تعد بعـد ميناء لنقل الحجاج.

بعد التأرجح في رقصة غير مكتملة في هـودج علـى كاهل جمل في رحلة تجارة زائفة من " مصوع" الحبشية إلى

" سواكن" المصرية دامت شهرين، سكن فهيا الألـم فقـرات ظهر صافية.. تتراءى لها أمها " ونسة" التي لم ترهـا منـذ عامين، منذ أن باعها مالكها ومالك أبيهـا وأمهـا "عبـد الله محمد عثمان" إلى " ستنابت مكي".. فرقت صافية عن والديها في " سنار" لتذهب مع صحبتها الجديدة إلى " الأبيض".

صك بيع

آدمية تسمى صافيا، مولـدة (نوبيـة – بجاويـة) ذات حمرة وبلون القهوة مربوعة على خدها الأيسر شامة

بسم الله الرحمن الرحيم وبعد..

فمن عبدي ربهما" محمد إدريس" و " عبد المجيد خليل"، أن الفرخة الموصوفة بعالية فهي ملكنا – أي عبد الله محمـد عثمان- خالية الشبهة والغنيمة، والآن أجرينا مبيعا إلى ستنا بت مكي بمبلغ مائة ريال مجيـدي لسـداد ثمـن الأقمشـة المأخوذة منها، وسلمناها الآدمية تتصرف فيها كيف شـاءت، وحررنا لها منا للاعتماد وعدم المعارضة فيها. وذلك بشهادة " حسان عبد الكريم" و " أحمد محمد البشير"و " حسين بلال".

في ١٢٩٢ هجرية..

في سنة اثنتين وتسعين بعد المائة والألف النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

***

مع قبول ستنا تسوية الدين بجارية، فإنها حذرت عبد الله من أن يخدعها، لا سيما وأنها أصبحت ذات دربة في حيـل النخاسين بعد أن باعوها جارية ممسوحة العجز، وحين رأتها للمرة الأولى كانت ثقيلة الردفين، بل وتبين بعد حمامها الأول أنها معروفة الساقين. واشترطت علـى عبـد الله أن تكـون الجارية صغيرة السن،وأن تكون إما تركية تجمع بين الحسن والبياض، وإما بجاوية – من قبائل البجا المصرية الرحل – حسنة الوجه، ناعمة البشرة، وأن تكون قد سلمت من أن ينكل بها أو مختتنة.

فقال: ليس عندي غير فرخة نوبية، وأنت كما تعرفينهن ذوات لطف وعافية.. وإذا كنت سـترينها للتسـري، فأنـت تعرفين أن هواء مصر يوافقهن لأن ماء النيل شربهن، كمـا أن أخلاقهن طاهرة، وصورهن مقبولة، وفيهن دين وخيريـة وتصون وإذعان للمولى.

رمقت ستنا – وهي امرأة زرقاء اللون،كبيرة الحجـم، بعينين صغيرتين جاحظتين قليلا، ذات شهوة عظيمة تنطوي على خبث – الفتاة الصغيرة " صافيا " ذات الثلاثـة عشـر عاماً.. صافية بت إساغة (إسحاق) الذي ينتهي نسبه إلى جد نوبي من الرقيق أُسر في حملات الفـونج العسـكرية علـى كردفان، واستقر أهله في سنار،ولم يغادروا أو أى من نسلهم قبل صافية التي كانت باللمحة الأولى الغامضة مـن العـين اللوزية (لستنا) مجرد صغيرة نحيلة القـد، والأنـف والفـم دقيقان، شعر طويل خفيف التجعيد لم يعجبها، غير أن حدسها يشير عليها بأنها ستكون أنثى جذابة فـي غضـون عـام أو أكثر.. ووافقت على أخذها على أن ينقص ثمنهـا خمسـين ريالا، ليكون مائة فقط.. لم تخصصها للأعمال الشاقة مثـل احتطاب الوقود وطحن الحبوب،واقتصرت على تعليمها فنون الإبرة والحياكة والطبخ.. وفي العام الأخير مهـدتها نفسـيا لتلقي فنون السرير،وكانت تأمل أن تبيعها كـ ـ (سـرية) أو خليلة أو تنضم إلى جواري العهر وتفـرض عليهـا إتـاوة شهرية،وتحتفظ لنفسها بما فاض عن الإتاوة.

وفي بيت ستنا كانت السرايا يخضعن لعنايـة خاصـة لجمال بشرتهن داخل أكواخ تتوسطها حفرة عميقـة يوضـع فيها أنواع الزيوت المرطبة والمنعمة للبشـرة مـع بعـض البخور، لتصدر رائحة الدخان المنبعث من الزيوت فتصـبح حريرة نضرة.

ولكن صافيا كانت مبعثا لعدم الارتياح عنـد سـتنا ، إذ تناهت إليها أنباء بأن الخديوي إسماعيل أصدر قانون (إبطال الاتجار بالرقيق) مع فترة سماح اثنتـي عشـرة لإكمالهـا.. وتراقب صافيا وغيرها مـن الصـغيرات كأنمـا تسـتعجل الأزهار أن تتفتح عن أكمامها، وتنشر أريجها.

انصرم عامان من المهلة وكبار تجار الرقيق في حالـة هلع ونهام لاختصار وتكثيف نشاطهم وكسبهم في السـنوات العشر المقبلة، وكانوا أن شددوا من شن الغـزوات. وقـرر أحدهم غزوة كبيرة على " الأبيض" والقرى المحيطـة بهـا، ووضع خط سيرها كيلا تتضارب مـع غـزوات أخـرى، وحشدة الغزوة ببناء الزريبة التي يحشر فيها حصاد الصـيد اليومي: عبيد، إماء، ومـواشٍ..وأشـرف علـى الفرسـان المطاردين للطرائد،وحاملي الحبال والسلب والقيد والشـعبة

ومشعلي النيران في القطاطي إذا قاومت القرية، بالإضـافة إلى حراس الزريبة ومدد الطعام ووارد الماء. عندما وصـل سمع " ستنا" اقتراب الغزوة من الأبيض فهي تسـكن علـى أطراف المدينة، أرسلت إلى قائد الغزوة رسالة فحواها أنهـا ستقدم له عن طيب خاطر خُمس ما تملك من عبيـد وإمـاء ومواش.. فلا طاقة لها على مواجهة غزاة مسلحين.. فأجاب قائد الغزوة أنه يريد من الخُمس أطفالا وصـبيانا وصـبايا، شباباً يصلح للجندية، وآخرين طيعين صبورين للعمـل فـي الزراعة وخدمة البيوت، إلى جانب شباب وسـام يصـلحون طواشي/ مخصيين.

كانت صافيا بين ثلاثين مـن العبيـد وخمسـين مـن المواشي.. انضمت إلى غنائم الغزوة، وفي طريقها للتجمـع في " سنار" اشتراها جلاب يهودي مصري اسمه " سـليمان مراد " يتمتع برعوية إسبانية، حيث انحـدرت عائلتـه مـن قرطبة.. وكان يستخدم رعويته في انتهاك بعـض القـوانين آملا إلا تستطيع مصر محاكمته بمفردها.. وفكر النخاس في أن يضع العبيد المائة في مركب في النيل ترفع عليها رايـة إحدى الدول الغربية لئلا يتم تفتيشها، إلا أن صاحب المركب

طالبه بمبلغ طائل، فرفض ووجد أن عليه أن يسلك أشد الدروب إيغالا وبعد ليتفادى نقاطا عسكرية في حملة القائد الأرمني "ماركار إستبيان" المخول من الخديوي إسماعيل نفسه لسرعة القضاء على تجارة الرق ومطاردة النخاسين.. فاستخدم طريقا لتوزيع الرقيق بين " كسلا" و " مصوع " ثم "طوكر" و " سواكن الجديدة" ، وأن يتجه إلى أسيوط ثم القاهرة في حالة فشله أن يصل، ويبيع في المحطات الثلاث الأول.

اضطر الجلاب إلى استخدام طرق موازية للسواحل التي تستهدفها الحملة للحيلولة دون الوصول إلى الجزيرة العربية، وبالرغم من تمكن مقاتلي قبيلة الرشايدة منه في طوكر والاستيلاء على غالبية ما معه، إلا أن سليمان فر ومعه نحو عشرين عبدا، حرص على تخفيهم كتجار جمال،والإماء وضعن في هوادج كسيدات حرائر.

وسبقته الحملة إلى سواكن الجديدة (بالسودان) وطلب منه الدليل أن يتنحى وأن يتحدث إليه قائد الرحلة، فجاء إليه شيخ طاعن زاعما أن هذه الجمال تتوجه إلى النوبة ثم إلى أسيوط، وان هؤلاء تجاراً معه،والسيدات تصبحن عروساً

ستنزف إلى عريسها في النوبة، فطلـب اسـتبيان رؤيتهـا، فكُشف عن صافيا بالهودج.. حدق فيها مليا.. جـف حلقـه لرؤية فتاة تخفي مجمرات تحت جلدها لتشـع حـرارة فـي وجنتيها والأثير المحيط بها..وتورداً حييا في بشرة نحاسـية خلابة.. وحتى يرتاح قلبه طلب إليها أن تفرد راحتي يـديها، ففعلت ، كانت يداها مخَضبتين برسوم الحناء.. التقت أعينهما في لحظة دامت كالأبد ،دب الخوف يضعضع عظام صـافيا، رعشة داخلية وعرق بارد، تلفت ماركار إستبيان حوله هربا من انبهاره بها، يشعر بألم الجـوع يقلـص معدتـه.. مـا أجملها؟!.. وشعرت صافيا بصلة ما تربطها بهذا الرجل: ما كنهها؟ فقط تمنت أن يأخذها هذا الرجـل، يشـتريها، فهـي تخاف أن تكون حرة.. وتعتبر الكلام الذي يتناثر عن إبطـال النخاسة والرق وتحرير العبيد غريبـا.. ولـم تفهـم حتـى أباها"إساغة" الذي كان يفخر بين زوجة وأولاده بـأن عملـه السابق كان يتضمن القراءة والكتابة،وتتذكر سـمرته التـي تتحول إلى الأزرق في حالة الغضب الكظيم، وكم كان ذلـك كثيرا، وكم أشار غير مرة إلـى مرارتـه وحرقتـه لعمـل العبيد،يقول لو ذاق الأسياد ذلنـا ومذلـة نفوسـنا وانتهـاك

أجسامنا، لربما تابوا إلى الأبد عن معـاملتهم الفظـة لنـا.. ويحكي لهم سبب طرده من العمل الأول بأنه قرأ عن أجداده من العبيد. كانت" ونسة " والأولاد يرددنها، يضـيفون إليهـا ويحذفون منها، يبالغون في النعم التي يبغونها وفي الكـرب الذي أنزله العبيد على أسيادهم في تمـردات حصـلت فـي السودان على يد " على بن محمد".. وعن سبي العبيد للحرائر تسروهن انتقاما لأخواتهم وأمروهن بخدمة الزنجيـات، ثـم باعوهن في سوق النخاسة.. و يطلب الأولاد مـن الأب أن يحكي مجدداً، فيشير إلى إلمامه بقدر من التعليم وعمله فـي تسجيل الدفاتر والحسابات الأولية لـدى شـيخ تمتلـئ داره بالكتب القديمة،وكان إساغة سريعا في عمله، لكنـه كسـول الحركة وإن كان قويا،وبوده لو ظل مقعيا على عمله، أن يقرأ ما يلفت نظره من عنـاوين أو فصـول الكتـب القديمـة.. واتجهت اختياراته إلى ما سبق في تاريخ استرقاق الإنسان.. لكن ما أفدح ما تعرض له الزنج منهم، وتذكر ما كان الكبار يتداولونه سرا عن ذلك الزنجي الذي فر بعد إخفـاق ثـورة العبيد في العراق، عابرا صحراء الشام إلـى مصـر إلـى السودان، وكيف مات بعض أقرانـه عطشـا، والآخـرون

استرقهم بدو الصحراء،ووضع بعض قـادة الثـورة فـي " المطبق" وكان عمله تجفيف المستنقعات لتحويلها إلـى أرض زراعية.. ومقدار ما عاناه من قلة الطعام وانتفـاخ الـبطن والغازات من جراء تناول الحنطة والتمر بالشـعير..كشـف الشيخ قراءاته، فغضب عليه ووهبه إلى صديق موصيا إيـاه أن يكلفه بعمل يدوي ، مذكرا إياه أنه يمكنه بيعه أو وهبه أو تأجيره وتوريثه إلى ورثته.

سألت صافيا: ولكن يا والدي ألا يمكننا أن نكون كلنـا عبيدا أو أسيادا؟

- لا بد أن يكون ثمة أسياد وعبيـد.. فمـن يقـوم إذن بالأعمال والخدمات؟!

مطت صافيا شفتيها مبتئسة " ما مـن مخـرج إذن؟!".. رفع إساغة سبابته موجهة لصافيا: قد يملك السـيد جسـدك، ولكن إياك أن تدعيه يملك دماغك.

-وما دماغي يا أبي؟

-مسيحيتك وحكايات أجدادنا النوبيين.

ردت ونسة: والبجاويين أيضا.

(٢)

الكون بالنسبة له كان هاجعا، وفي الشارع المعـتم، لا صوت ،لا نأمة.. غير صوت صلصـلة فرعونية،رهيفـة، واهنة.. تلفت حوله فالهواء الذي تشقه المغرم بها بسلاسة، لا نغمة له.. وكذلك هو في مشيته بحذاء كتيم.

كانت صافيا "الصغيرة" تشعر به يمشي وراءهـا كـل مساء ، يراقبها حين عودتها من محاضراتها أو ذهابها للمحل حيث تبيع الكراسات والأدوات الكتابية.. تعرف أنه معجـب بها، إلا أنه يحتفظ بمسافة بينهما لا تخنقها بحصـار.. ولـم يغازلها بكلمات تحسبها وتحد مـن حريـة شـرودها أثنـاء المشي.حكت صافيا لواطفة فقالت لها: لك قدر من جمال الأم الكبيرة، لكني لا أتمنى لك أيا من تقلبات حياتها.

-كيف يا جدتي؟

مضت واطفة تحكي عن حياة صافيا الأم وعن المـرة الأولي التي تشاهد فيها البحر، بعدما أخذ القلق والتحفز فـي التلاشي رويدا.. رويدا. طوت الجمال ركبها وثنت سـوقها الأمامية تحتها، ولما بركت الجمال تحرر العبيد من ملابـس

التجار، ترجلت صافيا عن هودجها واتجهت مع الإماء إلـى الشاطئ، وأشار عليهم جميعا الدليل أنه يمكنهم تناول الحيوان القابع في القواقع التي ترميها الأمواج على الشاطئ، استنكف غالبيتهم ذلك، ذلك لكنهم تحت ضغط الجوع والعطش أقبلـوا باستحياء على تناوله،وسيظل ذلك الطعم اليودي عالقا في فم ولسان صافيا لسنوات كثيرة قادمة.. وفي النهاية جمع الدليل فوارغ القواقع لبيعها لتجار المشغولات الصدفية للزينة.

تمنت صافيا من قلبها أن يتجه التاجر بحق إلـى بـلاد النوبة،ولم تكن تعرف أن ثريا فرنسيا فتح للجلاب كتابا بدت فيه أشكالا فرعونية مثل تلك المحفورة أو المرسـومة علـى جدران المعابد وقال: " أريد فتاة تشبه تلك.. انظر مليا.. فتاة مثلها" وأضاف " غير منتهكة"، ترى صافيا أن أهل النوبة في الشمال طيبون مثل عم " محمد" في بيت " ستنا" الذي أفاض في التحدث عن صخور بلاده الجرانيتيـة بـين "فيلـة" و " أسوان"، حيث تتكسر مياه النيل وتصطخب عليها، فتصـدر أصواتا تتردد في المدى، يقف المرء حيالها إجـلالا لجنيـة الماء.

فتحت صافيا عينيها على ضوء باهر وحـرارة شـمس لاهبة وهي وسط صخور وأمواج تـرتطم برأسها،وجسـدها مغمور حتى صدرها في مياه البحر التي امتدت إلى مسـاحة واسعة من الشاطئ الذي انحسر عنه ليلا.. ولم تكن صـافيا بحاجة إلى أن ترفع رأسها لتـدرك أوامـر مـن الجـلاب بضرورة إخفائها لبعض الوقت، وجدته يتكلم مع رجال التفوا حولها في نصف إخفائها لبعض الوقت، وجدته يـتكلم مـع رجال التفوا حولها في نصف دائرة، يرطنون بلغة غير قادرة على فهمها. تقدموها وأشاروا إليها أن تتبعهم.. تئـز الأرض تحت أقدام صافيا والرجال، كسرات من أصداف وقواقع، من الصعوبة أن يستقر شكل القدم في ذلك الملح المتكلس كـإبر تلمع وتصدر وميضا قوس قزحيا يخايل أعينهم، ترى كثبانـا مقببة ومجوفة ككهف صغير، تناوشها، رغبة فـي اختبـار صلابتها.. إلا أن طحالب بحرية محترقة تتناثر على البعـد، تشدها لتفحصها. يستغرب الرجال فضولها ويستعجلونها إلى " خيشة " تقيم بها مع واحدة من عجائز تعرف اللغة العربيـة في قبيلة " البجا" التي تستضيفها حتى يعود الجلاب لأخذها.. ثم يتوجه صبيان من القبيلة ليصيدا لها سمكا بالحراب.. فـي

وقت يعانون فيه من شبه مجاعة نظرا للجفاف الـذي حـل بالوديان والجبل، لكن أغلبهم لا يأكل السمك وينظرون بتعال لمن يتناوله، لكنها الضرورة تحتم علـيهم الآن أن يطعمـوا ضيفتهم منه.

في مغرب ذلك اليوم تراقب صافيا العجوز" صـبرات" تضع حصيا تحت لسانها لتمصه، وسألتها عن السبب فقالـت إن أمطار الشتاء عزيزة بل ونادرة، وأنها بذلك تخفف مـن حـدة الإحسـاس بالعطش،وأومـأت للصـبية أن ينصرفوا،وخرجت من الخيشة وشَوت السمكة فـوق زلـط البازلت الأسود، وبمرور الأيام تعلمت صافيا بعض الكلمات من لغة القبيلة وأن تستمع باحتساء القهوة التـي يسـمونها " الجبنة" مطحونة مع الزنجبيل والسكر.

خرجت صافيا مع "رضوى" التي تناهز العشرين مـن عمرها ولها بنتان وولد، يبلغ عمر الكبرى سـبع سـنوات.. أحبت صافيا رعي الغنم وأبانت لها رضوى الأدوية التي بها قليل من العشب بعد توقف المطر من العـام الماضـي،ومع شمس حانية ودود رفعت صافيا نظرها إلى المساء فلمحـت قمما عالية بيضاء للجبل، وأوضحت لها رضوى أنه الـثلج

الذي يتراكم على قمة جبل " علبة" فـي الشـتاء.. وأمـاكن أخرى لا يمتد النظر فيها غلا إلى رمـال صـفراء وارض مجدبة بلا نبتة واحدة.. تشعر صافيا أنها تائهـة فـي هـذا الخلاء الشاسع،خوف ما يتسلل إلى قلبهـا، تفـرد ذراعيهـا وتستدير بجسمها. ها هي غير تائهة.. ولا خائفـة،وها هـي الجبال الصخرية السوداء بقمة بيضاء تتعانق والرمل الأصفر الناعم، هاهي عيناها ترتاحان لسماء صـافية الزرقـة،وكان عليها أن تتبع طريق العودة كما علمتها رضوى، ووجهـت الماعز الخراف فلمحت مصاطب هرمية لم ترها من قبل مع رضوي.. أأضل مرة أخرى؟ تتذكر ما قالته صـديقتها: " لا تتجاوزي الوادي والبئر" ، وهي لم تر بئرا ، فإذن هي فـي منطقتهم.. إلا أن بضع أشجار فقيرة تتنـاثر متباعـدة بـين السنط والسيال.. لا تخافي يا صافيا، فالجد الكبيـر " كوكـا" الذي من نسله " أنوكا" أبو البشَّارية باق في مكانه الآن بعـد أن تناسلت القبيلة، باق لحمايتهم وحماية ضـيوفهم.. هكـذا تقول لها صبرات.

لم يعرف رجال البشارية العابرون أن صافيا غريبة إلا من ملابسها، فوجهها السافر يحمل الملامح الدقيقة نفسها لهم،

ولون البشرة ذاتا الأقرب إلى البني الفاتح المشرب بحمـرة.. إلا أنهم طوال القامـة عنهـا وشـعرهم مفلفـل.. عـزلتهم الصحراء فلم يمتزجوا بأجناس أخرى إلا منذ نحو ألف مـن السنين.

في يوم من أواخر شهر فبراير.. هبط ظل ثقيل فجـأة قبيل الغروب وأصبحت السماء قريبة في ثقل معـدني فـوق الرؤوس..وسوداء اللون، زمت الجـو، بحـرارة ورطوبـة تخنق، تصبب البدو عرقا، وفتحت صافيا فاها لالتقاف بعض الهواء الذي عز بغتة، دوران خفيف برأسها وزغللـة فـي النظر، إلا أن مضيفيها لجئوا مطمئنين إلى خيشهم وأشـعلوا السراج.. بروق ورعود تلهب الصـحراء والجبـل بـأنوار خاطفة.. سيول منهمرة، أغرقت الخيش في الأماكن الوطيئة، ليلاً ونهاراً تواصل السماء هبوطها وهطولها.

لا نوم ولا طعام، كان خيش صافيا وصـبرات تحـت صخرة امتدت كمظلة فوق باب الخيش الذي كانتا تدخلانـه محنيتي الظهر والرقبة.. تدافع سقوط بعض الصخور لجبـل علبة، حملت أصداء مروعة في الوديان الضيقة التي تحـدها صخور الجبل ، فيتردد الصدى في الفضـاء مرعبـا يصـم

الآذان، يبدأ بالذروة ثم يفتت الصدى صوت الارتطامات إلى أنغام أقل قوة فأقل درجة حتى تتلاشى.

في الليلة التالية وحتى الصبيحة يحـاول البـدو لملمـة خسائرهم وخيشهم والانتقال إلى مكان آخر جـاف.. وفـي ضوء النهار أدهش صافيا أن تجد السيول قد حفرت لنفسـها مجاري عميقة، وأن الكثبـان الرمليـة تآكلـت وتفلطحـت أسطحها.. وتصحب صافيا الماعز المعهود إليهـا رعيهـا، وركب الرجال، في حين شغلت النساء السـائرات بالشـياه والأطفال، انبثقت نباتات وزهور في رمال صوانية ما بـين عشية وضحاها،ودت " عميقا" أن تصعد جبـل علبـة لـولا الصخور الكبيرة المنحدرة بجمال أشجار، الهجليج" الضخمة التي ازدادت خضـرة أوراقهـا بنوعـا ولمعانـا.. وعلـي المنحدرات رأيت صافيا أزهارا شوكية تشبه الرؤوس وللون تويجاتها الأحمر شيء من الصفرة، وأسنان كأسها الخيطية- التي كالريش أيضا – تعطي الزهرة منظـرا نعامـا ورأت البنفسج البري وإبرة الراعي وزهور الصخور.

وفي طريق عودتها وجدت أنه سرعان ما أكلت الماعز نبتات السيول،عادت إلى مأوى القبيلة الذي استراحت إليه بعد

أن أشعلت فيه نيرانا جاء لونها أحمر ناريا،وكانت قد أدلفـت من منطقة جاء لون نيرانها أزرق مما يشير في معتقـداتهم إلى وجود الجن.. ووجدت بانتظارها الجلاب وعدداً آخر من العبيد، وسيرشدهم دليل آخر على الـدروب التـي غيـرت السيول معالمها حتى يلوح لهم وادي النيل ويتجهـوا إلـى أسيوط، لكن مغادرتهم ستتأخر لبضعة أيام، حيـث أصـيبت صافيا بحمى شديدة،وفصدت لها صبرات الدم بخنجـر، ثـم ربطت على رأسها تميمة عنخ (مفتاح الحياة)، ولـم تهـبط الحرارة، تهذي صافيا وتروح في غيبوبة، تتبدى لهـا أمهـا ونسة شابة تحكي أن جدتها البجاورية حين زواجها سـكبوا اللبن لإيزيس حتى لا تفترق أبداً عن زوجها..وترامي لصافيا صوت ناي من بعيد، من ذا الذي يعزق على (إينلهويت) هذا اللحن الشجي، كان جدها يعزفها لزوجته..تصلي صافيا " يـا مريم يا أم النور".. ترى الوجه الأحمر للأرمني قائد دوريـة مكافحة الاتجار بالرقيق وتهريبهم، إلا أنـه أصـغر سـنا، يغوص في رمال متحركة، فتندفع هي.. لا.. ليست هي و بل شبيهتها بملابس غريبة قصيرة، وشعر قصير، تمـد يـدها لتخرجه وتفلح.. وفي عمق البحر تقـف صـافيا الأخـرى

وتنجرف مع دوامة ، تدور معها، تفزع نظرتها ، تفتح فمها ولا تخرج صوتا، غرقت أو كادت، سبح ذو الوجه الأحمـر حتى ما قبل الأعماق، دفعها لتعلو ، دفعها فسـبحت، فـرد راحة يده فتداخلت أصابعهما.. تفتح جفونهـا بصـعوبة، لا تزال تسمع صوت الناي من بعيد وصبرات لا تزال تتحـدث عن الأسلاف.. أغمضت من جديد، رأت شيخا جليلا يضـع راحته بردا وسلاما على جبينها. ابتسمت له.. ارتفع طيـف الشيخ لأعلى الخيش، لكن يده الرطبة طيبة علـى جبينهـا.. عباءته مزركشة بأوراق فارسية، كانت داكنة وهـي مـنحن على جبينها ،وما أن رأته باتساع عينين يقظتين حتـى أدرا وجهه في سلام وتواضع، وارتفع فاتسعت أوراق الشجر في عباءته وافتح لونها.. قالت صبرات ويدها لا تـزال تـدهن جبين صافيا: حمدا لله على سلامتك. سألت: ما ذلك؟ مشيرة إلى جبينها.

-ردت رضوى: إنه الزبد مع تراب قمة جبل حميثـرة حيث كان يتعبد سيدي أبي الحسن الشاذلي.

صحب قافلة العبيد عدد مـن شـباب القبيلـة لـبعض الطريق، وقد خففت النباتات المنتشرة من إحساسها بـالوهن، العبيد خاف الجمال مقيدون بالسلاسل ، يسيرون حفاة، شـبه عراه، تجمدت على وجوههم أحاسيس المذلة والألم، فبـدت وجوههم غير مبالية مستكينة، مستسلمة لمصير مجهول.

على حين غرة، لاحت دورية عسكرية من حملة مكافحة الرقيق على رأسها الأرمني ماركار إستبيان وبصحبتهم أدلاء من بشارية " أم ناجي" الذين لا يكنون مشاعر ودية لبشارية " أم على " في جبل علبة، وحاصرت الدورية قافلـة العبيـد، وحملق ماركار للمرة الثانية في وجه صافيا " لـيس الأمـر عروسا نوبية إذن!!" ، وصهلت جياد العربـان المصـاحبين للقافلة وافتعلوا معركة مع أدلاء بشارية أم ناجي.. في سرعة خاطفة ورشاقة احتدم قتال بينهما.. واستخدم بشارية أم على رماحاً اقتطعوها من الفروع الخضـراء للنخيـل.. اتسـعت الدائرة للترك فراغاً حول قافلة العبيد، وانخرطت الدورية في المعركة، انطلق احد عربان أم على بحصانه بأقصى سرعة ورمي الجريدة التي بيدها مستهدفا الأرمني، على بعد أكثـر من خمسين قدماً، فأصاب ساقه،وأتبعها بأخرى أصابت يـده

فوقع على الأرض، وسارع عربان أم على بالفرار وتـبعهم بعض الأدلاء لأم ناجي.. بدأت الرياح تسرع وتصفر،وتزداد لتصعد إلى ذروتها فتدوم الرياح في عاصفة رملية حلزونيـة فحاول كل أن يثبت في موقعه، وغطى العربـان وجـوههم وكذلك تاجر العبيد،وصرخ العبيد فقد رأوا راقصة في قلـب الصحراء لا تني ترقص وتلف في حركات عنيفـة وينطلـق شعرها إلى أعلى بلون أصفر كبريتي ، وتـدور، وتـدور.. فزع العبيد من المنظر وغشيت الرمـال وجـوههم فـأقعوا ساجدين وأيديهم على وجوههم إلى الأرض ، مستديرين عن العاصفة برؤوسهم ،وبالرغم من ذلك أصر التاجر علـى أن يتحركوا وسط العاصفة وشدهم من سلاسلهم المصفدين بها، فاضطروا إلى السير وأيديهم على وجوههم، وركبهم خـائرة من رؤيتهم " جنية" ترقص وسط الصحراء.. وبعـدوا عـن الدورية التي أصيب قائدها بشلل سيستغرق شهرين قبـل أن يتمكن من تحريك ساقه وذراعه.

وعندما هدأت العاصفة كانت القافلة قد ابتعدت بالفعـل عن الدورية وسقط العبيد واحدا بعد الآخر من شدة الإعيـاء والعطش.. توقفت القافلة لبرهة، وصب التاجر المـاء الـذي

جلبه في براميل فيما يشبه " الطشت" وزحف العيد على أربع ، يجثون، يسقطون بوجوههم على الماء ليلعقوه. بعـد أيـام وصلت قافلة إلى أسيوط حيث سيمر النخاس ببعضهم علـى أحد الأديرة ليقوم رهبان بخصـي الصـبيان ذوي الرشـاقة والوسامة، إما بطريق" الجب" أي الإخصاء الكامـل بقطـع الخصيتين والقضيب، أو " الوجر" بقطع الخصيتين فقط.

كان يتعين أن تُقل صافيا إلى القاهرة عن طريق النيل، أرسلها التاجر مع صبي يدعى " رمسـيس" إلـى مراكبـي ليسلمها إلى يسارجي العبيد. يحظى رمسيس بروح اجتماعية، يحب الحكي كثيرا، مر بها على مزارع في حالـة عطـش لانخفاض منسوب مياه النيل،ومر أمام محلات عائلة " خشبة" ، يقول لصافيا إنهم " صار تجـار" يعنـي كبيـر التجـار.. ومقارنة بالحمار الهزيل الذي تعتليه صافيا، عبرهما حمـار أبيض برقبة طويلة وأرجل قوية، يسير متبخترا وفوقه امرأة تسدل عل يوجهها قطعة من القماش الخفيف ولونها أبيض.

همس رمسيس لصافيا: إنها تركية غنية.

- كيف عرفت يا رمسيس؟

- من الحمار ومن اليشمك الذي ترتديه.

ولفت نظرها إلى واحدة بالسوق تقف تحت الجزء المغطى بالحصير لتتقي الشمس وتساوم البائع الجالس أمام دكانه، وهو عبارة عن فتحة في جدار، فأخبرها أن الذي تلبسه على وجهها هو " البيشة" ولونها أسود دائما،وأن هذه الست متيسرة.

حكى لها عن مقابر ذات أسقف جميلة عليها رسومات بني آدميين أو نصف بني آدم ونصف حيوان يقولون إنهم فراعنة، لكن السقف ملئ بطلقات الرصاص أو عليه هباب أسود لأن المسيحيين القدامى كانوا يهربون فيه ويطبخون ويستدفئون بالنار فيه،وقالوا إن العرب المسلمين اعتقدوا أن الرسم حرام.. وفي غرب المدينة أشار إلى كنيسة جديدة يصلي فيها أتباع الأمريكيين الذين جاءوا يبشرون بالقوارب ثم يمضون. وفي نهاية حارة ضيقة لا يزيد اتساعها على متر، كان يجلس صبي من عمر رمسيس الذي ترجل عن حماره، فوقف الآخر مغتاظا: لم لا تترجل المرأة؟.. امتقع لون رمسيس حين رأى وراء الصبي اثنين آخرين في حالة تحفز، فرد من فوره: وكيف تترجل فاطمة؟ فاهتزت رأس الصبي مشككا مخاطبا صافيا: مين شيخك؟.. فغطت صافيا

وجهها اضطرابا وقالت بصوت: سيدي أبو الحسن الشاذلي. فأفسحا لهما، وقال آخر: دعه إنه من نصارى عبده باشا.

-رد رمسيس مبتسما: شكرا يا ابن الخالـة، أو ليسـت جدتنا واحدة!!

ركبت صافيا في مركب محملة بالقلل القناوي المتوجهة إلى القاهرة، تاركة في أنفها رائحة تراب جاف، وهفت عليها مشاعر حنين لرائحة التراب المندي، رأت الصـقور تحـوم فوق القارب على ارتفاعات عالية، صوت صفقات أجنحتهـا لا تصلها، تبدو كأنها نائمة في الفضاء،وكأن صافيا في حلـم تراه من وراء غلالة الزرقة الصافية للسـماء. تحسسـت " شقفة" طرية من الفخار الذي كتب عليها القس تعويـذة ثـم رماها في النار باسمها.

-٣-

بعدما عملت صافيا سكرتيرة لدى " حسـن" أو حسـن المغرم، وهو اسمه بين صافيا وواطفة، قرر أن يـذهبا إلـى فرع مكتبه بالإسكندرية لتجارة السيارات، إذ أنـه لا يـؤمن كرجال الأعمال الجدد بالتخصص.. كانت سـيارته أحـدث

موديل، عندما يلجها المرء ينعزل عن العالم، يبدو زجاجها مزدوجا كزجاج القطارات الفخيمة والطائرات أو بطانة استديو إذاعي..ترى حركة الناس رجراجة، صاخبة وصارخة، إلا أن صوتا لا يصلهما.. فقط موسيقى الصمت لكليهما، ثم يسمع حسن صوت الصلصلة من جديد،ويظن أن بالعربة عيبا ويفحصها.. ولا يجد سببا، لقد وصلت لتوها من مصنعها الألماني، تقف العربة و ينقطع الخفوت، تسير فيعود الصوت الواهن. وفي لحظة استجابة لذبابات توتره التي طالت وارتدت إلى نحره، مدت صافيا يدها إلى أذنيها وخلعت القرط.. عندئذ سبحا في صمت الطريق الصحراوي.

مد يده إلى القرط في كفيها.

تبسم حسن لنفسه: "إنه القرط في أذنيها الجميلتين الصغيرتين، إنه القرط دائما أو ما يلفت نظري في المرأة، إنه القرط الذي يثير شهيتي لتقبيل رقبتها وما وراء أذنيها".

القرط بشكل مفتاح الحياة داخل مثلث مزود بنهايات دائرية.

وقف حسن وصافيا أمام المصور، كان الثلث الأعلى من ظهره الذي تضع صافيا يدا محبة عليه يدق بعنف، و

فروة رأسه تنبض، أسنانه تكاد من فـرط لهـاث اللثـة أن تترجرج من جذورها. قلب حسن يدق بعنف غير منتظم،ولم يكن الأمر جللا: لقد تزوج فقط.

مثل طائر " غر " ملجوم جناحه الأيمن إلى سـاقه فـلا يستطيع الحراك، كان جل حياة صافيا، فلم يوافق " إبـراهيم شتيلة" زوج أمها، وهو بالوقت نفسه عمها، على اقتران حسن الذي يقاربه في العمـر مـن صـافيا حتـى ينقـذه مهـرا كبيرا،ويشترط أن تعطيه صافيا من راتبها بعـد تخرجهـا – النصف – نظير تعبه في تربيتها وإسهاما في تربية إخوتها.

يوم عقد القران أسر له هامسا ساخرا: يـا بنـي أنـت أخذت أكبر مقلب في حياتك"، هذه العبارة التي تظل خبيئـة حتى تنفذ إلى لسان حسن في أواخر حياتهما الزوجية.. وفي اليوم نفسه حدث أمران غريبان: الأول في دمياط وسـتعرفه صافيا عند منتصف الليل،والآخر في القاهرة ولن تعرفـه إلا بعد سنوات وقد أنجبت ثلاث بنات.

في زفة العروسين، رقصت بنت عم أبيها " عديلة" التي تمت بصلة قرابة للأم أيضا، رقصت على نحو فائر وجنوبي ملتذ.. عجبت صافيا لأن تلك المرأة على وقار وانكسار، وإن

لاحظت مؤخرا أنها ترتدي صليبا إلى جانب المصحف الذي رأته من قبل وخجلت أن تسألها من فرط وقار تلك المـرأة، امتن حسن لرقصة القريبة.. وبعد انتهاء الزفـاف دخلـت صافيا الحمام لتعدل من شأنها وطرحتها استعدادا للسفر إلـى القاهرة، لكن عديلة اقتحمت عليها الحمام وهي على وشـك التبول وفي عينيها رغبة حارقة، انزعجت صافيا واستأذنتها برقة أنها ستسوى فستانها،وقفت عديلة عنـد البـاب نافـدة الصبر واقتحمت عليها مرة أخرى، فخرجت صافيا تاركـة إياها دون أن تفعل ما أرادت.

تودعت وأمها وإخوتها وعمها، الـذي تلفـت للنـاس حواليه لحظة انطلاق السيارة وقال: " ما كان لها أن تتزوج، القفة لها ودنين،لازم يشيلها اثنين".

في عصر ذلك اليوم أمـرت والـدة حسـن بإخصـاء خروف.

شحنات التوتر المتصاعدة والعالقة في فـراغ حجـرة نومهمـا، لا ،ولم،ولـن تـؤدي إلـى كسـر جسـر معـد للانفجار..سيغرق حسن في نوبات من الضحك.

ولأن صافيا تسلك حياتها كحيوان مطـارد، التصـقت بزوج يعشق أذنيها وأقراطها واستكانتها.. وفر لهـا مـلاذا وثلاث وجبات باليوم، في البداية كانت تأكـل لـيس لأنهـا جوعانة،بل لخوفها ألا تجد الطعام حينما تريـده. لـم يكـن عسيرا أن يلحظ حسن أنها تعتمد عاطفيا على المقربين منها وخصوصاً الأصدقاء لا الأقارب، فالأصدقاء بالنسـبة لهـا دعامة قوية ترتكن إليها وتمنحها ولاء وامتنانا. " والاسـتثناء واطفة، أخت جدتي".. استراح حسن لكونها نائبة إلى حد مـا عن عائلتها، رغم سذاجة هي جزء مـن تكوينهـا، تكشـف لحسن أنها تملك حدسا تجاريا، حدساً نظريا، بارداً وسـليماً، ويستبشر بها في إبرام الصفقات " تجلب لي الحظ الطيـب" ، ولن ينصرم العقد الأول من زواجهما حتى تشاركه سفرياته. وفي الطائرات تبرق لها طبيعة اجترارية ولائمة (أتتواصـل مع عائلة يتم الحوار فيها بين الإخوة وبعضهم،وبينهم وبـين الأب بالتضارب بالأيدي وأحيانا بالسكاكين؟! أو ذلـك الأخ الذي ضرب الأم، وعند مرضـها واحتجازهـا بالمستشـفى تطلب رؤيته دون إخوته: " إنه ابن سبعة أشهر.. عصـبي.. مسكين"..).

عائلة يتفاخر أفرادها بأنهم لا يحضـرون حفـلات ولا جنازات بعضهم.. عندما توفي الجد، كان ابنه إبراهيم شتيلة مع عشيقته التي ظلت تواسيه حتى فاتت جنازة والده.

ألم يدأب شتيلة على السخرية من أمهـا ويقلـدها فـي حركاتها الأنثوية مظهرا مدى غبائها وعبطهـا وهـي فـي الحقيقة تفوقه ذكاء ومنطقية في التفكير؟ تتلقى منه جنيهـات قلائل وتدبر المعيشة بحذق بالغ.. بالتقسيط مثلا.. اشـترت مرة قماشا للحاف،لم يعجبه اللون وظل يسـتهزئ بزوجتـه ويثير ضحك أولادها عليها" إنه بلون الكاكا.. بلون الخـراء" نامت على قهرها تلك الليلة، قررت أن تبتلع الإهانات دفعـة واحدة، لا تعذب نفسها باستحلابها المر.. استيقظت وقد فقدت النطق.ز وبعد تقدمها في العـلاج سـتقول فتافيـت كـلام، كمربعات الكلمات المتقاطعة ، غير مفهومة أو منسقة،وسعى شتيلة كعادته أن يستجاب إمطار الرثاء لحاله، وأنـا يمـران بشارع محمد على –تتـذكر – أخبرهـا أن طبيـب المـخ والأعصاب قال إن أية إصابة أخرى ستلحق بالمخ أو تصيبها بالشلل.

ردت عليه صافيا: لو حدث ذلك، فما من مسئول غيرك يا عمي.

حدث ذلك وما هـو أسـوأ ،أصـيبت الأم بسـرطان الثدي،ومن رحمة المولي أن تركزت الإصابة في صـدرها الأيسر، والذراع المشلول الفاقد للحس هو الأيسر.. ماتت بعد شهور ستة من الإصابة عن أربعين عاما.

رفض طبيب بمعهد الأورام أن يجـري لـلأم عمليـة جراحية لعدم انضباط ضغطها المرتفع، فأخذتها صافيا إلـى بيتها وكانت حاملا في ابنتها الأولى، قالت الأم حيية " تأكلني الغربة".. وترفض أن تقيم عندها ، تنتظر زوجهـا كطفلـة ليعيده إلى بيتها حيث جنينة صـغيرة تحتضـر مـن إلقـاء الجيران ماء الغسيل المشبع بالبوتاس، وطقم السرير الأبيض الذي بدأت تطريزه منذ ثلاثين عاما،والكنبة المصطبة وعليها الكليم من قصاصات القماش.

قالت لها صافيا: عجبا لك يا أم، تفزعين منـه إليـه.. تمردك عليه ميئوس منه، فاخترت الخضوع لـه، أن تحبيـه وتتلقي منه حب السوط وكلمات الاستهزاء، بـات حاكمـك الأعلى.

بالكاد فهمت الأم كلماتها ، رفضت تبنيها أو حتى استيعابها.

" أتعرفين أني سأكون مثل ذلك القارب، يسير وحده.. وقد سار " سيد" وحده في رحلة مبتئسة إلى العراق، كسب مالا كثيرا.. قلّت قيمته بعد تدهور قيمة الدينار بعد حرب الخليج الثانية، فهر إلى سورية ثم عاد بعد سنوات خالي الوفاض،يتعارك مع أبيه بشأن ما أرسله من نقود.. يقول شتيلة إنها كانت نقود للمعونة، ويصر الابن: " أرسلتها لك لتدخرها لي ولم أمنحك إياها".

يخطر لصافيا وهي جالسة بمقعدها بالطائرة أن واطفة غارقة هي الأخرى في رؤى طيفية، وقلقت على صحتها العقلية، فأفضت بذلك لطبيب العيون الذي يعالجها،وطمأنها بدوره أن هذه الرؤى الطيفية هي نتيجة مرض الجلوكوما. وثمة ما يقلقها أن واطفة تظل تحكي عن الأم الكبرى التي حظيت باسم من أسماء الأحرار،وعمرت خلافا للأرقام تسعين سنة، وتتخيل واطفة أن اشتراكهما في الاسم يعني شبها في قدريهما. وتواصل الحكي عن اليسارجي الذي تسلم صافيا في القاهرة، ودفع بها إلى بيت أحد أصدقائه لإخفائها

لأن الرقابة مشددة عليه،كما أن الفرنسي الذي أوصى بجلبها قد غادر مصر،وظلت الفرصة الوحيدة أن يدبر لها شـاريا، أخفاها الصديق في الدور العلوي، فركنت إلى المشربية لترى سماء أرجوانية تتقاسمها مآذن عدة، كان جوا روحانيا لمغيب الشمس التي نشرت ألوانا أرجوانية متدرجة على القـاهرة، تخفت رويدا كلما صعدت بناظريها إلى السماء لتجدها زرقاء ممزوجة بحمرة الغسق ،وفي المئذنة الأقرب ترى المـؤذن بعمامة ذات طيات كثيرة، ولحيته مسـدلة وقميصـه المقلـم وجبته تصل إلى ما قبل عقبيه ليظهر الخـف الـذي ينتعلـه واضحا، وهو ممسك بخشوع السور الخشبي،وينطلق صوت جميل برنين خافت،ورجع الصدى متعدد في مناور الأبنيـة المحيطة، يترامى صوته إلى الجوار فيتهجد صوته ناعمـا، غامرا بالشوق إلى الله.

توقد حنين مجهول في صدر صـافيا، إلا أنـه حنينـا لمجهول قد يتراءى قريبا.

في ذلك الوقت كان " صفي الدين القفاص" قد أتـم ٤٥ عاما دون أن يتزوج لفقره الشـديد، إلا أن مزاجـه كـان " فاخرا" يحطم طوال حياته بسرية يشتريها بماله لتبهجه، فقـد

تعذر عليه ذلك رغم ما يصنعه مـن أسـرة " العنجريـب" السودانية ومن أقفاص كبيرة للبيوت لتعبئة العيش البيتي بها، وأقفاص لمحلات الخضـر والفاكهـة وتقفيصـات لعشـش الفراخ،وبرع بشكل خاص فـي عمـل قاعـدة " البنكيـة " الإسطوانية الشكل التي توضع فوقها طبلية مرصوص عليها الصبية ورجال الحوانيت ليفتح الرغيف المستدير ويملأه بلحم الرأس.. إلا أن ذلك كله لم يجد عليه سوى بالقليل من المال لشراء جارية،وزاد الأمر صـعوبة صـدور قـانون منـع الرقيق.. وكان له صديق يهودي ذو رعوية فرنسية اسـمه " سمعان كوهين" وزوجته حامل على وشك الوضع وبحاجـة إلى من تخدمها في هذه الفترة،وكان ثمة اتفاق بينهمـا أنـه يمكن التشارك في جارية،وحجة صفي الدين أن أمه العجوز كثيرة النسيان قد تخرج وتضل في الشارع أو تنسى الطبـيخ على " الكانون" وتبدو كطفلة في حاجة إلى من يرعاها.. كانا يتشممان أى أن أخبار عن تهريب الجواري اللاتي ارتفعـت أسعارهن، باعهما اليسارجي صافيا على أن ترعى " يائيـل" زوجة سمعان طوال النهار بعد أن ولدت " إبـرام"، وقبيـل الغروب تتوجه إلى منزل صفي الدين.

وبعد مرور ثمانية أيام على مولد الطفل كـان يتعـين ختانه، إلا أن ذلك وافق يوم السبت حيث لا يعمـل الحـلاق اليهودي وذكور اليهود كلهم.. وقلب سمعان كـان صـخريا وعمليا ، فطلب من يائيل أن تقوم بعملية الختان بنفسـها وان يقل إلى جانبها الحلاق يعطيها التعليمات، فصرخت: " كيـف أتحمل آلام وليدي بداية!! وتطالبني أن أكون سببا في آلامه" ، فرجا سمعان الحاخام تأجيل الختان حتى الغد، فسـمح لـه وجاء الحلاق، وكانت يائيل قد أوقدت الشـموع فـي اليـوم السابع لتمتد أيام الشموع الموقدة إلى ثلاثة أيام لتحـول دون أن ينسل الشر إلى المنزل. قام الحـلاق باستئصـال القلفـة بضربة واحدة من موسى ذات حدين بعد أن شد القلفة تمامـا لسحبها من الحشفة.. هنا بدأ صراخ الوليد ،ولم يكتف بإزالة الجزء الخارجي من القلفة مثل المسلمين، بل مزق البطانـة الداخلية للقلفة بغرض تعرية الحشفة تماما، مستخدما في ذلك ظفر إبهامه.. يعلو صراخ الوليد ، ثم وضع الحلاق في فمه جرعتين من خمر " العرقي" ووضع طرف العضو في فمه، يمتص الدم الممزوج بالخمر ويبصقه عدة مرات.

ويائيل مرهفة الأعصاب كاد يغمى عليها من صـراخ وليدها وهي خارج الغرفة، فنهرها زوجها:" هل تنسـين أن الختان هو علامة العهد بيننا وبين إبراهيم، والختان يـذكرنا بما قطعه يهوه من عهد بأن نرث فلسطين وما بين النهرين، هوني عليك فالنبي " إيليا" يبارك إبرام الآن". قالت: " أخاف أن ينزف حتى الموت كما حدث لابن أختي".. في تلك الأثناء ازرق لون الوليد واختنق صوته، شهقت يائيل،وسارع سمعان بالقول: "إذا كانت أختك قد فقدت بكريها، فلقد أعفي ولـداها التاليين من الختان".

***

في يوم رجل الأعمال الأرمني" هرانت استبيان" علـى بيت سمعان لأمر يتعلق بالعمل، ودخـل المنـدرة وقـدمت صافيا فنجانا من القهوة، فنظر إليها باستحسان نظرة لا تغيب عن فهم التاجر اليهودي.. كم ترك له هرانت بعـض بقايـا الصفقات، ذلك الذي أثرى ثراء بالغا مـن تصـدير القطـن المصري إبان الحرب الأهلية الأمريكية قبل نحو خمسة عشر عاما.

-إنها خادم زوجتي.

جفلت صافيا لما رأته شديد الشبه بالقائد العسكري الذي صادفها مرتين في قافلة العبيد، إلا أن هرانت لم يكن أحمـر اللون.

قبيل انصرافه قال هرانت إنه يدعوه إلى حفلة " بـاللو" راقصة في بيته سيحضرها الخديوي (إسماعيل)، ومـن ثـم سيرسل له عربة تجرها الجياد وهمس له أن يحضـر هـذه الفتاة في عصاري يوم الحفلة.

عادة ما كان سمعان يرتدي الجلباب، غلا أنـه ارتـدى الاسموكن يومذاك، وانتوى أن يهدي الجارية صـافيا إلـى الأرمني لمعرفته بشغفه بغير البيضاوات.. متمنيا في نفسـه أن يتوفر من ربحه خمسين جنيها يدفعها للقفاص لتخلو لـه ملكية صافيا.. صارح سمعان زوجته فوبخته: "ألا قلب لـك، أنا مازلت متعبة".

-حالما تتمين أربعين يوما بعد الولادة سأهديه الجارية.. عله يتنازل عن صفقات أكبر حجما ذات ربح أكثر.

بتت صافيا عندما رأت قصر الأرمني في حي الـدرب الأحمر والحديقة الغناء المحيطة به.. وتمثالا لامرأة عاريـة تحمل مشعلا في المدخل،وارتفاع سلالم من جرانيـت وردي

لامع حتى المدخل الذي يغص بنوافذ مسوماً على زجاجهـا مناظر حب لقوم غرباء. ربت هرانت على خدها وأمر بعض خادماته أن يزينها ويلبسنها ملابس جديدة، وجلسـت أمامـه بخجل وأعلمها أن تجلس دون حراك، وظل يرسمها طـوال ساعتين.. تأملها وبدأ مترددا في أن يمد يده مرة أخرى إلـى وجهها.. أبقاها ساكنة بالقرب من بشـرتها وهيـئ إليـه أن حرارة مئات الشموع التـي تمنحهـا احمـرارا نحاسـيا لا يباري.. هل سينقر على النحاس ليصدر صوتا صلبا، أبعـد يده.. كيف يصل إلى اللون ويرسـم أيضـا تلـك العيـون الوادعة؟.. لم تعلم صافيا أنها جميلة إلا عندما أطلت علـى اللوحة.. وأعطاها ثلاثة جنيهـات ذهبيـة " احتفظـي بهـا لنفسك".. وقبيل الحفل انضمت للخدم في المطـبخ بالبـدروم للمشاركة في إعداد الأطعمة والأشربة للحفل، ولـم تعـرف صافيا أن القائد الأرمني هو أخو المضيف ويرقد في قصـره على بعد أمتار قليلة بسبب إصابة ساقه وذراعه.

في المطبخ شعرت صافيا بالخوف حـين رأت الميـاه تتدفق بلا انقطاع من صنابير بمجرد أن تديرها اليد، وهـي في بيت مخدوميها كانت تنتظر " السقا" لملء الأزيار، وعن

الأنوار التي تسطع بغاز الاستصباح وليس بالشموع أو لمبات الجاز.. وفي الشارع كانت قد شاهدت من العربة الحنطور " طل الرش" يهطل على شوارع مرصوفة لتلمع مـن فـرط النظافة.. ألبستها الخادمات ملابس تليق بالحفل، انتشت بمـا لبست حتى جاء الدور على قدميها الحافيتين وانتعلت حـذاء لأول مرة في حياتها، أصابها اضطراب فلم تعـرف كيـف تمشي به،وحين جاهدت لتمشي ظنت أنها باتت عمياء ، فقـد فقدت ما يساوي نصف حواسها، قـدمان عميـاوان ، إنهـا استوعبت بقدميها الحافيتين القصر داخلها، بالملمس الأملـس للرخام الوردي للسلمات الأمامية، ولدفء الباركيـه الكـاتم لأسرار الخطوات، ونعومة فرو القطـط الآسـرة للسـجاد والمشايات، أدمجت في نفسها هذا العالم من الحواس الجديدة داخلها.. الآن تمشي في القصر كالعميـاء، لتقـدم الشـراب للضيوف.

راقب سمعان الأبهة والفخامة كأنهـا تخصـه الآن أو ستخصه عما قريب، ويتقن دوما الاحتفاء بنفسه، فسجل فـي ذاكرته البصرية الحية أبدا الخديوي إسماعيل وهو يخرج من جيبه علبة نشوق من ذهب مموه بالمينا،وممسكا بيده مسبحة

من خشب الصندل ، مئذنتها وهدايتها وشاهداها مـن ذهـب مرصع بالألماس.. وكانت أقراط السـيدات مـن البلاتـين المرصع بالألماس، أما طقم القهـوة الـذي قدمتـه صـافيا للضيوف فكان من الصيني المذهب ولكل فنجان ظرف مـن الفضة المذهبة. يمسك الأرمني منشة من الذهب، ومنفضات السجائر من العقيق ذات الرسوم على الجـانبين أو تماثيـل متناهية الصغر،و أما النرجيلات فمبسـمها مـن الكهرمـان المرصع بالألماس والزمرد.

دخن الخديوي غليونا من الذهب به حليـة مـن أوراق نباتية مرصعة بحبات يبلغ عددها أربعمائة حبـة ألمـاس.. وراقص الرجال النساء، ولانت ملامح سـمعان استبشـارا " متى اصل لعالم المجوهرات؟".

انتهى الحفل ، فخلعت صافيا الحذاء، لا حاجة بها لـه.. تريد أن تتذوق ملمس أحجار البازلت المرصوف بها الطريق إلى القصر.. قطرات الماء المنزلقة عليه بعد طـل الـرش، ملمس التراب ورائحته في طريقها إلى بيت صـفي الـدين، يخطر لها النعومة المهدهدة لرمال الصحراء ووخـز بقايـا

الأصداف، وخشونة الصخور المدفونة الملتهبة، أحبت ذلـك كله وأحبت أكثر تجعيدة باطن قدميها المبصرتين.

عندما عادت صافيا إلى منزل صفي الدين متأخرة على أن تقضي ما بقي من ساعات الليل لرعاية والدتـه وتطـبخ لهما، كانت في حالة من اندهاش،وحكت لصفي الدين الذي لم يكن رآها من قبل بهذا الجمال، ولم يكن يفضل أن يأخـذها حتى تأنس له، تقول: " يا سيدي كانت النساء تلبس زجاجـا يلمع كثيرا وزجاجا ملونا في أصابعهن وآذانهن وأعناقهن".

حارت صافيا كيف تخلع ملابسها حتـى تعـد طعـام الإفطار بعد حكيهما الطويل، ناداها مستعجلا أكثر من مـرة أن تعد فطور أمه،وذهب إليها فوجدها في حـيص بـيص، وكان أن ساعدها في خلع الفسـتان، كـان حنونـا للغايـة ،وتفجرت لديهما نشوة غامضة واحتواها صفي الـدين بـين منكبيه العريضتين وفي رغبة عارمة احتوته صـافيا.. كـم كانت دهشته حين وجد أن جاريته عذراء ومن الآن وحتـى يفرقهما الموت ستلبد صافيا في حضنه.ولأن التاجر اليهودي وزوجته في حالة عراك دائم، لم تعر صافيا أذنيها لتراشقهما بألفاظ التأنيب أو المعايرة، إلا أن اسمها ورد واضـحا هـذه

المرة.. سيشتريها من صفي الـدين ويهـديها إلـى التـاجر الأرمني الثري،ويائيل تقول اتركها فإنها تساعدني.

بين أحضانه أفضت صافيا وهي متضايقة بما سمعته في الصباح.. أحس صفي الدين بلمحة من سرور: " أتفضـلينني على الثري الأرمني؟".

- لأني حبلى..

وبين الدهشة والسرور وحصار خطر حرمانه منهـا و قال:

- فلنهرب.

- ليكن صباحا.

- بل الآن.

- إلى أين؟

- لا أعرف ، لكن دعينا نتوغل بعيدا عن المحروسة.

كانت شقفة الفخار هي أول ما وضـعته صـافيا فـي بقجتها.

***

أحاطت دمياط الهاربين بسماء كاللثام الرمادي إلا مـن ثغرات بيض، كانت الغيوم ملاءة من السـكون، والرطوبـة

وصلت إلى درجتها القصوى، تتواطأ مع البرد لتعشش داخل العظام، لا ترحمهم الرياح الجنوبية الشرقية التي مرت فـي طريقها أولا على بحيرة المنزلة وتشبعت ببخارهـا، لتنفثـه روماتويد في بعض أهل دمياط.

غاصت أقدام صافيا والأم " عيوشة" وصفي الدين فـي وحل طرق خضلتها الأمطار، وتفتتت عليها قطـع البـرد.. مشوا طويلا على حواف حقول الأرز المغمورة بالمياه والتي ترعى بها أسراب الحنشان والقراميط.

كانوا قد استقلوا مركبا شراعيا متجها إلى دمياط يحمـل بضائع ومسافرين ولحسن الحظ كان وقت ارتفـاع الميـاه، فوصلت مع كثير من الفأل الطيب والريح المواتية بعد ثلاثة أيام.

في البداية عمل صفي الدين في ميناء دمياط، وعـرف نفسه بأنه صفي الدين الشيال،وأسكن أمه وصافيا في إحـدى" عشش" رأس البر المصنوعة من "الكيب" والقريبة من منطقة " الجربي" وتحتم عليه أن يقطع مسافة طويلة على " عربـة كاروا" ذهابا وإيابا.. واستقبلهم الجيران في البداية بلا ريبـة أو تساؤلات، إذ كانت عيوشة تخلط بين الابن وأبيه، فمهنـة

الابن شيال مثل أبيه،وأنهم جميعـا قـادمون مـن الصـعيد الجواني بالقرب من زراعات الثوم حيث عمل أهلها.

قادت صافيا سيدها إلى مجاهل وإمكانات لم يتوقعها من نفسه أو مـن هـذه الصـغيرة، فشـعر بغيـرة مشـبوبة عليها،واستفهم " أني لها بهذه الدربة وكنـت رجلهـا الأول!" وشرحت له أن ستنا عرفتها إمكانياتها أولا، وكيفية التكيـف على نحو إيجابي بل و المشاركة.. ستظل الغيـرة هاجسـا يقض نومه أحيانا، وما يزيدها أن صافيا منفتحة على النـاس بطبيعتها ،وتذكر ما قيل عن أخلاق الرقيق وانفلاتهـم.. وان الأمة التي تزني تعاقب بنصف عدد الجلدات التـي تتلقاهـا الحرة ، تعجب في نفسه: لم النصف،والفعل فـي الحـالتين واحد؟!

في عازقي (مقهى صغير) اعتـاد وصـفي الـدين أن يجلـس مـع زملائـه الشـيالين يـدخنون النرجيلـة أو الجوزة،ويترحم كبارهم سنا على أيم عز الميناء حين كانـت السفن تأتي مـن بـلاد الخواجـات الفرنسـاوية والجريـك والقبارصة محملة بالخيرات من الأخشاب والنقـل وزيـت الزيتون والملبوسات، وتعود مكدسة بـالأرز ، وخصوصـاً

الأرز الدمياطي،والقطن والقمح والملح والحرير.. أما الآن- وتنطلق زفرات الحسرة – فلا تأتي إلا سـفن مـن سـورية ورحلات عن الميناء السفن الكبيرة لأنها باتت تخـاف مغبـة الانغراز في الرمال التي تتراكم على الساحل لأنـه أطمـي وسدته الرمال، بل وبدأ الدمايطة أصحاب السفن الذين كانوا يشحنون الأرز إلى القسطنطينية في بيعها.. واقتصرت حركة الميناء على السفن الشراعية.

أصبحت الميناء جدرانا متشامخة تخفي خرابة داخلهـا، ولم تعد إلا ظلا يتلاشى لمجد كان.

قبيل الغروب يركب مع أقرانه علـى عربـة الكـارو، يستملح إحساسه بالرضا بامتلاك سرية جميلة ستنجب له بعد أن جاوز الأربعين، محدقا في سماء الميناء الملبـدة غالبـا بالغيوم خلافا لرأس البر، وتحلق طيور الغُـر والحمـراوي والبلبول والخضيري وأبو منازل والبجع والبشاروش.. يبـدأ جسده في الاسترخاء مع ظهور غابات النخيل علـى طـول الطريق المؤدية إلى الجربي.. ويبدو الرجال حكاياتهم عـن شجاعة التحول من مهنة إلى أخرى بعد اضمحلال المينـاء وتعلمهم حرفا جديدة مثل صناعة الموبيليـا، وأيضـا تعلـم

الصيد وبيع الأسماك بأن يسرحوا على البيوت وينادوا علـى بضاعتهم في الشوارع.

(٤)

امتلأ قوام صافيا بعد ولادات ثلاث.. لم يلفـت حسـن نظرها أبدا لذلك،طالما تلبس الأقراط التي يهديها لهـا مـن أسفاره الكثيرة،ومتفرغا لإدارة ثـروات العائلـة وأعمالهـا المتركزة في يديه باعتباره الابن الأكبر. في يوم نزهة نيليـة بمنطقة الجربي برأس البر، صعدت فوق القارب تجثو علـى ركبتيها في حركة بطة تخلو من الرشاقة.. بطة زغطت لمدة لا تقل عن خمس سنوات هي سنوات زواجها، لا تدري لـم برقت تلك الإلماحة في ذهنها لما استقرت بالقارب وصغرى بناتها على حجرها: أن عمها زوج أمها تعلم القراءة والكتابة في سن الخامسة والعشرين على يد طالب بمدرسة المعلمين " ذو إرادة.. هه!!".

هل فكرت أختها " أمينة" – التي سمنت هي الأخرى – فيما استخلصته صافيا؟ تبدو أمينة – وإن كانت اصغر منهـا – أكثر ثباتا وقوة أعصاب وشكيمة معا، مسيطرة ، مستحوذة

لا تؤمن غلا بأهداف واقعية ونتائج ملموسة، هل بها بعـض قسوة وراثية؟ أم مجرد ميول قياديـة؟ أو لاحـتلال مكـان الصدارة في العائلة أو غيرها؟ ربما كانت غيرة من صـافيا الهشة، فهي تستمتع أيضا بخفة الدم ولسان لوذعي وأمينـة.. اختصارا يشعر الرجل بجانبها أنه في حماية.

يوم احتاجت الأم أن تنتقل من حرجة الأولاد إلى حجرتنا وكان الشلل قد استبد بها لإهمال الزوج فـي علاجهـا فـي الوقت المناسب بخلا بما في جيبه ،ودفع بهـا إلـى إحـدى المستشفيات العامة الفقيرة في إمكانيات الرعايـة، حاولـت صافيا أن تسندها، خانتها أعصابها فبكت من تاف ما آلا إليه مصير أمها، لكن أمينة أسرعت بالمجيء " إيه ده؟" ونحـت صافيا جانبا وحملت الأم إلى سريرها حملا،كم أعجبت بهـا صافيا.

وما إن تحسنت الأم قليلا، تمشي بساق واهنة،وذراع لا يتحرك،حاولت حيية أن تستعيد قدرا من بساط سلطتها ، الذي سحبته أمينة نتيجة مرضها، وحاولت أن تطبخ وأمينة تشخط فيها أن تبتعـد.. وعنـدما أصـرت الأم وأشـعلت فـرن البوتاجاز،صدر صوت فرقعة، وكان أحد الصبيان قد خبأ في

الفرن علبة سردين، صاحت أمينة: "ألم أقـل لـك؟!" تقـول صافيا: "دعيها تفعل ما تريده، طعم أكلك حول لكن أوحشـنا طبيخ ماما" ردت أمينة متعنتة:" لا.. دعيهـا تـذهب إلـى فراشها".

بعد وفاة الأب أصبحت أمينة بالطبع وزيرة البيت، وفي لحظة من لحظات الثقة النادرة لوالدها إبراهيم شتيلة أعطاها ما ادخره من معونات خارجية من الأبناء لتضعه في حساب لها بالبنك،وقبل سفرها مع عريسها طلبها أن تعيد إليه مالـه. أجابت بأن المال هو مقابل تعب السـنين فـي إدارة البيـت ورعاية إخوتها، كما أنه لم يؤثث لها منزل الزوجيـة كمـا جرت العادة وبعد مفاوضات اتسمت بالتكافؤ، والمراوغـة، والتسويف،والأمر الواقع.. وأخيراً عبر مسـاعي الوسـاطة الحميدة: " أخيراً تنازلت عن مالي، وما كان يجـب، فـذلك الرجل ضن على أمي بشراء شبشب تخرج به إلى الشـارع بعدما ذاب الذي تنتعله في البيت".

ويقول الأب: " هي دون إخوتها، لم أضن عليها، ولمـا طلب مني أخوها – حسين – خمسة جنيهات، أعطيتهـا لـه قائلا ضعها بين الجلد واللحم، لا تنفقها بسهولة، فلم تكسـب

بسهولة.. ويزعم: " كما أن زياراتي لها في زواجها قبـل أن تسافر لفرنسا كنت أحمل لها ما تشتهيه الشفة واللسان".

صار الاسم الشفري لأمنية لدى أبيها " التلمة" أي التـي ثلم نصلها ومجازا " سمجة" ولم يعرف المحيطون به من هي لأن مثل هذا الوصف لا يزال شائعا، ولكـن إذا قـال رأس الحية عرف أنه حسيناً الذي يعتبر أباه العقل المفكر لإخوته، أما ذيل الحية فهو سيد العائد من العراق خالي الوفاض.

ومستفزا من قوتها أمرها زوجها بالبقاء فـي البيـت – تطوقه حال إيمان وزيادة القربى مـن الله – لأن ذلـك هـو المكان الأفضل للمرأة، كانت تكسب مثله وربما يزيـد مـن عملها كوافيرة،وبضربة واحدة وبتأييد من الأخوة في مسـجد ليون بفرنسا، قرر أن يقتصر عمله على الرجال،وألا يمـس رأس امرأة بعد الآن.

في مناورة التفاف، قبلت أمينة على مضض، فلا تـزال تحتفظ ببعض الزبونات اللائي تذهب إليهن فـي بيـوتهن.. ووجهت قرون استشعارها إلى أبعد مدى، إذ لاحظت عنـدما مرقت على المحل أنه قام بتنظيـف القبـو ووضـع مـرآة

ومصباحا به، سألته، فرد أنها له إثناء فترة راحته.. داهمتـه مرة فرأت زبائن من الرجال منتظرين.. أين هو؟

-لا نعرف.

ولن ترتاح لذلك التفسير،وعرجت علـى المحـل مـرة ثانية.. لم تجد أحدا، نزلت القبو، رأته يجعد شـعر إحـدى الشقراوات.

أصبح كثير التساؤلات والشكوك، وأجمع الإخـوة فـي المسجد أن تلقي معونة الأسرة التي تقدمها الحكومة الفرنسية للمهاجرين لتربية أطفالهم ليس حلالا، هاجـت أمينـة مثـل زعابيب أمشير " كان يتعين عليك من البداية أن تضع فلوس **Action Familiale** في حسابي بالبنك وليس في حسابك.. ولم كل هذا التظاهر الكاذب؟ ألم تقل من قبل إنها تعينك بعد ركود العمل بالمحل واقتصاره على الرجال فقـط، أو فـي تسديد جزء من الضرائب المستحقة علينا؟

***

فرح حسن برشاقة وخفة صافيا اللتين استعادتهما،ويميل منذ الآن لإشراكها في فهم أعماله،وترحب هي لتخفيف وطأة ما يبذله من جهد وخصوصاً بعد الإصابة بمـرض القلـب..

ولم تنس أن تعني بجدتها واطفة التي تقيم معها وتتفهم رؤاها الطيفية التي ازدادت مؤخرا، ولا تظهر تبرما بموضـوعها الأثير عن الأم الكبيرة، وتردد أنها شهدت جنازتين لصـافيا تجذب صافيا جدتها إلى الحكي عما قد يكون مفعما بالحياة.

- ولكن يا جدتي ماذا فعل اليهودي بعد هروب جـدينا الكبيرين؟

ترد واطفة: " لم تعد صافيا صبيحة اليوم التالي إلى بيت سمعان الذي بنى آمالا كبارا على أن يوكله الأرمني فـي أن يجمع من التجار المحليين الأرز والفول وحرير إخميم وملح النطرون ليصدره إلى دول أوروبا". قالت يائيل: لا بد أنهـا متوعكة فقد كنت أشكو من خمولها في خدمة البيت منذ نحو أسبوع.

عاد سمعان بغضب عظيم، فالبيت قد سكر بالأقفال ولا اثر للجارية أو صفي الدين أو حتى والدته.. وأيقن بعد عـدة أيام أنهما هربا، تساءلت يائيل: ألن تبلغ عنهما؟

-كيف؟ فلم يكتب لي أو للقفاص صك ملكية.. إذا انتهت مدة تجارة الرقيق في مصر، وإذا حدث وتكلمت " هنـروح في داهية".

ولسنين بعدها لم ييأس سـمعان، فكـان يمـر بعينيـه اليقظتين في شوارع وحواري القاهرة المحروسة، حتى أثناء مجادلاته مع التجار الصغار، إلا أنه لاحظ اليوم أن الشوارع مزدحمة بذوي العمم والطرابيش من طلاب الأزهر.

و الأعيان والتجار.. وفي الليل حملوا المشاعل يهتفون بعودة عرابي.. وأثار فضوله وريبته أن المباني الهامـة قـد أحيطت بالجنود.. وتناهى إلى سمعه أن " الرباعي" حاخـام اليهود طالب إلى جانب مشايخ الأزهـر والبابـا "كيـرلس الخامس" بطريرك الأقباط بعودة عرابي.

بعدما توغل ليل اليوم التالي.. جاءه أحد عربـان" ولـد علي " بالبحيرة الذين طالما تاجر معهم،وقال إن الوضع غير مطمئن لأن عرابي قد يطيح بالخديوي،ولن يكـون هـو أو غيره من ذوي الرعويات والجنسيات الأجنبية بمأمن، فعليـه تحذيرهم وتسليحهم للوقوف إلى جانب الخديوي.. نقده لتلـك المهمة مائتي جنيه على أن يتعاون مع تاجر كُهنة (خـردة) مالطي الأصل.. و في مساومة سريعة مع نفسه بين موقـف الحاخام وبين احتياجه للمال ، اختار أن يبدأ بـاكرا بمهمتـه التحريضية بالمحروسة،واستجابة لميله لإمتاع نفسه في لقـاء

فردي ليصفو ذهنه وليعد ما سيقوله أو سيشيعه،ولمن.. مشى إلى جزيرة الروضة، واستأجر مركبا، وقد أوشك القمر على اكتمال،وهبات نسمات صيفية لطيفة أنسته الرطوبة الخانقـة والحر الشديد في الأيام الماضية.. سمع الكروان،وخبأ بجلبابه زجاجتين من العرقي ، وصار يمنى نفسه بما سيحرزه مـن نجاحات ،وفي خياله انخرط يفصل بين الجنيهـات الذهبيـة والعملات الفضية و الورقية، وقـد تكدسـت وبلغـت آلاف الآلاف.. في حالة من النشوة تدغدغه وتشعره أنه خفيف لـه القدرة على التحليق، فلم يثقله السكر بعد ولا اقتحمه انـبلاج الفجر ولا الطيور تسرح إلى أرزاقها.

بدأ جسم سمعان يثقل قلـيلا قلـيلا.. ورأسـه بـوزن الرصاص فوق كتفه تدور ، حاول أن يدير دفـة المركـب للعودة، فقد توازنه، دفعه تيار المياه العالية إلى أن ينحشـر بين الصخور، فخلع جلبابه، ونزل بالنهر لتخليص المركـب، كانت برودة الماء صادمة.. أفاقته بعض الشـيء، وعنـدما حاول شد المركب، فقد توازنه مرة أخرى، ارتطمت رأسـه بالصخرة، غاب عن وعيه وغرق في لجة همهمـة تيـارات تحتية للنيل.

** في شهر سبتمبر، دخل حمل صافيا الثاني شـهره الأخير،وأمارات الإعياء والرجاء على وجهها بـأن يكتمـل حملها هذه المرة،وصل صفي الدين العشة كابي اللون، كسير النظرة.

- ما بك؟

- الواس كسر عرابي.

-ماذا يعني ذلك؟

الخيانة.

كأنما تجذب الكلمات من فمه:

-خيانة من؟

- أعراب سيناء وقبائل البدو.

-يعني مات؟

- لا ، الإنجليز دخلوا المحروسة بعسكرهم.

برطم لنفسه: كيف يهزم وهو حفيد الحسين بن علي؟

***

لأهل دمياط فضول كبير حيال حيوات بعضهم البعض ، فما بالك بالغريب منهم!كانت زوجات الصيادين يحاولن الانفراد بعيوشة، منجذبات إلى بشرتها الرائعة المفرودة الخالية مـن

التجاعيد، فلا يقدرن على تحديد سن لها،وويستغربن العنايـة الفائقة التي تبديها صافيا حيالها بالرغم مـن أن مرضـا لا يظهر عليها سوى بعض الصعوبة في الحركـة، ويسـألنها مداعبات لما عرفنه عن نسيانها، متخابثـات: أهـذه زوجـة ابنك.. أم ابنتك؟

- لا، زوجة ابني.

- بيشتغل إيه؟

- بيزرع الثوم مع أهلي في الصعيد الجواني، لكن " محمـد علي" أخذ الأرض منا ليزرعها قطنا.

ويواصلن فضولهن وتخابثهن مع " نيللي" زوجـة الأرمنـي الذي يصلح بوابير الجاز.

***

مخفيا إحباطه لأن حركة الميناء تكاد أن تتوقف والعـاطلون في ازدياد يخشى أن يعلن عن مهنته فُيعرف بمـا ارتكبـه.. وصافيا كانت على حالة من التوجع حالت دون أن تجهز له العشاء.

قالت عيوشة إن محمداً قادم.. ولم يولها أيهما اهتماماً.

اشتدت الآلام على صافيا، وأيقظت صفي الدين ليجاب لهـا الداية المبنية عشتها من الطوب الأحمر باتجـاه رأس البـر، وصلت الداية ومعها كرسي الـولادة مطويـا بمفصـلاته.. تبرطم: لسه بدري عليها.

وظلت معها حتى الصـباح،ثم خلعـت عـن الأم ملابسـها وأجلستها على قاعدة كرسي الولادة وبهـا دائـرة مفتوحـة ليتيسر انزلاق الجنين عند الطلق،ولأن الجذع القائم يخفـف من آلام الطلق، تعرف أن ولادتها عشرة مثل الطفـل الأول الذي توفي عقب الولادة.. تناجي " يـا أم النـور" ، وتقـول الداية" يا أم العواجز" وصفي الدين يستفسر كلمـا خرجـت الداية،فتمصمص شفتيها وتقول: ربنا يستر

راح صفي الدين يتلو الآية:

بسم الله الرحمن الرحيم

" وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليـه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت مـن الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه مـن الغـم وكـذلك ننجـي المؤمنين".

صدق الله العظيم

ونذر في نفسه سواء أنجبت صافيا ولدا أم بنتا، خرجت الداية مهللة: مبروك، مبروك ، ولد

قال صفي الدين ناظرا لأمه: إنه محمداً.. أليس كذلك؟

بعد توقف دم النفاس، قررت صافيا ألا تنجب لعامين أو ثلاثة ، وحسب ما لُقنته عند ستنا طحنت بضعة قرون مـن السنط والحنظل والتمر مع نصف لتر من العسل وبلات مـن هذا المزيج ووضعته داخل المهبل.

شعر صفي الدين بأمرين متناقضين، وهي فرحة قـدوم مولود له وانشغاله بسـبب بطالتـه. رأى صـافيا ترضـع وليدها،نظر لها نظرة دافئة واقترب منها، قال: ستصـبحين حرة.

امتقع وجه صافيا وأثلجت أطرافها، قبضت بأصـابعها على جسد الوليد.

-أين أذهب، وهل ستأخذ منى الولد؟

مسد صفي الدين براحة يده جبينها وخديها لتعـد إلـى جبينها ، تشربت بشرتها عرق راحة يده، لقـد عـرف كـم

يعزها حين كادت تموت مرتين لتمنحه الولـد.. قـال بكـل الدفء الساري في بدنه: ستصبحين زوجتي.

سرا ، سكبت صافيا اللبن لإيزيس، لتعمر زوجة لصفي الدين ولا يفترق عنها أبدا.

تعلم صفي الدين قطع الأخشـاب وإعـدادها ليـتمكن النجارون من صناعة الموبيليا،ولما اكتسب مهارة في هـذه الحرفة القريبة نسبيا بصنعته الأولى، فكر بصوت عال أمـام زوجته وأمه: " من الأفضل لي أن اشتري الأخشاب بنفسـي وأبيعها بعد تقطيعها ،ولا أملك مالا كافيا للبـدء فـي ذلـك المشروع ولو بالمشاركة مع التاجر السوري " يوسف فلـيح" الذي له مركب في الميناء".. قامت صافيا فجأة كأنما تذكرت أمرا منسيا منذ سنين، وفتحت صـندوق الملابس،وفضـت صرة صغيرة ثم دست شيئا في يد زوجها.

-ثلاثة جنيهات ذهبية!!

-نعم لقد أعطانيها ذلك الأرمني.

في رأس البر يتنهد البحر تحت وطأة الموجة السـاخنة، يتلاشى خط الأفق بين البحر والسماء ، يتداخلان فـي لـون رمادي رخامي واحد يداعب البحر مواسيا تلالا صغيرة من

الطحالب على الشط.. وتبدو القوارب القريبة كأنهـا تسـبح على مرآة انعكاساتها على الماء رقيقة، أما القوارب البعيـدة فتظهر كما لو كانت تسبح في فضاء السماء كمنطاد يمضـي متثاقلا في طريقه.

ثمة شيء يقرب بين صافيا ونيللي الأرمنيـة، كلتاهمـا تعرف أنها لن تعود إلى بلادها أبداً، وعلي نحو ما بات وطنا مفقودا.. دفع فقر نيللي وزوجها الذي يصلح بوابير الجاز إلى أن يسكنا بين المصريين الفقراء الذين يستخدمون الكانون في إنضاج طعامهم، كان زوجها يذهب يوميا إلى دمياط حيـث الطبقة الشامية والأرمنية الموسرة يقتنون بـوابير الجـاز.. كانت بعض عائلات الأرمن يتحكمون في جمـرك دميـاط، ويعفي تجارهم الأغنياء من مكوس الجمرك، تقول نيللـي: " من يمنح يعطي فيزاد.. انظري – ساتينج –زوجة مـأمور الجمرك".

تحتار صافيا في إرواء ظمأها الروحي.. تذهبان معـا، نيللي إلى كنيسة الأرمن الأرثوذكس وصافيا مرة إلى كنيسة السريان ومرة إلى كنيسة الأقباط. ثم اختارت الكنيسة القبطية قبل أن يهاجر ما تبقى من الشوام وتتقلص كنيسة السريان.

لكن نساء الأرمن ذوات دأب ومهـارة ، تـدفع نيللـي زوجها إلى شريحة أعلى اقتصاديا، إذ كانت نيللي تعمل فـي أشغال التطريز الدقيقة مثل: السيرما والأغباني والأوبيسون، فانتقلوا إلى دمياط بعد ست سنوات من إنجاب ابنها الوحيـد ليتوسع نشاطهما ولإلحاق ابنها بالمدرسة.

في ذلك النهار الزامت من ربيع ١٨٨٣ التقت النسـوة الثلاث: ساتينج ونيللي وصافيا في حفـل زواج بالكنيسـة.. وكان منكبا في ذلك الوقت على مذكرات صديقه بعـد عـدة أسابيع من وفاته، ليصدر الجزء الثاني والثالث من الكتـاب الذي غير من جغرافية وسياسة وفكر العالم.

وقفت ساتينج لتعدل من تكة سروالها التي كشفت عـن فقدانها بضعة كيلو جرامات بعد مجهود ضـخم بذلتـه فـي الانتقال إلى فيللا أوسع على نيل دمياط الضيق، شعرت نيللي كم هي ماهرة ومبتكرة في التطريزات التي نمقتها عن تلـك التكة الرفيعة لسروال ساتينج والمصنوعة مـن الموسـيلين الناعم،ودقتها في استخدام خيوط حريرية ممزوجة بترتر من الفضة والذهب، ورأت بعيني خيالها الحلقتين المتدليتين فـي طرف التكة على بطن ساتينج،وخطر لها أن فنها الجميل لـم

يقتصر على التكة التي تحدد الخصر، بل وفي إسورة قـدمي السروال الطويل حتى الكعبين والمغطي " بالشنتيان"، وهـو بنطلون آخر طرزته بألوان الطاووس.

أما تكتها هي نفسها فقد بخلت عليها بجـدها ومالهـا، مجرد شريط طويل من الموسيلين،وقالت أعـرف أن تكـة صافيا عبارة عن شريط من " البفتـة" القطنيـة.. ابتسـمت لذكائها الأرمني العملي: " تعرف ثـروة المـرأة مـن تكـة سروالها".

مضى صفي الدين إلى دمياط عازما أن يجلس ليحتسي القهوة ويدخن الجوزة بقطعة الحشيش ولا يعـود إلا بوجـه الصباح، تأديبا لصافيا التي تلح عليه الانتقال بهم إلى دميـاط حتى تلحق محمداً ذا السنوات السـبع بمدرسـة مثـل ابـن نيللي،وتشير عليه بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية التـي أنشأها خطيب الثورة الهارب" عبد الله النديم" والتي سـمعت عنها في السنوات الأولى بعد قدومها.. ومن قعدتها وقد هدها الروماتويد قالت عيوشة: " الزن ع الودان أمر من السحر!"، استفز صفي الدين من المرأتين، لكنه حول دفة الخناقات إلى أمر لم تتوقعه صافيا: " كم مـرة تخـرجين دون إذن منـى

وتذهبين إلى كنيسة دمياط!".. بيته ولم يحكم قبضـته عليـه بعد.

لعب مع بعض معارف له كانوا بالمينـاء " المنقلـة" أو كما يطلقون عليها أحيانا " لعبة الأربعة عشر ".. ولما خلـت القهوة إلا منه، شعر أنه من الأفضل له أن يمشي ،مر علـى القشلاق الكبير على النيل وثكنات الجنود بجوار السكة الحديد في منطقة السنانية.. وتذكر بنظرة ماسـحة " خـان دميـاط ووكالات الميناء التي تتقاص بضائعها.. أغمض عينيه بشدة حتى لا تتراقص ظلال تداعي الخـان ووكـالات الجمـرك وتحولها إلى أنقاض ، عبر ماشيا على عدة قرى حتى كاد أن يصل إلى شربين دون أن يعرج على رأس البر.. وفضل أن يمشي بلا هدف ، فذلك مما يتيح له صفاء ذهنيا ليفكـر فـي مشكلة تغافل عنها كثيرا، أو لم يكن مضطرا إلى مواجهتها؟ وصافيا تحتفل بأعياد المسلمين وتصوم معه رمضان، إلا أنها لا تصلي وتتهرب من مناقشات الدين،فهو نفسه لا يؤدي من الفروض سوى الصيام، وكانت تصوم في أيام أخـرى مثـل الأقباط ، وتختلف إلى الكنيسة في دمياط من وقت لآخـر.. صافيا.. إنها تبدو رقيقة، ضعيفة، منقـادة لـه، إلا أن لهـا

صلابة الجرانيت أحيانا، من نظرته الأولى لها قبل سـنوات أدرك أنها مفزوعة واطمأنت إليه، وديعة تخدمه بـإخلاص، أمينة على ماله، حنوناً مع أمه، لا تشكو حرصا بدأ يتعلمـه من الدمايطة.. لكنها حريصة في المقابـل أن تكسـب مـالا خاصا بها،تعمل ماشطة وبلانة وتصنع الأكلمة من قصاصات الأقمشة،وترشد النسوة لمنع الحمل.. وإن كانت جميلة بشكل لافت، يعرف أن أعناق الرجال تستدير لدى مرورها أحيانـا بالملاية اللاف والبيشة بقصبة على أنفها الدقيق.. لكنها إجمالا مستقيمة.

يقترب صفي الدين من العشة بعد انبلاج الفجر، يـأتي صوت صافيا هادئاً، خاشعا ملحا: " تراءف علـى يـا رب، اسمع صلاتي ، انصت يا رب لكلماتي ، واسمع صـراخي. سهل أمامي طريقك، أعطني السرور بعودة زوجي، يـا رب لا تبكتني بغضبك، ولا تؤدبني بسخطك، ارحمنـي يـا رب فإني ضعيفة.. إله واحد آمين".

تمسح صافيا جبين زوجها وتضع طعامـه، وصـارت تمسح جبين ابنها وحماتها وكلا من صديقاتها في عـوزهن..

تعلمت أن تعمل الأيدي أثناء تحادثهن وتواصلهن على أبواب دورهن.. وتعلمت منهن عمل منديل الرأس " القرطة".

في مساء ذلك اليوم تحدثت النسوة بخوف عـن تآكـل شاطئ رأس البر وكيف أن المياه غمرت العشش هناك، لتمتد عدة أمتار داخل البحر.. حمدن الله على إقـامتهن بـالجربي قبالة النهر.. لكن توجسا باقتراب الأنواء في شـهر نـوفمبر عكر صفو ليلتهن قليلاً، يسألن صافيا – التي رفضت طـوال حياتها انتعال قبقاب أو مركـوب أو حتـى خـف إلا فـي الضرورة القصوى يسألنها عن الطقس،ولا تعرف هي لمـاذا يصدقنها عندما تتنبأ بالأحوال الجوية ، تراها كما تعتقد مـن عيون في الباطن المتجعد لقدميها، من البرودة الرطبة للرمل أو من حرارته اللافحة.

يدمن محمد الذهاب إلى بحيـرة المنزلـة مـع أقرانـه وآبائهم، يجمع الحلزونات وأم الخلول والبكلاويظ، ويسـمع من الأمهات أن قلب البحيرة مسكون بجني هـادئ ، لكنـه يفصح عن غضبه كل عدة سنوات فيظهر نارا تمتد ألسـنتها الحمراء تعانق السماء،ويكون له صوت أزيـز أو احتـراق الأخشاب لكنه يبعث على الرعـب،ومن ثـم يجـب عـدم

إثارته..يستمتع محمد بهذه الحكايات ولم يثنه ذلـك عـن أن يتعلم الصيد ليتخذه مهنة.. وفي نهار جميل من شهر مـارس حيث تكثر الأسماك ذات البطارخ في طبقات المـاء العليـا وتلتم المراكب الصغيرة في قطر دائرة ليسـت واسـعة، إذا بألسنة اللهب تحيط مقدمة ومؤخرة قاربه، يفزع على نحـو أشد عندما تشرئب أعناق اللهب فيما بـين القـوارب التـي يرجف فيها الشباب ، يصيحون: " يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف"، إلا الشيوخ الذين حاولوا بكل هـدوء العـودة إلـى الشاطئ.

قرر محمد ترك الصيد – ورفض في الوقت نفسـه أن يعمل مع أبيه الذي سرعان ما أفلس فلم يضغط عليه ليعمـل مثله – يعمل مرة في محل شربتلي لبيـع سـطل وكيـزان العرقسوس والكركديه والخروب.. ومرة أخرى يلف حواري دمياط ينادي على بيع حلاوة " على لوز" التي تصنعها صافيا من السكر و الليمون وتزينها باللوز وتقطعها بالملاوق، أمـا العجوة فتقطعها بالموان بعد إخراجها من زنابيل الخوص.

لم يستقر محمد على مهنة واحدة قط.

يميل محمد إلى التدين الشديد ، التحق سرا بـ " جماعة شباب محمد" وأعلن انتماءه لها بعد وفاة والده، يناصر الخلافة العثمانية ، ثم تحول إلى " الإخوان المسلمين" بقية حياته.

بات رجل العائلة رغم سنواته الستة عشر،لما عاد من دفن أبيه.. سألته جدته: لم تأخر أبوك؟ تنبه إلى أنها نسيت أن والده توفي قبل بضع ساعات، وصار يجاوبها لسنوات: سيأتي الآن يا جدتي.

تزوج محمد وأنجب الكثير من العيال، البكرية باسم صافيا.. ذلك الاسم الذي سيتردد كثيرا في روافد العائلة في كل بنت بكرية،أما صافيا الأولى فقد أتمت التسعين عاما قبيل وفاتها صبيحة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، واعتادت في الخمس والعشرين سنة الأخيرة من عمرها على اسم أطلقته عليها النسوة" حنينة" مؤنث " حنين" ،وقبلت الاسم. وفي لحظات المرض، تحلقت حولها جاراتها يساعدنها إلى جانب زوجة ابنها وحفيداتها اللائي تزوجن بدورهن وأنجبن.. وعند احتضارها قالت لها الجارات أثناء انشغال زوجة الابن والحفيدات:

-أسلمي يا حنينة.

-طب، إن شاء الله.

-قولي أشهد أن لا إله إلا الله.

-طب.

-قولي.

-طب.

تستدير برأسها وتسلم الروح.

أقيمت لها جنازتان،ودفنت إلى جوار زوجها وحماتها.

رثاها القس: "أُعدت لتكون سرية، فكانت زوجة صالحة، و أما رءوماً ،وأرملة مضحية،وسيدة محبة للرب والناس ومتبتلة".. يشعل محمد لأه شمعة في الكنيسة،ويدخر في الوقت نفسه للوفاء بنذر كان قد قطعه في شيخوخة أمه وهو أن يحج عنها قبل أن ينصرم عام على وفاتها، وكان قد قام بفريضة الحج لنفسه أثناء حياة أمه.

في قوافل الطريق البري وسط الصحراء المؤدية إلى السويس ومر بشجرة ضخمة من أشجار الأكاسيا، علق عليها مزقة من جلباب له، وأخرى من جلباب أمه الراحلة.. وحفر تحتها ليدفن حجر الخف لأمه الذي كانت تعتز به لأن

المراكبي الذي رافقها من أسيوط إلى القـاهرة أعطـاه لهـا وأعجبها لأنه على شكل تمساح، ونذر نـذرا آخـر إذا مـا صحت حجته ولم يحدث ما يبطلها بالتصدق على روح أمـه بتوزيع فطير مشلتت على الفقراء صبيحة كل يوم جمعة حتى وفاته.

تحت شمس متوهجة ، يعشي ضوؤها المبهر العيـون، يمر بهم فرسان ملثمون ، يسالون عما إذا كـانوا قـد رأوا بعضا من الجمال على عدد منها هوادج قد ضـلت بسـبب الزعابيب، مضت القافلة والإرهاق ينخر في أعصابهم..

ولزوجة العرق تقطع أنفاسهم، رأى أحدهم على البعد عـدة جمال وعليها رجال يستغيثون ، وأخرى عليها هوادج، بـان نصف قامة المرأة من فتحاتها.. الجمال مغروسـة سـيقانها حتى النصف في الرمال الناعمة، لا تستطيع فكاكا ، تغوص وتغوص،رفع الرجال أغصانا للتلويح،وتصرخ النسوة.. فجأة بدا لمحمد أنه رأى أمه تستغيث، نطق دهشا: أمي؟

رد عليه جاره: نعم، نعم إنني أرى الخالة حنينة، وأخذ يبسمل ويحوقل.

حثوا الجمال على الإسراع في خطوها، مستنفرين إلى إنقـاذ الضائعين.. تبادلوا بسرعة الحبال لـربط الجمـال وجـذبها خارج الرمال الدوامية وتقديم أذرعهم للنساء لتلقفهن، خشية أن تمسس أقدامهم الأرض وتغوص.

اقتربت القافلة أكثر، خفت أصوات الاستغاثة حـد التلاشـي وانقطعت.. اقتربوا بضعة أمتار من الموقع، ففوجئوا أنه لـم يكن سوى تلة من الرمال متغضنة بفعـل الريـاح، وعليهـا برزت أغصان شجيرات دفنتها الرمال إلا هاماتها.

وجم الجميع في لحظة،وفي اللحظة التالية تبخـرت رؤاهـم، لكن محمد تذكر بهذه الحادثة أن يدفن إلى جان بأمـه شـقفة الفخار التي كتب عليها القسيس وهي نيئة تعويذة باسـمها ، ربما تذكرة أمه بدفن رقيتها معها.

ولن يخاف محمد فيما بقي لها من عمر إلا من أمرين: الجن والكهرباء فكلاهما بنظره غير مرئي وقد تأتي التهلكة مـن جرائهما.

الفصل الثاني

" أوهان"

أقرأ و... أفهم.. و مع أني أعتبر نفسي بطلاً... لكني مراراً.. أحيد عن درب البطل... هو جسور، أنا حذر.. هـو يعمل، أنا أشعر فقـط... هـو قـادر، إن آن أوانـه.. أن يستشهد، أن يموت بإقدام... أنا أستوعبه تماماً... لكنـي لا أسلك دربه... من السهل تأليف كتب... مـن الصـعب أن تقرأ.

الشاعر الأرمني: بارور سيفاك

- ١ -

أوهان

يشق الأتوبيس النهري سجادة من طرح النهـر، ليعود ويلتهم عند مؤخرة الأتوبيس ، انتقلت مـن مقعدي إلى المؤخرة، ذلك اليـوم الخـالي مـن النسيم.. توقف الأتوبيس أمام كازينو الحمام حيث اخترقـت شوارع للذهاب إلى قسم شرطة الجيزة، فيه ترقـد أوراقـي الأولى: شهادة الميلاد، وأوراق البطاقـة الشخصـية التـي استخرجتها وظلت معي حتى انتقلنا إلى بولاق وحاربت فـي ١٩٧٣ وقررت التخلي عن جنسيتي المصـرية والاسـتجابة لدعوة أرمينيا لأبنائها بالعودة إليها.

خرجت من مصر وعمري ٢٦ سنة ،وأمضـيت فـي يرفان ١٦ سنة أخرى ضائعة " محاك سر".. تجتاحني الغربة

والإحساس بالوحدة والإحباط فلم أتحقق كفنـان تشـكيلي أو كموسيقار كما كنت أطمح، حقيقة التكنولوجيا متوفرة ، لكـن الغذاء نادر فقد أمضي يومين أبحث عن حبـة واحـدة مـن الطماطم أو الخيار.. لم ينقذني سوى كميـة مـن " أوكسـيد الزنك" جلبتها معي من مصر ، وظللـت أرسـم بهـا بعـد تخفيفها، وحينما نفدت بعد ١٢ عاما وأربعمائة لوحة، رسمت اسكتشات بالفحم وتطورت بها تحديد للافتقـار إلـى مـواد التلوين حتى وصلت إلى الأسلوب النحتي بالفحم.

في أرمينيا، أفزعتنـي أرسـتقراطية الحـزب الحـاكم والوفرة لدى فنانين متوسطي الموهبة ملتحقين بالحزب، مـن مواد العمل الفني والشهرة.. أشعر بالعزلة لكني أجفـل مـن الانسحاق في مثل هذه التجمعات البشرية، ابغي مزاياهـا ، لكني مدرك مدى زيف ادعاءاتهم مثل المؤسسات الدينيـة- على حد سواء – كل يعد بالجنـة، أحـدهما علـى الأرض والآخر في السماء وسلاحهما الإذعان والخضوع والامتثال.. فقط دعوني لحالي ، أنا القلقة ، أنا الذي نبذت نفسـي عـن زيفهما ،كنت أعيش بإعطاء حصـص بيـانو فـي بعـض المعاهد، عمل غير منتظم،كم دخلت في علاقات حب واهرب

حين تلوح لي بالزواج، وإزاء حـالتي الماديـة العسـيرة ، اقترحت على صديقة بلغت الثلاثين من عمرهـا دون زواج أن نتزوج لننال شقة يمكننا سكناها، شكرت لها حسن نيتها،ما أفظع الارتباط وما أثقل عبء الأبناء.

في رماديتي المتصلة لم يسرعني سوى بعض خطابات تأتيني من صافيا، أحيانا أفصح عن نفسي في الكتابة أكثـر من التحدث وجها لوجه.. قالت لي صافيا: عد إلى مصـر، رسمت لوحة امرأة فرعونية تقرأ حظي وتحدد مساري، لمـا كتبت لها أن تقاطيع الوجه من الجانب حادة وهندسية كفـك فرعوني،و أن الأشكال تحويرات من النيل (صعيد مصـر والدلتا) ، وأن الفتوة في رقصـة تحطيـب بأجسـام بنيـة كمنحوتات راسخة وألوانها المشمسة القوية، وأن العلاقـات الإنسانية تأملات غنائية لكاهن مصري، وان موسيقى الألوان تناغم أصوات طيـور محليـة ومهـاجرة.. القادمـة إلـى الإسكندرية فتنعكس الإضاءة من موجات البحر إلى الطيـور في الأعالي، ارتدادات في موجات نورانية تعلو وتهبط. إنها إضاءة مراوغة. قالت لي صافيا: عد.. كفاك صراعا نفسيا، كفاك لوحات للحصان الأسود..

انظر (العين الواحدة) الفرعونية، إنها عرامة الشوق أن تلتحم مجدداً بالأرض " كيميت" التي ولـدت عليهـا.. لـن تَـنس تاريخك وتاريخ أجدادك إلا أنك قد ترتاح بمصرك، قلت لها: إنها محطة، قد تكون مجرد محطة ، قالت لي: شارد، لكـن أنقذ نفسك.

وكم من خطابات كتبتها لمجلس السوفيت الأعلى، أن يسـمح لي بالعودة إلى مصر.. كم تجـاهلوا خطابـاتي سـنوات.. وحزمت لوحاتي ومدوناتي الموسيقية لإلف ليلة وليلة، والتي بدأت كتابتها على الكمبيوتر،ولا بد من متاعب أخرى لخروج لوحاتي باعتبارها ليست قطعا أثرية ولا بد من متاعب أخرى لاستعادة جنسيتي.

رأيت أن أمشي قليلا في شارع متفرع من شارع مراد، ربما أتذكر البيت الذي ولدت به.. وشجرة الجميز الضخمة، أين هي؟.. وقف يحدق بي.. أأنت أوهان؟

-نعم

- أنا مرسي، ألا تذكرني؟

وكان أن أخرت قدمي إلـى الوراء،ومـددت يـدي.. اكتسبت هذه العادة التي لم أكن أعيها، حتى لفتـت نظـري صديقتي شاكية.. التي تعرفت بها في يرفان.

تحادثنا قليلاً" أنا كـويس، باحـاول أسـتعيد الجنسـية المصرية، ربنا يستر أهو بعمل اللي علي".

طلبت من الموظف مسـتخرجا رسـميا مـن شـهادة ميلادي.. بالطبع قال لي غن أعود بعد بضعة أيام، تمشـيت تحت أشـجار الشـارع، وعبـرت شـوارع جانبيـة إلـى الكورنيش.. كان غصن الشجرة كمسطرة ممـدودة، مثقلـة بزهور بألوان الأبيض والوردي الفاتح، تعيش كثيرا شـهورا طوالا في العام.. إلا أن شجرة بزهور من الأصفر المريح.. فاتح لين لم أره من قبل، فوقفت لحظة طالـت، إنـه لـون للمناطق الباردة.. مشرق دون وهج، خاطف لكن دفئه يقـر بالقلب، مثل أول قبلة لنا" صافيا وأنا " كانت فـي السـابعة عشرة تقريبا، وخجلنا.. صداقة بدأت باندهاشها مـن تنقلـي السريع وتحدثي مع الكثيرين من رواد أول معرض جماعي لشباب الفنانين التشكيليين.

قالت: أؤكد لك أن ذاكرتك لن تسع كل الذين حـادثتهم اليوم.

أوقفتني ملاحظتها: على فكرة أنا بخاف من البنات.

ونظرت لوجهها للمرة الأولي: لقد رأيت من قبل.

الآن قبل عشر دقائق،وطلبت منك... أن...

لا ، لا قبل ذلك.. سأتذكر وأخبرك.

ولم تصدق حتى قابلتها مرة أخرى وفضضت الـورق المغلف للوحة ، هي نفسها فيمـا عـدا الملابـس والهـلال الموشوم على الجبين والنظرة الخجلى لصـاحبة الصـورة، بدت عند صافيا نظرة متسائلة بسخرية طفيفة، قلبت صـافيا اللوحة من عجب ولاحظت شيئا مكتوبا بالأبجدية الأرمنيـة. سألت: ما هذا؟

-الشيخ عبادة.

ونطقنا في الوقت نفسه: ما معنى هذا؟

- لا تزعل مني، جدك كان مجرد هاو.

-لم؟

-انظر أسفل الصورة، ألا ترى تلك الكتل من الزيـت غير المسواة كبقية سطح اللوحة.

- لا أعتقد أن الجد كان يفتقر إلى المهارة.. ولا أعتقـد أنه يقصد بتلك الكتل أن تبدو كقطع طين تسقط مـن عـل، وتجمدت على حواف تل.

- ما صلة ذلك بالصورة؟... أرى أن خيالك قد شـطح في وجهة بعيدة.

- ربما تذكرين أنه يتاجر باللوحات الفنية.

تعرف صافيا أن حبنا مقدر لـه ألا يتجـاوز عراقيلـه ،وعرفت الكثير عنها، إلا أني لم أخبرها عن حيرتي ، عـن طفولتي، عن والدي الذي استعرت خناقاته مع أمي لأسـباب تحجم عن ذكرها، وتُفاجأ عندما كنت رضيعا أن والدي أعلن إسلامه بعد أن حكمت الكنيسة بالفصل بينهما وإلزام والـدي بالنفقة ، ولأمي العناية بي وبأخي " هراير" فاعتنق الإسلام، أسمي نفسي " فاروق " على غرار اسم الملك في ذلك الحين وطالب المحكمة بهراير، فكانت أن منحت له رعايته لأنه في سن يسمح له بالاستغناء عن خدمة النساء، وعلى أمي حكـم بالطاعة.. فهرعت أمي إلى الكنيسة، مناشدات إلى الملـك " فاروق" ، لكن صوت حرب ١٩٤٨ كـان أقـوى، بعـد أن

رفضت مرات الاستئناف ، عرض النائب البطريركي التدخل شخصيا، فطلق أمي وتركني لها وأخذ أخي الأكبر.

حكي لي أن البطريركية أعدت ملفـا عـن الأحـوال الشخصية للأرمن، ولما قامت الثورة تعشموا خيراً ،وقرروا عرض الأمر على الرئيس " محمد نجيب أثناء زيارته لكنيسة الأرمـن الأرثـوذكس يـوم الأحـد ١٦ نـوفمبر ١٩٥٢.. وكان موعد الزيارة في تمام الساعة الحاديـة عشـرة قبـل الظهر، بيد أنه تأخر حتى الثانية بسبب زيارتـه لمعسـرك الهايكستب،وكانت الكنيسة قد اكتظت منذ الصـباح بجمـوع حاشدة من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال حتى ضـاقت بهم رغم اتساعها.

وقال الرئيس إنه دخل هذه الدار لأول مرة مغتبط ،وأنه سيخرج منها وهو أشد اغتباطا، فلقد استرعي نظره ظـاهرة عظيمة وهي النظام ، إن هذا ليس غريبا ، فالنظام – فـي رأيه – هو إحدى ميزات الشعب الأرمني، واعتذر عن تأخره قائلا: " أرجو ألا أكون أخرتكم عن الصلاة"، وكـان تـأخير الرئيس سببا في عدم التطـرق يومهـا لمسـألة الأحـوال الشخصية.

أما والدي فقد قيل إنه سافر، قيل لنا إلى سـوريا وأنـه ارتد وصعد شمالا في " كسب " موطن تجمع بعض الأسـر الأرمنية، وقيل إنه قد سافر إلى السعودية وكسب كثيرا مـن المال أو أنه ذهب إلى أرمينيا،وهناك من قال إنه قتـل فـي حادث سيارة في فلسطين وحتى الآن لا اعرف أين والـدي وأخي وهل هما من الأحياء. وفي أرمينيا، في يرفان طرقت بيوت كل الأقارب المحتملين.. ولا أعرف عنه أي شـيء.. غير أن صديقا اعترف لي أنه كان يعاني أزمة روحية، فـي حين قالت أمي إنه العناد ليس إلا.. من يقول إنه عاد أرمنيـا كاثوليكيا وآخر يقول إنه مات مسلما.

وجندت قبل حرب ١٩٧٣ لأن والدتي كانت قد توفيت.. وبالإجمال لي أب غائب وديانتان وجنسيتان وأخ لا أعـرف اسماً جديداً له أو شكلاً.. ويهود شاركوا فـي إذكـاء روح العداوة ضد الأرمن وجعلهم وقودا للمذابح حتى عام ١٩١٩.

تقول صافيا: أتحبني يا " أوهان" لأني أشبه تلك اللوحـة لأحد أثرياء عائلة أبيك؟ أم لوحات النوبيـات وبنـت البلـد القريب والدتك " يرفاند دمرجيان"؟

- بل لسمرتك المترعة بالحياة.

عندما يستغرق أوهان فـي الحـديث تبـدو حميميتـه ومودته،وإذا ما عاد للقاء الشخص مـرة أخـرى متباعـدا جفولا.." تتوافر التكنولوجيا في يرفان، ويتوافر الطعام فـي القاهرة.. ليس من حل مشكلة تأخرنا الحضاري في مصـر وأنحاء أخرى من العالم سوى بـ " فتح" من كواكب أخرى.

- تقصد غزو؟.. تراجعه صافيا.

- نعم، غزو من الفضاء الخارجي.

- ولم لا نقوم نحن بالتقدم الحضاري؟

- لا تأثير لنا ، أنظري الذي بدأه عبـد الله النـديم، لا يزال يتقدم ببطء سلحفاة حتى الآن.

في طريق عودتها إلى بـولاق اسـتقل ميكروبـاص.. وجلس وراء السائق وكانت أغنية عبد الحليم " نار يا حبيبي" تهدر من المسجل ، بحركة موسيقية نقر أوهان بأصابعه على ساقه كأنما يعزف على البيانو، وجذب انتباهه السائق، بسيط المظهر وذا لحية، يخرج ذراه مـن شـباك السـيارة يـدق بأصابعه على الهواء، كأنما يلامس أوتار بيانو، في حالة من طرب لنغمات اللحن يقول أوهان دائما لأصحابه أو لصـافيا عندما تتصل للاطمئنان عليه ، في أول الحديث: فيه حاجات

كتير شغلاني، مش عارف أخلصها، مش عـارف إذا كنـت هانجح و اللا لأ.. ربنا يستر"، بعد هـذه الديباجـة يتـدفق الحديث سلساً ناعماً.

كان يقابلها في وسط البلد ،يمشي إلى الـوراء ويكـاد يتعثر في خطوته ، يقول لها كأنها غريبة عنه: " لم أقابـل شخصا بمثل هذه الكثرة" ، وتضحك صـافيا: " فعـلا، لازم نضح حدا لذلك".

بعدما عدت لمصر تكدسـت لوحـاتي ذات المراحـل الخمس، وشغلت نفسي بكتابة المدونة الموسيقية بـالكمبيوتر لأوبرا (الحمال والبنات الثلاث) وضايقني عسري المـادي، إلا أني سعيد بتحرري من الارتباطـات العائليـة أو حتـى العاطفية، أنا وحدي مكرس للفن، لذا أكسـب عيشـي عـن طريق إعطاء دروس موسيقية لأولاد العائلات المصرية.

في يوم حلمت أني أركب طوفا مع آخرين وأخاف مـن الغرق في الماء وأرى شابا نزل من الطوف ومشـى وسـط المياه، سألته: أهي ضحلة؟قال: لا يا أوهان ولكنها سـيقاني، فهي طويلة.

في العشرينيات من عمـري، كنـت أقـول دومـا إن مرجعيتي الحقيقية هي من دماغي ،وأن فيصل الأمور عندي في مشاعري وأحاسيسي فهي وحدها الصادقة واليقينية.. لـم يدر بخلدي قط أن أفكاري في معظمها محض أوهام وأحكام مسبقة جامدة، متصلبة وأن أحاسيسي مزيج مـن التـوجس والضلالات.

كم أعشقك يا قاهرتي، حتى لو تيسر لي أن اذهب إلـى آخر العالم من أجل تمويل مشروعي الفني، أحب أن أدفن بك وحدك.. القاهرة المدينة الوحيدة في العالم – حسب علمي – التي تتحرك بها النسوة فجراً وبمنتهي الأمان دون التعـرض لهن.. فالقاهرة بلد مختلف في الفجر، تجد النساء أكثر مـن الرجال في الشارع، حينما كنت أرجع بعد سهرة مع صديقي " ماجد " إلى بيته في شبرا،نجد النساء مكدسات في رطوبـة الصيف أو في عز البر، تخرج النساء متـدثرات بالسـواد ، منهن من تأكل البليلة أو سندوتش فول ، كلهن فـي انتظـار سيارات المصانع التي تقلهن إلى المصانع الأميريـة وإلـى شوكولاني.. وفي ميدان باب اللوق تقتعـد النسـوة الأرض وأمامهن قفف الخضار لبيعه في سوق الناصرية، وفي حـي

بولاق الساهر أبداً قد تخرج امرأة في الساعة الثالثة صـباحاً لتشتري عشاء لزوجها بعد أن يعود من قعدة الحشيش.

ولكن شتان بين امرأة الفجر، وامرأة ما بعد العصاري، فالمرأة نفسها التي تبدو في الفجر أقرب إلى الغفير ، تراهـا في اليوم نفسه مساء بصحبة زوجهـا أو صـديقتها أو أحـد أولادها، وقد كحلت عينيها ووضعت منـديل الأويـة علـى رأسها وكشفت عن فتحة صدرها حيث تلتمع سلسة أو عقـد من الخرز الملون، تمشي بأنوثة وتضـحك مليئـة بالحيـاة والمرح.. وكأن الأنوثة قد تفجرت فيهن فجأة.

في طريقي إلى كنيسة الأرمن الكاثوليك حيث أشـارك صديقي " جورج عسال" أو ادينا نحن الأرثوذكس" عساليان" الاحتفال بمولد العذراء مريم ،ويشاركني هو الاحتفال بذكرى شهداء الأرمن في ٢٤ أبريل ١٩١٥.. رأيت ما لفت انتباهي، خرج من سيارته إلى الرصيف الذي يقبع على ماسح أحذيـة بصندوقه وزجاجات الصبغة والورنيش وفرشاة التلميع،وقف واضعا قدمه اليمنى على مسند صغير ليقوم الُمِسـن بمسـح الحذاء.. وكان أثناء ذلك يمسك التليفون المحمول، يتحـادث باستغراق شديد ، لا يرى أحدا بالشارع ولا يصـله صـخب

الأبواق الضاجة لشارع صبري أبو علم ، غير منتبـه لمـن يمسح له الحذاء إلا حين قال له: اليسرى يا بيه.

كان أوهان مستغرقا في ذلك المنظر، سـيكون رسـما كاريكاتوريا ينطوي على احتمالات في المعاني.. إلا أن كهلا بسيارة فخيمة أخذ يناديه: أأنت هنا بالقاهرة؟

- نعم قبل تسع سنوات.

- أراك بحالة جيدة.. وعني فقد أصبحت الرجل الناجح الثري الذي رغبت أن أكونه، وعملي يتوزع بـين القـاهرة وباريس ، لكن افتقد قاهرة الستينيات.. هل تصدق أن وسـط البلد في هذا الوقت أجمل من باريس حاليا؟

- إنها النوستالجيا والحنين إلى الماضي بتوق طموحات ومثالية الشباب، ولا تنس أنك تكبرني بنحو عشر سنوات.

-لا ، بل الوسط الثقافي كان غنيا خصبا وأفكارنا كانت على درجة من اليقينية.. كذلك البارات والصـحبة الطيبـة والسهرات الممتدة في وسط البلد ، كما لا تنس أن باريس لا تطل على نيلنا أو تحيط بها القاهرة العتيقـة وتمتـد أمامهـا الأهرام جنوبا.

يخطر لأوهان أن وسط البلد هو الحنين الأبدي.. بـار وندسور الحميمي بأثاثه العتيق الذي لم يتغير منذ ربع قـرن تقريبا،وذلك الطريق من سـليمان باشـا حتـى العمـارات البلجيكية في شارع حسن الأكبر، وكنت أمشي فيه لأذهـب إلى صديقي " محمود المرتجي" ونقضي وقتا طيبا في الرسم والثرثرة.

رغم جاذبية وسط البلد.. إلا أنني لا أتسكع بها فور أن تلفحها الشمس خلافا لشوارع مصر القديمة، حيث أمر على " مفيد " في مجرى العيون ، مهدت هذه الشوارع موازية للنيل وبها انحناءات، ودوران الأمر الذي يجنبني الشمس المبهـرة بضيائها أو اللافحة بحرارتها، لم أكتسب لونا اسمر أو حتـى برونزيا ،ومن هناك امرق على قريبي الإسكافي الذي يجلس بعظمة تليق بمدربي البروتوكولات الملكية، يجلـس بزاويـة قائمة تسعين درجة بالضبط ، المسمار في فمه والشاكوش في يده، وعندما يقوم العم " بوغوص" فإن العظمة كلها تتلاشى، تذوي إذ يمسي محني الظهر هرما.

أذهب إلى الإسكندرية لاسـتلهام منـاظر مـن البحـر والصيادين، أقيم فـي بنسـيون " فينرهـايم" فـي شـارع

سيزوستريس لصاحبته النمساوية " هليجا" ، يبدو المقيمـون كأسرة واحدة، بها لوحات وبيانو وأرائك مريحة وغرف نوم أرضيتها من الباركيه،ومن كان يشتهي وجبة معينة عليه أن يشتري مكوناتها وتطبخها له الطباخات اليونانيات،وكل ذلـك بخمسين قرشا، في الساعة الخامسة مع الشـاي الإنجليـزي تعزف مدام هليجا نفسها.. الآن أصبح به غرفتان أو ثـلاث محجوزات للشركات العامة، واختفى معظم الأثاث المنزلـي الحميمي ، واقتصرت وظيفة المطبخ على تقـديم الشـاي أو القهوة.

آناهيد

يا إلهة الحب الأرمنية.. اغفري لي فزعي من الارتباط بالزواج.. آنا.. يا نغمات من الجاز ،يا ربيعي فـي خريـف يرفان، ألا تذكرين ىخر مرة.. ما احتضنتني مـرة بـذلك الدفء، وبذلك الطعم.. مويجات من حريق لا يستعر.. كـان عشقنا حنيناً يتجدد.

آنـا

سافرت إلى سوريا بحثا عن والدي وأخي الأكبـر.. أو أثرهما، توجهت إلى " كسب" في الحدود الشمالية لسـوريا،

صعدت جبالا تغطيها خضرة داكنة وأشجار ، فـي طريقـي الأفعواني الصاعد كان شكل السماء والجبل يتغير كل لحظة بضوء وتجل جديد ، ضوء حليبـي نـاعم كثـدي امـرأة، والغيمات لا تني تشكل لوحات.. وشعرت أن تلك الطبيعـة الثرة ، المتفردة الحانية، هدية الألوهية المبدعة التي وهبتنـا صوت فيروز.. أن تسمع فيروز بامتـداد أشـجار الفسـتق وبأريج سفرجلات مسكر ،وبالخطوات على الحافة في الدرب الأفعواني.. فتدرك أن ذلك كلـه لحنهـا الخـاص.. زهـوة الطبيعة من الجزائر عن الطبيعة في بلده أن البيـت المبنـى على جبل قد يطل على طريقين بالجبال ،الدور الأول والثاني على طريق.. والثالث والرابع على طريق آخر في مسـتوى أعلى.

وصلت كنيسة الثالوث الأرمنية الرابضـة علـى قمـة كسب، استقبلني العم يوسف حارس الكنيسة،وأكبر الأرمـن عمرا في المنطقة، وربما في سوريا.. حدثته عن والدي ،ولم يتذكره، بل تـذكر أخـي هرايـر.. ولـم يجـزم بمكـان استقراره،دلني على قريب لنا في دمشق.. فرح " كيفـورك"

بي واحتضنني ببأس شاب في العشرين وهو يناهز الخامسـة والثمانين عاماً.

وحكى لي عن مذابح.. أيها يا عم كيفورك؟ تلك التـي في أواخر القرن ال ١٩ أم في أوائل القرن العشـرين.. لـم يتوقف برهة ليجيب عن سؤالي ،فكلها مـذابح!! واسـتطرد يصف كيف صنع مقاتلو أرمنيا مسبحة طولها ١٥٠ متراً من حلمات أثداء التركيات.. انتقاما لما فعلـوه بنسـائنا، ولتلـك الجماجم الأرمنية التي كان الأتراك يعبدون بها طرقهم.

أسري ليلاً بين حدائق وأشجار وفيلات مصر الجديـدة، ومع الربيع يعجبني صمت لا يشقه سوى نقيـق الضـفادع وصرير جداجد الليل، تذكرت حشرة " السيكادا" في الغابـات المدارية والذي يظل يرقة مدفونة بجذور الشجرة لمدة سبعة عشر عاماً، ثم يصعد إلى سطح الأرض في طور النضـج ، ليتزواج ،ويأتي الجيل التالي بعد ١٧ عاما أخرى، لكني لـم أنس أن عمر السيكادا يتراوح بين ٣٠ إلى ٤٠ يوما، كمون طويل.. نعم، يعقبه أيام قليلة من التحقق ، أنا راض بـذلك و و لكن متى تأتي تلك الأيام؟.. أيامي ". سيقولون أن شـهرته تدوي مثل الطبل.. مثل صوت السيكادا الضاربة على الطبل،

كالنقر على قاع وعاء من الصفيح.. ولكن.. لم لا؟ ربما يقدر لي ذلك الأمر.. مثل " فان جوخ" بعد وفاته. وأسائل نفسي كم ١٦ سنة في العمر،وكم يلزمني من هذه الدورة الصرصورية الليلية لأتحقق كفنان.

وصلني خطاب من صافيا أثناء مرافقتها لزوجهـا فـي رحلة علاجه بواشنطن.. عادت مصر بجثتـه بعـد نجـاح العملية الجراحية في قلبه.

قبل إجراء العملية الجراحية لـ " حسن" قلت أتمشى في العاصمة قليلا.. سمعت صوت ميكروفونات تصطدم بأنغـام بعضها البعض، أعندهم ميكروفـات مثلنـا فـي الأفـراح والجنازات والدعاية السلعية والانتخابات؟!

اليوم هو الأول مـن أغسـطس، يـوم الكرنفـال السـنوي للأمريكيين اللاتينيين.. كانوا يحترقـون رقصـا،والذبذبات اللاهثة لموسيقاهم تترجرج في معدتي، ببشرة داكنـة بلـون الشيكولاتة.. كنت أتلاشى بين أسرابهم، تسد مسامي جيـوش إثبات الهوية اللاتينية، وتخنق فراغات الهواء حولي.. تنساب ظلال ببغاوات قماشية بلون برتقالي فاقع، ترتـق الصـخب على صفحة وجوه أناس يمزقون السكون.

مولد وصاحبه "سيمون بوليفار".

هل برأيك أعاني من فوبيا الزحام؟ أم هو قلقي على زوجي.

بما ذا أرد على خطابها.. أأقول مثل " باور سيفاك":

بيتنا ليس واحدا.. ليس بيتنا واحدا.. الرواح عنه مختلف.. والعود إليه واحد.. لتختلف ضحكاتنا.. ما الفرق؟.. بكاؤنا واحد.

** تقول لي صافيا إني جـد متنـاقض ، ذو عقليـة تجريبية ، شكلية منفتحة للتلقي والمرونة في التفهم، وكـذلك للإرسال والتفاعل مع الآخرين ذهنيا، إلا أن سـلوكي جـد منسحب.. وفق السائر والمألوف أتبـع.. لا أتمتـع بـروح مقاتل.. الذي كانت تتوقعه من سليل شعب أرمنـي ، بلـك تاريخه.. أرمينيا ، حيث تنتهي أوردتي ، إنها قلبـي الـذي تجتاحه موجة فقد موجعة.. أهلي الذين طرقوا كل الـدروب الموحلة ، مضوا يبدلون بلاداً ببلد،ومثل أسراب الطيور فـي الخريف، تناقصت أعدادنا.. وبما أن عيني مفتوحة أكثر من احتمالي.. أنسحب.. أتقوقع.

ما أشبهني بدمرجيان.. بأزمة عقليـة اسـتمرت حتـى وفاته.. وتبدت جلية في اختياراته للرسم، رسم أمه (مايرك)

أم الأم الأبدية (أرمينيا) في صورة شـابة.. إنهـا مـريم.. بإكليل الحزن على رأسها وصليب يتدلى من أذنها وعبـاءة مفتوحة الأكمام.. إلا أنها حافية ، تستند على شاهد قبـر، أو باب لا يغلق فضاء رمادياً تتوهج فيه نيران المـدافع وتنـز الرصاصات، وتُحاق الغربان.. المـوت الوحشـي، الهيكـل العظمي الفاغر فاه أبدا يحمل المنجل ، يحصـد بـه الطفـل والشيخ ، يقصف النبل الإنساني بالكراهية والغل.

تظلل لوحات دمرجيان الأربع عـن عـذابات أرمنيـا إضاءة خافتة ببخار ثلجي.. هنا يتعتق نبيذ الألم.

أثناء عودة أوهان من اللاذقية في طريقة إلى دمشـق.. نال منه التعب، فغفا في الأتوبيس، يفتح عينيه من وقت لآخر ليعرف كم بقي من الكيلومترات حتى العاصمة. ما بين الغفو والصحو ، هدأ الأتوبيس قليلا، فقرأ لافتة" لا تعبر الطريـق قبل خلوة".. خلوة.. أية خلوة؟.. شرعية أم غير شـرعية؟! فتح عينيه مرة أخرى، قبل أن تتراجع اللافتة إلى الخلف.. " لا تعبر الطريق قبل خلوه". بالهاء وليست بالتاء المربوطة.. " ما بك يا أوهان؟ أتشتهي امرأة في ذروة تعبك، وبحثك غير المجدي عن جذورك؟".

الفصل الثالث

صافيا الصغيرة

مثل الأنهار الجارية لرباعية أوسوناتا، كانـت دفقـات حب دافئ تغمر قلبها.. تملأ خواءها الذي ينخر في روحهـا بفعل الإحساس بالركود الآسن، في لنـدن رأتـه: أن تثيـر مشية رجل امرأة.. ذاك أمر نادر.. حادثت نفسـها، أسـمر فرعوني وسيم برشاقة تماثيل إغريقية ، انسـيابية الجسـد باستقامة، جمال ليونة حركات المـدرك لسـحره الخـاص، رأس جميل ،شعر مفلفل ، متماوج، يتـداخل فيـه الشـعر الأبيض مع الأسود في تواطؤ غير مدروس.

واحدة، أدركت صافيا: معجب بنفسه!!

بنظرة يستحق خيلاءه.. الأجمل أن صوته ذا نبـرة مسرحية، كيف حال صـوته أثنـاء الحـب؟..

قفشاته الساخرة تبدي ذكاء – ازدرائيا- للعالم، ويتعالى بـه في نفسه.. ليضيف راقة جديدة إلى رصيد الافتنان.

من عجب أن إحصائية دقيقة عمن سمعه مرة يضحك.. نعم يضحك بصوت عال، سينتهي مآلها إلى خسران.. ما من مرة قهقه.. ربما مرات وحيدة مجاملة لـ " حبيبة" لا يـزال يلاحقها.

ردود فعله سريعة.. كنقطة ماء لا تستقر على حال فوق زئبق.

صامتاً مغلقا بقوقعته، كأن العالم بالنسبة إليه لم يوجـد بعد.

مفتوناً بذاته.. غير مبتهج بها.. كان " شهاب".

تفيق من غيبوبة شهاب على صوت زوجها يغني فـي الحمام موالا من قريته:

ون هون الله نطويك يا بعيدي.. كما طوى الخياط ثياب العيدي.. يا عم ما أحلي النوم على العلالي.. مع بت بيضة خدها بيلالي.. يا عيني ما تبكيش ع اللي مات.. ابكي على اللي خاف بنات.

زفرت صافيا.

استقرت على ملامحها الجميلة ألم جمدته آثار معركـة احتدمت ولم تنته بعد.. بين مشاعر متضاربة.. إحداها كبتتها هي طواعية، والأخرى قمعها آخرون، وبين الرغبـة فـي إطلاقها حتى لو كانت مشاعر كره، تريد أن تكون نفسها.

اعترضت مرة على رسم كاريكاتوري قدمه لها أوهان: أعرف أن ثمة عنصراً كاريكاتوريـاً فـي شخصـية كـل منا،ولكن ما هذا ، أضحكتي بهذا الاتساع؟

- يا عزيزتي يا صغيرتي.. إنه الاستسلام المرير فـي روحك يحلق على ضحكتك " الهاربة".

-استسلام مرير!!

-لأقدارك كلها.. التي تفزعين مما هو آت منها.. ألست تتعاملين بأدب مع حفظ مسافة مع الناس وتفتقر علاقاتك- في الغالب – إلى الحميمية.

- هذا الكلام لي وحدي؟

-وكذلك أنا يا صغيرتي.. كم نحن متشابهان.

وهي صغيرة – قبل أن يكل بصر واطفة – التي كانت تقطف الملوخية وتلتقط نبتات من الجعضيض وتقـذفها إلـى الباب.

- لم يا جدتي؟

إنه نبت شيطاني غريب ينبت بين سيقان الملوخية.

هرعت صافيا إلى الباب ، تنحني في حدب على الجعضيض البري تضمه إلى صدرها.

- أو ليس يجلب الحظ الطيب لأهل البيت؟

- نعم.

-وإن لم يكن منهم؟

نظرة اندهاشة من واطفة ثم عاودت قطف أوراق الملوخية عن سيقانها.

***

استيقظت صافيا مبتهجة بجمال وروعة الألوان التي رأتها في منامها " أري شجرة ثمرتها عبارة عن طبق، ينفتح لينطلق منه عصفور جميل".. متفتحة للحياة، للموسيقى، للفن الجميل،ولوحة تذكرها بصديقها أوهان، فضت الورق المغلف لمستنسخ لوحة (النيل في الصعيد) للرسام " يوجين فورمنيتان".. وعلقتها قبالة زاويتها التي تركن إليها في المنزل للقراءة أو التأمل.. خمس نوبيات شاردات الذهن ضعضعهن الإرهاق فوضعن جرارهن كيفما اتفق، لون النيل

وترهل مياهه،واللون الضارب إلى البني يشي بفترة جفاف – تحاريق – و الشادوف مرتفع لأن منسوب المـاء انخفـض كثيرا.. أربع من النوبيات متزوجات يلبسن الأسود ،وواحدة بثوب ملون لا تزال صغيرة.

شاخصة إلى النيل، جلست إحداهن فـي اسـترخاء،وقد أرخت ثوبها عن صدرها، فتبدي ثدياها، ثريين ، ريـانين.. اللون السائد – البني المحمر – يغلب على اللوحة،وشـرعت صافيا تشعر أنها السناء الخمس معاً.. ولم يجانبها الصواب، فهن امرأة واحدة.. اختلفت أوضاعها في الرسم.

أن تأتيك هبة الرب طائعة ،وتفقد في اللحظـة ذاتهـا.. فرحة اكتمال وألم انقسام النفس الواحدة.. أن تطبق اليد على سر الحياة، وتفرد راحة اليد فإذا بها خاوية.. ذلك ما شعرت به صافيا حين أخبرتها صديقتها " يمنى" – خائنـة وعـدها لشهاب – أن شهاباً يحبها، ويتعين عليـه أن يختفـي مـن حياتها.. حتى لا يضر بزواجها واستقرارها العائلي.

الألم واحد لكليهما.. امتلاك وفقدان.. وفرحة وخسران.

-هل سيغادر لندن؟

- نعم، إلى ألمانيا سيجري عملية جراحية.

تعقد صافيا ذراعيها، تضمهما بقوة إلى صدرها، تنكمش جنينا في جلستها، تطوي ساقيها تحتها، تكور نفسـها علـى نفسها.. ما الذي سيفر من بين ذراعيها وتضغط لضمه إلـى صدرها تقلص من حجمها المعروض للهواء تكثيفـا لطاقـة دفء تتوزع على أصغر مساحة...

ألا يتلاشى من بين ذراعيها ما تحرص عليه؟!

سألها حسن: لك مدة متغيرة.. ما بك؟

تكافح لإظهار الثبات في صوتها: لا شيء.

صمت ما وسعها نفسـها.. أدفأتهـا، ربتـت عليهـا.. طمأنتها. مدفوعة إلى أن تسلك دربا لـيس فـي صـالحها.. مدركة لذلك، سافرت إلى ألمانيا لزيارة شهاب.

متع الحكي البريئة.. وانضمامها لـ " نادي " المشـائين لمسافات طويلة مـع شـهاب.. تسـتطعم مـذاق الحبـور والامتلاء،ولما تعود إلى مصر وحياتها العادية وتنقر علـى مسامها مشاعر الذنب.. تصحو متحرية أي مشـاعر تجـاه شهاب.. صداقة فحسب، تقول لنفسها.. لكنها تنام على وجـد أن تسمع منه كلمة واحدة.. آلو.. أو خطاب منه.

أكثر هشاشة من احتمال التناقضات.. كانـت صـافيا، لاحظ حسن أنها تقوم من " عز النوم" تتمشى فـي المنـزل كحيوان حبيس، تختبر أي الأبـواب تكـون مفتوحـة،ومرة ارتدت ملابسها.. وقف حسن أمام البـاب ليحـول دون أن تخرج.. كأنها لم تره، خرجت واستقلت سيارتها، الإحسـاس بالخطر والمسئولية دفع حسن إلى أن يتبعها، وصلت محطـة مصر خرجت من السيارة ثم غيرت رأيها.. دخلتها، وعادت إلى المنزل.. صارحها حسن بتصرفاتها وأحس أن دهشـتها من كلامه كانت صادقة.

الأكثر صدقا.. كان جسمها، فاترة معه، غير مهتمة بأن تبلغ ذروتها منذ متى فارقت ذلك الاهتمام، ساءلت نفسـها.. عدة شهور.

- ما بك؟

- لا شيء.. أنا بخير.

سكر الأبواب برتاجات سخطه وشكه.. ضاجعها بكـل رجولته وعدوانيته (أنت من صنعت وأطعمت وكسـوت).. جاء صوت شهوتها مثل نهنهة بكاء طفل صغير.

متكورة على نفسها ، تستحلب المـرح مـن موسـيقا" أماديوس موتسارت".لفحتها نسمات صيفية باردة، تغلغلت في وجدها ووجدانها، فردت قامتها كلها، رفعت ذراعيها في وجه النسمات، انفتح قميص نومها كمنطاد، "ريشة تائهة داخلـي ، نظرت إلى ساقيها المضمومتين في وقفتها.. لا تزالان ثابتتين على الأرض " راسخة أنا ، لن أضيع".

" ربما لن أراه بعد الآن.. وينتهي الأمر " لكن التي لـم تعد كما كانت هي صافيا.. ليست هي كما عرفـت نفسـها.. ربما راكمت عن نفسها صورة ليست حقيقيـة علـى مـدى عمرها،ربما مثل صورتها عن شهاب ليست هي الحقيقـة!! صورة من صنعها.. أو ربما لن تتيح لها تجربة حياتهـا أن تغوص وتضئ مناطق معتمة في نفسها.. " لم أعد كما كنت، لكني مازلت صافيا".

لن يغط حسن في نومه ، حتى يطمئن إلى عمـق نـوم صافيا، ما إن تغادر الفراش، تمشي مرنمة نحـو البـاب.. " تمشي أثناء النوم، ستعود للفراش ، فالباب مغلـق بإحكـام" تكتشف المرنمة أنها حبيسة تـدور فـي الغرفـة، بوحشـية وإحباط لبؤة محبوسة وصغارها خارج قفصها.

" هل أصبحت من السياطيين، أجوب الطرقات، بظهـر عار، وأدمي نفسي من لسعات السـياط؟ أم أشـق صـدري وألطمه تكفيرا عن " شهيد كربلاء"؟.. هل الدماء تطهـر؟.. أأتطهر من ذنب لم أقترفه بعد؟".

" طلبت الأمان، فنلـت إلـى جانبـه المـال والبنـات والاستقرار، فطلبت الحب.. فتجلت تعاستي.. تلـك تغافلـت عنها لسنين.. تلقين العبء على حسن، ليس عدلا، كيف يسعد رجل زوجة يرين على قلبها شقاء مكين؟".

بعد سنوات تكرر صافيا السؤال عينه: " كيـف أسـعد شهاباً.. أبمقدوري أن أسعد تعسا؟"

يجتذبها إليه.. يشغلها بمزيـد مـن تفاصـيل أعمالـه وصفقاته، منميا بذرة عندها.. المنطق البارد.. الحدس البارد لمسار السوق وتقلبات المال.. " هي من علمت.. أيضاً"، لكن رجراجة هي الأمور.. ستظل إلى أمد طويل بالنسبة لصافيا.. فالعقل البارد وحده لا يحسم، طالما سيبقى قلبها حـارا إلـى الأبد.

الفصل الرابع

رشيد

" إن روحك تحوم علينا محولة سيوفنا إلى أحشائنا"

بروتس مخاطبا قيصر بعد اغتياله

شكسبير

-٣-

"رشيد"

أدخلوني مكتب التحقيق وبجعبتي ما كنت أسمعه مـن أنه ليس مـن حقهـم أن يسـألوا عـن آرائـك

ومعتقداتك.. لكن ما هي معتقداتي؟ ومن تجربة زميل سـابق في الحبس أنه من حقي أن أشجب ما حدث و الذي من أجله قامت المظاهرات، إلا أنه يتعين علـى أن أصـرح بـانني مررت مصادفة على المظاهرة.. لماذا مصادفة؟ فالمظـاهرة كانت في كليتي ، كلية الطب، ما العمل إذن؟

لم أُعر الأمر اهتماما كبيرا، إذ يكفي أنهـم سـيزجوننا معـا، وقـد يكـون معنـا سياسـيون كبـار يرشـدوننا ويوجهوننا،والأمر بسيط للغاية، مجرد مظاهرة احتجاج ضد الحكومة والتي باتت تنطلق من الكليات المهنية تحديـدا، إلا أنني وجدت نفسي وحدي معزولا عن زملائي مـع سـجناء عاديين ، تلاطمني الروائح العطنة الواخزة والرطوبة المشبعة.

ثمة تواطؤ مكتوم.

ذرات تراب بالحلوق ، عالقة بالهواء، إلا أن الهواء كان شفيفا براقا، لم تتكاثف للعين أتربة.. وكان الصمت وابـتلاع الريق تعبيرا عن الترقب.. صراخ.. لون رمادي خافت يزيح الشفافية، تعوي الرياح فتنزيله بدوره، ويعلق لـون أصـفر رملي مضروب بزرقة داكنة للخديعة.. حوش السجن خـال، كل في زنزانته،وفي الزنزانة القابعة في نهايـة الـدهليز..

خوف، استغاثة، تفح بشعور طاعن بالمهانة.. تشتد الريـاح وتصفر،يبتلعون ريقهم بالرمل والتراب في أنوفهم وألسنتهم.. صراخ ثم همود ، يفركون بأيديهم سجائرهم المحشوة بهديـة التواطؤ.

**المعلم دخلته الليلة.

ويكنس المطر فـي طريقـه تـراب ورمـال الريـاح الصحراوية، فيتكدس طينا لزجا في حوش السجن.

* ما أشبهني بجهاز التسجيل الحساس الذي يلتقط إلـى جانب الكلمات أصواتا محيطة قد تكـون أبـواق سـيارات، شجاراً ، مذياعاً من بعيد، لكنها في كل الأحـوال ضـجيج مشوش.. وذلك لا يدعني أتجه رأسا إلى موضوعي وأركـز عليه، فتدخل رسائل أخرى قد تعنيني أو لا تعنينـي، لكنهـا مشوشة ومبددة للطاقة.

* يعد " رشيد " طعاما ساخنا للمعلم سايس السـيارات ومروج المخدرات والقوا، لُسعت يده.. تذكر حجرة الباركيه الواسعة الباردة في بيت أهل أمه، تلك التي هجـرت والـده وأخذته معها، ليبقى وحيداً، على كثرة ما في بيت جده مـن خدم، قلما يتنبه أحد لطلبات ذلك الصغير، فالأم تعد لـزواج

جديد ، لا ، لم تستقر بعد فهي تفحص الخاطبين،ولم لا فهي سيدة جميلة ذات حسب، وعندها تمر خادمة علـى حجرتـه ربما تتذكر فجأة أنهم نسوا دعوته إلى الطعام،أو في إدخـال صينية طعامه إلى الحجرة، " ماذا تريد يا رشيد؟".

- فقط وابور معمر بالجاز
- فقط؟
- نعم، فقط.

يجلس في الحجرة وحيدا مستدفئا بما يصـدره وأبـور الجاز من حرارة، ومستأنسا بوشيشه، وكل شخصيات عالمه ماثلة أمامه في القصص المتراكمة علـى مكتبـه ، يـرص حصيلة النهار من جثث الذباب في صف يليه حصيلة المساء من جثث الصراصير، بقي حصار الليل البهيم من صراصير الليل، هم أن يفعلها.. وينزل إلى البركة المجاورة للمنـزل، لكنه فكر في وحدته القارصة، لا يمكن أن ينام قبل أن يبلـغ صرير صراصير الليل إلى ذروته.

قال لنفسه: " أتلقى منهم هدهدة ما قبل النوم.. لا.. لـن أفقدهم".

يتأمل سكينا لا معا ذا حدين، وجده في حجرة جده، أخذه ليملي عينيه من جمال الحفر عليه ولم يعده قط إلى مكانـه.. يضعه في الليل تحت الوسادة، يمد ذراعه لملامسته، إنه في متناول يده، حفر على المقبض فارساً عربياً ذا إباء وشـمم، يتأمله فيشعر بالرهبة مأخوذا بجماله وقوته.

لا يجرؤ رشيد على الخروج من الـدار أو الاخـتلاط بأطفال الفلاحين في القرية، فلأمه سطوة شديدة، جعلته يهرع إليها إذا لزم الأمر أن يتخذ قرارا، أن يرسل أبوه إليـه بـأن يلقاه لمدة نصف الساعة خارج القرية، على ألا تعرف أمـه تجنبا لمزيد من المشاحنات، ولم يقـدر رشـيد الـذي ورث خليطا من جمال أمه الغندورة وملامح أبيه الرجولية.. وشب فتى أمرد كما تصفه حكايات ألف ليلة وليلة، لم يقدر علـى تلك المغامرة وأن يعرف أنها تمنحه قدرا من الإشباع لدفء يفتقده بيت جده.. لم تلجأ أمه لتهديده، بل لرشوته بأن تشتري له دراجة وحفلة سينما أو مصيف.

" لكني الآن أتفهم موقف أمي، كان والدي دائم الإهانـة لها" ،وفي الوقت نفسه يمور داخله غضب بركاني ، فهي لم تقدم له حماية أو رعاية وكذلك والده، لم يهدا إلا مع صـوت

طقطقة الخشب المشتعل.. منتبها إلى رعاية كان يمجها مـن المعلم: " لا تنادني رشيدة، اسمي رشيد ، وهذا أقصى مـا أمكن رشيد أن يناله كمكتسب من المعلم، أن يناديـه باسـم ذكوري، إلا أنه أصبح يحب معاملة المعلـم الرقيقـة لـه.. يتساءل أحيانا كيف وقد أهانـه وانتهكـه فـي يومـه الأول بالسجن،ولا ينسى كيف أنه يحميه من سجناء آخرين يعاينونه بالنظر متنمرين، ووعده أن يوضح لإدارة السجن أنه معتقل لأسباب سياسية، " وكنت قد حاولت مـرارا ولـم أجـد إلا الصمت والتجاهل.. ما مصير زملائي؟ لا أدري لم أسـتمتع هنا، لا غرابة فالزنزانة مثل حجرتي في بيت جدتي، وفيـه دفء الحشيش الذي أتعاطاه مع المعلم دون أن يأخـذ منـى مالا، وأستمتع بالطعام الجيد والهدايا والحمام الساخن.. وفي الحقيقة إنني أخاف المعلم وطريقته في نهري وتهديـدي، لـه سطوة غريبة ولا مفـر مـن أن أطيعـه وأن أتـواءم مـع ظرفي،وفي النهاية أحببته، هو يسعى بكثافة الآن ويسـتخدم نفوذه وأمواله التي يكسبها من تجارة المخدرات في السـجن في توضيح أنني اعتقلت في مظاهرة بكلية الطب،وأتساءل ما هذا التناقض؟ كيف يريدني له فيما يخدمني بهذه الطريقة؟..

ولم تطل دهشتي فقد أفرج عنه بعد أسبوع.. وكم شعرت أني يتيم دونه، وتقوست في سريري ، قابعا في زاوية الزنزانـة، لا أتكلم متحاشيا السجناء الآخرين.. وحـين أفرجـوا عنـي بعدها بنحو عشرة أيام تقصدت أن أغضب بشـدة وطالبـت بالتحقيق في ذلك الخطأ الذي وضعني مع سجناء عـاديين، فزجرني الضابط بأنه سيعيد التحقيق من جديد والاتهامـات جاهزة وكذلك الأدلة.

**سألني زميلي: أي التخصصات تختار؟

قلت: طب نفسي.

وابتسم وأعطاني بعض المنشورات لأوزعها على أنهـا محاضرات مصورة ونفذت الأمر بطبيعة الحـال، وقبـل أن أغادر مبنى الكلية بعد نهايـة المحاضـرات إلـى المدينـة الجامعية للطلبة، استوقفني حرس واقتادوني إلى حجرة مكتب الأمن، حيث هددني الضابط بأني لن أروح حتى أقول مـن أعطاني المنشورات، وعرض التغاضي عما يعرفه عني من اشتراك في المظاهرات وعمن ألقاهم من " المُشتبه فـيهم".. ولم يفدني الإنكار، فجلست حتى الساعة الثانية صباحاً قلقـا ضجراً،وأعطاني قائمة بأسماء الزملاء، لعلني أتذكر أو أعثر

على اسم الذي أعطاني المنشورات.. رأيت القائمة غالبيتهـا أسماء لجماعات إسلامية أو ناصريين،وفي الحقيقـة أرى أن انتقامهم، فهم معي في الكلية والمدينة الجامعية.. أين أذهـب منهم؟.. وفي النهاية أشرت بإصبعي إلى اسم زميل أعـرف أن لا صلة له بالسياسة البتة.. وروحت فجـر تلـك الليلـة الكابية.

أثناء النوم كان جسمي يفز فـي انتفاضـات تشـنجية، وشعرت كأنني معلق بالسقف وأرى جسـدي قـد اسـتكان، ورأيت بئرا بها ماء، وأخذت أطل عليه، فـإذا بـه خـواء أسود،وظللت أطل عليه.

* وفي السجن،أراني كل ليلة تقريبا أمشي على سلك في الهواء ، أنظر إلى الأسفل،وتتردد في ذهني كلمة " تـوازن.. توازن".

* أسافر إلى مصيف،وأفتح النافذة لأنظر إلـى البحـر والسماء وأجد في السماء وجه الشيطان – بشـعاً – فأخـاف وأنتقل إلى غرفة أخرى، أفتح النافذة على السـماء وكانـت عادية.

* أرى فيلا صغيرا جميلا يرتدي الأبيض أو هو مغلف بورق فضي يصعد الفيل إلى أعلى، إلى القمر.

في خلال الحبس الذي دام ستة أشهر، تعرفت إلى رجل في زنزانة مجاورة كثيرا ما كان المعلم يسخر منـه، لكنـه يتجاهله برباطه جأش ، فيستشيط المعلم، وفي مرات أخـرى يقول تعليقات ساخرة بنغمة هادئة ،ويحاول المعلم أن يستفزه فلا يزداد إلا هدوءاً يضحك المعلم: " أعتقد أنه طيب القلـب أو ضعيف خبيث"، ولم يكن كذلك، وعاونني على أن أتجاوز إحساسي بالمهانة، وأن أتكيف حسب الظروف، إذ أن جيشان الغضب عندي لم يؤد إلا إلى طريق مسدود، صـابرا مرنـا حتى تنفرج الأمور.. وسلاحه لذلك في التأمل في " اليوجا".. وكم كان عسرا مرهقا أن أحول جيشان الغضـب والتـوتر الداخلي إلى استرخاء،ولا أنسى يوم خرجت وقـد أهـداني شريط تسجيل عن " راجا يوجا".

كان قصير القامة بشكل لافت النظر ، سـألته: عنـدما يسخر منك المعلم إلا يكرس عندك إحساسا بالنقص؟

رد: إنني أعمد فورا إلى أن أسمع" أم كلثوم" بوجد فهـي وحدها تطربني ، بصوتها أطفو في الفضـاء وأحـس أنـي طويل.

وكان هو الذي لفت نظري إلى أنني ألـبس الـ ـ" تـي شيرت " بالمقلوب. و أنني مطأطئ الرأس إلى الأرض كمن يبحث عن شيء ضاع منه.

يقول " مصطفى": عيش الحياة مثـل الطفـو الـنـاعم، وانتظر الموجة الآتية، دونما تصلب أو تشنج، ليست سـلبية، بل نعيم الحياة.. جرب أن تتمتع بسلبية تلقـى متـع الحيـاة البسيطة لا تقاوم ولا تشتبك معها للسيطرة عليها.

رأيت "أنور " يتمشى أمام معلـم المخـدرات ،ويطلـق شعره الأصفر الطويل على كتفه وقد خلع عمامته، وجلبابـه محبوك حول ردفيه.. وعندما تم اقتيادي إلى السجن، رأيـت العساكر يضربونه، يصرخ: " لا بد أنكم غلطـانين، دا أنـا متعاون مع المباحث،وكنت مع العقيـد " سـامي " إمبـارح وأعطاني أربعين ألف جنيه ثمنا لخدماتي لكم".

قبل أن أخرج بنصف الساعة، قـال لـي مصـطفى: " حدثني متى كنت قويا".

-لقد أنفقت على نفسي بالجامعة، بعدما انشغل كل مـن أبي وأمي بزواجـه وأولاده، سـافرت وعملـت واحتملـت وكسبت عملات في ألمانيا في مصنع تكهين السيارات لاختيار شبابيك الزجاج الأمامية والخلفية والجانبية.. بغرض انتقاء ما يصلح منها لتسويقه مرة أخرى إلى دول العالم الثالث.. أعمل ساعات طويلة ، وفي الليل أبيت مع مجموعة من الأفارقـة من " بنين " يبلغون نحو الأربعين شخصا في قبـو، وحالمـا أدلف إلى فراشي يتشارك ما يربو علـى مليـوني مخلـوق صغير من العثة، فأظل أسعل حتـى الصـباح،وفي إحـدى المرات وصل السعال حد الاختناق، لكني تحاملت، وحققـت هدفي.

وفي العام الثاني بكلية الطب، عملـت فـي المحـاجر باليونان حيث خطوط تقطيع الصخر بآلات، ويـتم تسـويقه على أنه صخر قوالب للبناء وأعمال الترميم، أو لتصنيع مـا يماثل قرميد الأسقف.

* لما خرجت من السجن تم استدعائي للجيش ، إذ أنني لم أقدم طلبا لتأجيل الجيش، لأني كنت بالسـجن، وأُعـددت للسفر إلى جبهة الحدود السعودية –الكويتية لمواجهة الغـزو

العراقي.. إذن لم يكن الأمر أنهم تنبهوا إلى خطئهم ، أو هي جهود المعلم، إنها الحرب فقط.

* في الطريق إلى " حفر البـاطن" قاومـت المنظـر الصحراوي الأجرد،والخلاء المـوحش، أغمضـت عينـي، تذكرت ذلك الشحاذ المتشرد ، الواقـف أبـداً علـى ذلـك الرصيف بجوار كوبري المنيل.. بملابس رثة وعظمة وتيه ، أنا لا أدهن إلا أني رغبت أن أشارك في إحساسه بالتعـالي، بأن أطلب منه أدبا وتقربا أن يولع لـي سـيجارة ، فقلـب الولاعة بإعجاب ، وفتحها لتصدر الامتعاض وجهه.. وقـال لي بأنفه: يا أخي اشتري لك كبريت ،وولي بظهره بدرجـة كبرياء غير مسبوقة منه.

لم أتذكر تلك القصة؟ هل أهرب من رجع الصدى الذي يتردد في ذهني ولا أعرف طريقا للفرار منه، كنت قد حكيت لمصطفى في السجن أنه إذا حدث ودار حديث بيني وبين أحد الناس صباحا فستظل أصداؤه تتردد في دماغي،وما أن ينتهي استرجاع الحديث كلمة، كلمة،وكل انفعال صاحبه حتى أعود مجددا لإدارته دونما توقف،وإن حادثت آخر ليلاً لا أنام مـن أصداء الكلام في ذهني.

** عندما تنفس الليل، رقد رشيد وبالإضاءة الخافتة يردد ما تعلمه من مصطفى: "لبدء الأمل، أجلس مرتاحا مسترخيا.. يصبح نفسي عميقا ومنتظما، أبعد التوتر عن عضلات جسمي كلها.. وبذهن صاف أشرع بإضفاء حالة الاسترخاء على قدمي وساقي، لتصبح بثقل طفيف.. أتخلص من التوتر في بدني كله ثم أتخذ طريقي إلى ظهري، لتسترخي كتفاي وبطني ،رئتاي مفتوحتان تتنفسان بعمق.

أصابعي وذراعاي تصبح ثقيلة، عنقي وعيناي.. كل بدني يتخلص من كل توتر، عندئذ وبالتدريج .. بينما يصبح بدني ثقيلا ومسترخيا، أسحب طاقتي عن ذراعي وساقي صعدا إلى منتصف جبهتي ، خلف عيني.

أصبحت واعيا لنفسي، بينما طاقة الوعي تستقر بلطف في البدن، بإمكاني النظر بعيني، أسمع بأُذَني ، أتكلم بفمي ، بإمكاني استخدام أيا من أعضاء حواسي إذا ما رغبت.. لكني أختار أن أبحر داخلي.

بينما أركز على نفسي، أكثف تلك الطاقة إلى نقطة،وأبدأ في الإحساس بأني خفيف للغاية ومفعم بالحيوية، أركز على

نفسي..على خبرتي ، لتكون نفسي طاقة سلام.. تستقر بلطف في بدني ، خلف العينين.

فيما أركز على نفسي، حينما ترقد طاقة السلام في بدني ، ألاحظ ثمة أفكار ومشاعر عديدة تنبثق في ذهني.. أحولها إلى خارج فضاء العالم، وأرقبها بأفكار سـلام.. والأشـياء الأخرى أتركها خلفي، أدعها ترحل عني.

وبالتدريج تهدأ أفكاري،وأشعر بالسلام.. أمتلئ وأطفـو في الفضاء، نطاق السلام يغسلني ويتغلغل داخلي، أسـتوعب تلك الخبرة وأدرك أنني – نفسي – سلام، وبـذلك السـلام يصبح الحب الطاهر والجمال والفطرة السليمة، هي جميعـا نفسي الحقيقية.. لأتحول طاقة سلام ومحبة.

أصبحت رهين الصمت والسـلام فيمـا وراء الـزمن والفضاء ،وأصبح فكري هادئاً، سـاكناً... وبتلـك التجربـة أرسل عبر الكون، إلى العالم كله خبرتي كروح سلام".

لكني اكتشفت شيئا آخر كان يجذب ذهني بعيـدا عـن الترداد الأجوف وهي لعبة مارستها مرارا وأنا صغير، وهي أن أسقط قطرة ماء من طرف إصبعي علـى شـفرة مديـة

جدي، لا تستقر عليها، تقلقل كأنها حبة زئبق، وكأن قطـرة الماء بشفافيتها تريني قاع بحيرة حصويا لامعا.

بعد أيام انتقلنا إلى منطقة أكثر قربا من الحدود الكويتية في مدينة " الرفعي" ويتكهن " عادل " – الذي أنست له كثيرا فهو دمث، صاب، لطيف المعشر – أن مهمتنا فيما يبدو هي صد الهجمات العراقية ليس إلا.. ومن المحظور علينا دخول الأراضي العراقية.. وماذا عـن حقـول الألغـام؟ وتـأتي التأكيدات أن مهمتنا في الرفعي أقصى الحدود السـعودية – الكويتية من اتجـاه الغـرب إحبـاط أي اختـراق للحـدود السعودية، وكان العراقيون على مرمى النار.. حقا لمن أوجه قذائفي؟ وتمكنا منهم وأحبطنا اختراقهم وكان أمـامي كيلـو ونصف الكيلو متر حتى نصل إلى الكتيبة،وكان علي أن أجر عادل بعدما وجدت ذراعي اليسرى تنزف. وكنـت مصـابا أيضا ببعض الرضوض.

"أتعرف يا عادل أن ذلك الضجيج والصخب للأسـلحة يشل تفكيري، لكني أستقي الراحة من مقولة أنه عادة يقتضي الأمر أن يمر المرء بالحيرة والتشوش حتى تولد داخله نجمة راقصة.. وعلينا أن نواصل مهمتنا القتاليـة وكأنهـا جملـة

اعتراضية فـي حياتنـا، سـنعود ونـدخل الكويـت أقـل غضبا،،أعود من الحرب أقل تشوشا.. وأتخلى عن مبارياتي مع الآخرين من أجل التهام نصيبهم من مال أو تقدير، أقول لك الحق يا عادل أنني عندما كنت في المحجـر باليونـان.. طلب منا رئيسي العمل أن نعمل سـاعة زيـادة دون أجـر مطمئنا إلى أن العرض من طالبي العمل أكثر مـن العمـل نفسه، فأقنعتهم فردا فردا، لا بـد أن تطـالبوا بـأجر أو أن تحجموا عن ذلك وعندما أحجم الكل بالفعـل قمـت وحـدي بالمجهود الزائد، الذي يساوي جهدهم إجمالا، فأعطاني رئيس العمل مكافأة سخية، وبررت لهم أن رئيس العمـل ضـغط على، وفزت بقدر لا يستهان به من المال ما كنـت أدخـره حتى لو أقمت في المحجر شهور صيف أخرى.. لـن افعـل ذلك مرة أخرى.. وستعود أنت لتعقد قرانك وتسـتقر بعـدما وجدت خطيبتك الشقة، أتعرف.. أشعر أن مصـطفى كمـن يحاول أن يوجه لي رسالة عقلية، وما كان بإمكاني أن أتلقاها لأني لم ابذل جهدا صادقا في الاسترخاء الجسدي والصـفاء العقلي وان أرتقي بمعاونة مصطفى أن أصل إلى التخـاطر، أفكر جديا أن أتخصص في الطب النفسي، ربما لأجد إجابات

عن عذاباتي وعن تشككات " يمني" .. لم أحدثك عنهـا مـن قبل.. مستفزة هي من فرويد وتقول إنه فشـل فـي حياتـه الشخصية، وان الأمرين الذين كرس لهما حياتـه المهنيـة: الحب والجنس، ويحتد بيننا النقاش، فتشير إلى أن فرويد عتبة مليئة بالفخاخ وشراك لوي عنق الأشياء لتتماشى مع تفكيـر مسبق.

- ما ذلك التفكير المسبق؟

- إن آراءه بغض النظر عن ظلمها للنسـاء، تكـرس النظام الأبوي الذي دجج الإنسانية بالدم والظلـم منـذ آلاف السنين.

- أتفضلين النظام الأمومي المتسق مـع الطبيعـة ولا يسعى إلى تجاوزها إلى آفاق عقلية وروحية؟

-بالطبع لا .. أطمح في نظام إنساني أكثر عدالة يحوي الأمومي والأبوي دون قهر طرف لحسـاب طـرف آخـر، عندئذ ستتغير المفاهيم ،وتنفجر اللغة.

- تنفجر اللغة؟!

- نعم، ستنفجر لا محالة وإن مرت المئات من السنين، تغير الأفكار يصحبه تغير في اللغة.

أتعرف يا عادل أنني مرة نظرت عبر أسوار السـجن، وجدت العالم كله بالخارج مسجونا،وأنا أطل عليه، سـاعتئذ شعرت أنني حر.

**قبل بضعة أمتار من الكتيبة، فكر رشيد أنه يتعـين عليه حمل عادل .. من صدمة ظل في وضع الراكع دقـائق بدت دهرا، جحظت عيناه، وغرقت روحه في مستنقع مـن الضباب الثلجي ، تراخت عضلاته،واجتاح خلاياه إعصـار قارس من الفزع.

كان عادل بلا رأس.

كانا من بعيد مثل بقعتين متحركتين في الصحراء.. الآن تكلسا كصخر جيري.

ومن الآن وحتى نهاية حياته، سـوف تفتقـر حركـات جسده للتناسق، لتصبح خرقاء ، فوضـوية عصـبية، غيـر منضبطة، شفي ذراعه الأيسر إلا أن ريقه كان على الـدوام جافا، إن أمسك سلاحا ارتعشت يداه وركبتاه ينظر إلى امتداد الخلاء ، لا يجد سوى الرمال والسماء، قوس مـنحن أبـدا جاثماً ، متجهماً، قاس، عنجهي، لامبال، يود لـو هـرب: " اهرب من الصحراء، ستجد الصحراء تحيطني"، يخطر لـه

قول مصطفى: أغمض عينيك، ضع كفيك عليهما وانظر في الظلام، احصر فكرك في نقطة وهمية انظر منها إلى شـباك داخل رأسك، عاين الأمر كأن ما حدث فيلم لممثلين غيرك".

يصرخ رشيد داخله: " عندما أنظر للشباك لا أجد سوى القضبان، الطبيعة مهتاجـة، أعاصـير وأمطـار مـدرارة وأغصان تتكسر، حرائق في الحقول".

يحادث نفسه: " اهدأ.. ولتنظر إلى الخلاء، إلى الصمت المتبتل".

"ليست الصحراء ظبية ألوفا، فما هي سوى فـراغ فـي فراغ ، خواء قاحل، وحشة في وحشة، لا عجـب أن مـلأ الصحراويون نفوسهم وحكاياتهم وأشعارهم بحكايات الجـن والعفاريت.. أن يكسروا حدة اللامبالاة المهينة للطبيعـة.. لا بد أن ينشغلوا عنها".

" إنها جديرة بالحكمة والتواضع والكبرياء.. اهدأ.. ادع الله".

"إنني كلما دعوت الله أن يدرأ عني الخـوف والخطـر والعدو.. أزداد رعبا".

"إنك لم تثق بنفسك ولم تثق به.. إنك تطلق فقاعات من الأحكام".

"ألا تنتبهي يا نفسي إلى أنه يجب أن أهدئ من هيجـان خوفي أولا؟".

" الحقيقة .. م .. أ".

" الحقيقة مستقلة بعيدا عن أذهاننا، أما الـوهم فيقتـات على سذاجتنا.. سذاجة الإنسان".

يناديه أحد الزملاء فيرد متهتها لفترة طويلة، لا تلبث أن تختفي حدتها كلما أمضى وقتا مع الشخص نفسه.. ويفضـل الصمت حتى عاد إلى القاهرة.

** مدمرا يتهاوى عقله، عاد رشيد ، انـزوي مـؤثرا الصمت ولا سواه محدقا في الفراغ دونما تركيز على شيء، لم يطلب المعونة من مصطفى أو غيره، لـيس لثقتـه بأنـه سيتجاوزها وحده، وإنما لأن رغبة في الخروج من حالته لم تتبلور بعد، كأنما استهوته، يتلذذ بها، أو ليرى نهاية شـوط الألم، فألمه الآن ساكن لا حراك فيه، وفزعـه يكمـن فـي جيشان الألم والحزن والخوف.. حينئذ يذرع غرفتـه دونمـا

توقف، كل أعضاء جسمه ترغب بالمشاركة فـي سـورته، ذراعاه تتطوحان، يكاد يدك رأسه بالحائط،يقرض أظافره.

حاول أن يعود لممارسة اليوجا، لكن ما مـن مخـرج. ويرى أن اليوجا تزيد الأصحاء صحة، إنها تحسن ولا تعالج ، ليست لشفاء جرح عميق.. جـرب ولا فائـدة، يعتقـد أن انزياح الغمة الكابية لن يكون " إلا بعد تنفيس غضـبي فـي محله، أن أسيء لمن أساء لي، أنتهك من انتهكني".

يطوح السكين في الهواء، والشمس دافقة بـاهرة مـن خصاص الشباك، فتنعكس التماعات ألوان عدة، أو تتنـاثر في الغرفة ندف من اللون الذهبي." حذار.. السلاح يطـول.. أبعده ف يغمده" ، يقول لنفسه، لكن متعة رشيد باتت بقرية.

حاول أن يعود إلى أصدقائه وصديقاته فاصـطدم بهـم جميعا، حائرا يحادث نفسه أثنـاء رضـائه عمـا يعتقـدهن "فتياته" : " عاجز أنا عن تقبل عطاء يمنى وشهيرة ومنـى، إنه يخنقني . وعاجز أيضا عن إرضائهن.. عطاء ميـت لا محالة، ذلك الذي يخفق في الإرسال أو الاسـتقبال.. عطـاء مميت".

ليحظى بهدوء وسلام.. أغمض عينيـه مـع تمرينـات التأمل ليصفو ذهنه وترتخي عضلاته وأعضاؤه، تتركز طاقة سلام داخله، وترحل الأفكار السلبية، وتتخلله حزم من أشعة سلام، يغمض عينيه، يرى نفسه في جلسته المستريحة بزاوية قائمة كأنه في حجم النملة، بل نصف النملة، ثم يكبـر ليسـد فراغ الحجرة، ثم اصغر من نملة تغرقها قطرة ماء بلوريـة معلقة، تكبر لتكون بحجم قاعة المؤتمرات، أصغر حد لنقطة، تقع نقطة ماء، ترتطم على راحة يده لتشـكل تاجـا ملكيـا، وتكبر لتفترش سماء القاهرة، قارة إفريقيا كلها: " ألبث فـي لحظة تتعدى الزمن والفضاء"، تتسع النقطة لتغطي الفضاء:" الفضاء " إن نفسي طاقة سلام" ، تجمع قطرة المـاء كنـذير بطوفان: " غني أعطي من سلام روحي إلى الكون" ، يتردد الصدى ، الكون، الكون، الكون.. إن فتح عينيه قد يجد نفسه معلقا بين المساء والأرض، فوق سحابة تدفعها ريح لطيفة.

تبا لليوجا.. أم تبا لنفسي القلقة؟

في سورة غضبه يقرر أن هاتـه النسـوة مرعبـات، متمركزات حول أنفسهن ومتعهن، وانتقامهن غير المباشـر من الرجال، إلاههم في الحياة" تنتـالوس" ، يغـوين دونمـا

إعطاء ،دونما منح :" لم تمن عل يمنى بأن أقبلها في شفتيها، تفضل أن يأكلهما الدود من تبتل مزعوم.. هه!!! صعرت لي خدها حينما وددت تقبيل فمها".

أسبوعان من أحلام اليقظة المنسابة بلا بتر أو انقطـاع، مكوما على نفسه كجنين، " يضرب اليوجي عدوه ويظل قلبه يدق عدة دقائق أن يعود لصلاته، أما الساموراي فيغمد سيفه في قلب عدوه ويعود فورا لتعبـده دونمـا خفقـة تزيـد أو تنقص .. ويتغنى الساموراي بأنه ساموراي حق لأنه يحمـل من دماء أسلافه دم زنجي .. أما أنـا المصـري كـم مـن السلالات اجتمعت في دمي!".

ارتكن على أربعته، وحبا كوليد في شـهوره الأولـى، تنفس عميقا،وقف باعد ما بين ساقيه، رفع ذراعـه عاليـا، يشرع في الدوران الرشيق على المسرح.

جلس رشيد كمن يقرأ التشهد، عري نصـفه الأعلـى، محكما رباطا حول ركبتيه المثنيتين: " لا بد أن أؤدب العالم" وطعنة تمزق الحشا.. طعن جانبه الأيسر في كليته ذاكرا اسم أبيه وأمه، مرر سكين جده دون أن تخرج من بطنه ونطـق في عقله اسم يمنى وشهيرة ومني ، إلى الجانب الأيمـن ثـم

رأسيا – متصورا المعلم وزملاءه بالمدرسة والجامعة- إلـى الجانب الأيسر مرة أخرى.

استلقى وجه رشيد وملامحه تفح بالألم علـى الأرض، في وضع ساجد يصلي. لولا نافورة الدم الكتيمـة تتـدفق.. داعيا أن تأتي أمه وتضمه إلى صـدرها، أن تسـبل جفنيـه بأناملها، أن تغلق فمه.. وأن تبكيه صويحباته، أن ينـال مـا يريد لينطلق مشبعا إلى حد ما بأطيافهن الحنينية.

الفصل الخامس

" يمنى "

- ١ -

في عجلة من أمري، دفعت تـذكرة المتـرو الممغنطة في محطة " جمال عبد الناصر" ، وأهرع بالصعود قفزا على السلالم، فاصدم قماش دون كعب، شعرت بألم فنظرت، لم أر شـيئا سـوى أحمر الأظافر القاني، مشيت بضع خطوات لأصـعد سـلالم أخرى إلى خارج المحطة، تبقع الصندل القماش بدم أحمر، لا بد أن أقابل أصدقائي " شهيرة" المدللة، و "منى" المهووسـة، ويسرا ،ونور الدين، وصديق لهم كنت قد قابلته مرة اسـمه رشيد.. وذلك بعد أن أسلم أوراقي لعملي الجديد.

جثا رشيد على ركبتيه ليرى مدى الإصابة، وطهرها.

-هل تنصح بخلع الظفر كما نصحني طبيب العمل؟

-من الأفضل ألا تقدمين على ذلك، قد يتشـوه ظفـرك مثل هذا.

وأراني إصبعه المشوه، ولف إصبعي بالشـاش بحنـان بالغ.. كنت جالسة على كنبة، فتنبهت لأول مرة في حيـاتي إلى جمال ساقي في عيني وربما عينيه..وشـعرت بغرابـة نفسي منذ مدة طويلة، أنا أضع أحمر الشفاه وطلاء الأظـافر لتبدو أنوثتي، بينما كنت قبل نحو عشرين عاما أصدر أوامر صارمة لفتيات التنظيم الطلابي الماركسي بعدم التزين مطلقا والاستعداد بدنيا ونفسيا لأية حياة شاقة قد تواجهنا.

-أتذكر أنك عضو في حزب يساري.

لا .. يجب أن أظل خارج الأحزاب ، لتكـون رؤيتـي موضوعية.

كلما كثرت الكذبات كثر النسيان، نسي أنه قبل عـام – أي قبل اعتقاله – ذكر لي أنه عضو حزبي.. لِم يكذب؟

في الحلم رأيته يجثو على ركبتيه ليربط لي رباط حذاء أسود رجالي .

بعد ثلاث قصص حب فاشلة، وزواج فاشـل، وأمومـة خنقت، ومراقبة وترقب خطوات صياد متمرس، هذا بـالطبع فضلا عن الانهيار المهين لحلم مثالي بعالم مترع بالعدل.. لا يكفيني معاش والدي ، هذا الأمر الذي لم يرغب فيه البتة في أن أرثه على هذا النحو، بعدما وزع ثروته الصغيرة علـى إخوتي جميعهم فيما عداي.

وزع المال والشقق، وحينما قلت له إنني بحاجـة إلـى شقة، قال : أنت مطلقة وفعلت كل خطوات حيـاتي رغمـا عني، فلم تتطلعين إلى مال منى أو حماية.

قضيت عدة سنوات بعد موته أسـكن البنسـيونات، أو مشاركة في شقة صديقة أو أخرى – هذه التجربة التي انتهت بمرارة فاقعة – فغادرت الشقة وخسرت الصـداقة، وضـيفة أحيانا على أختي البيضاء، أنثوية الشكل، وأخيراً طلبت أمي بعد أن سافر أخي الأصغر أن أعود إلى البيت، كانت فتـرة اطمئنان كالأنفاس قصيرة، إذ كنت أعمل مترجمة بالقطعـة حيث إن تعالي نفسي حرمني من أن أستقر بأيـة مؤسسـة

وظيفية كانت أو زوجية أو حتى شلة.. ومرضت أمي، ومـا إن توفيت حتى عاد أخي وطردني من الشقة،وكان لا بد من أن أتخلص من ضعف الأنا الذي يلازمنـي منـذ منتصـف السبعينيات، فحاربت وارتكنت إلى الشرطة والـي محـامي، والي حقي.. وانتهى الأمر بأن قسمت الشقة بيننا.

أخي الأصغر هذا، أتذكر جيدا مناقشة حامية بين والدي عن تسميته أثناء حمل أمي،ولما كانت قـد ولـدت بنتـين، اعتقدت أن الحظ لن يواتيها أبدا، فتدللت على أبي متوجسـة بأنها اختارت – للي في بطنها – اسما فرعونيا جميلا مثل : ميريت ، نفر ، تي أوتيتي –شيري.

-أتتوقعينها أنثى أيضا.

- لا أتوقع شيئا، ولكن دع لي اسم البنـت ولـك اسـم الولد.

-حتى لو جاءت بنتا فلن تسمي اسم فرعونيا.

تكامشت أمي،وهي لا تنسى معركة اسمي، ردت وهـي في وضع التقهقر: فقط لهذه الأسماء جرس جميل.

-دينيا في التسمي بأسماء فرعونية كراهة.

-كيف و " موسى " نفسه اسم فرعوني .

-موسى؟!إنه نبي.

همست لنفسها : لكن يبقى الاسـم فـألاً، رددت كـيلا تنسى: وتعويذة أيضا.

عين والدي في البعثـة الدبلوماسـية المصـرية لـدى السعودية في بداية عام ١٩٤٥ .. يتذكر والدي ذلك دائما بأنه ترافق مع زيارة الملك فاروق للسعودية، بعد أن وافق الملك عبد العزيز على بروتوكول الجامعة العربية، موافقة جـاءت إثر التوصل إلى صياغة تتماشى من وجهة نظره مع الواقـع العربي.. حتى ذلك الوقت لم يكن والدي قد رزقا بأي طفـل رغم مرور خمس سنوات على زواجهما ،ووالـدي المتـيم بجمال أمي التركي – بيضاء وريانة – ما فكر في تطليقهـا، فقد تجر بحظها مع رجل آخر،وهذا ما كان أبي يكرهه جداً.. ووالدي قاتم السمرة تمنى أن تكون أرض الحجاز بشيرا له، وتتويجا لرحلة علاج أمي،وفي العام التالي أنجبا "عايدة" وهي شديدة الشبه بأمي، بأنوثتها وبشـرتها الورديـة وملامحهـا الجسدية المنحوتة كتمثال إغريقي لإلاهة الصيد " ديانا".

في السنين التي قضاها والدي بالسعودية، بدا أنه وجـد لقيته الروحية والنفسية، فكان يحج كل سنة، ازداد ثقة بنفسه

حتى في علاقته مع والدتي التي – وهو أمر غير خـاف – كانت تتيه بجمالها عليه مقابل دكنته الكابية، وبعائلتهـا ذات الجذور التركية والشامية مقابل صعيديته ،وذلك في معركـة كتيمة لتحافظ أمي على مكاسبها في العلاقة، وتحسبا مـن أن تسحب من تحت قدميها سجادة تشعرها ببعض السيادة، أمـا أبي فكان يفرض غيرته الشديدة عليها – مع أن أمي لم تـر رجالا غرباء قط طوال إقامتها بالسعودية – وان ينصب نفسه وبشكل مطلق ونهائي، السيد الأوحد للبيت دونما مشاركة أو نزاع.. هذا ما أفضت لي به أمي دون الدخول في تفاصـيل تعمل كقناع يحجب اللعبة التي تمور في أعماقهما.

غضبت أمي وألحت كي تعود إلى أسرتها، وأنجبتنـي بالقاهرة وأسمتني " يسرا" وتدخل أهلها لمساومة والدي على تطليقها.. لكنه لم يعد للقاهرة إلا في بدايات عـام ١٩٥٤ ، عندما أتممت من عمري سنتين ،ولا تزال موسيقى اسم يسرا تسري في أذني.. عاد أبي وبقوة وبلحية قصـيرة لاسـتعادة مكانته، وكخطوة أولى من وجهة نظره أن ذهب لتغير اسمي في شهادة الميلاد إلى " يمنى " .. وأن يستغرق في قـراءة الصحف لمتابعة زيارة الملك " سعود" للقاهرة، فهو لا ينسى

عمله، وكان بقلبه مع الرئيس " محمد نجيب" الـذي جوبـه بمعارضة قوية من أعضاء مجلس قيادة الثـورة.. واطمـأن قلبه لان الملك سعود أرجأ سفره لبذل كما يسمى – مسـاعي حميدة –لإنهاء الخلاف.

وإن أذعنت أمي لاسمي الجديد، فإنها قررت ألا تعـود معه إلى السعودية، لأنها تحس هناك بالوحدة الشديدة وهي لا تستغني عن أسرتها وأصدقائها.. عاد والدي بعد أيام قليلة من إعلان جمال عبد الناصر رئيسا لمصر.. كانت نقطة افتراق إذن بين الصحاب السابقين ولم تفلح جهود الملك سعود.

** ها أنا الآن أعيش في شقة والدي،والوحيـدة التـي تقبض معاشه لأني الوحيدة من أبنائه التي تنطبق على شروط صرف المعاش دونا عن إخوتي المستقرين فـي أعمـالهم.. وأوافق على بعض الأحيان على تصوير مشاهد سينمائية في شقتي باعتبارها نموذجا لبيت الطبقة الوسطى.. وطلبت منى جريدة عربية أراسلها أحيانا بعض الموضوعات والترجمات، القيام بتغطية مؤتمر عن حقوق الإنسان خصصت لـه عـدة جلسات عن حقوق المرأة في مصر.. وفي المـؤتمر رأيـت رشيداً وشهيرة التي قدمها إلى على أنها ناشطة فـي حقـوق

الإنسان، كان مزهوا بها،وللغرابة لم أقل له أنني فـي سـنها كنت زعيمة طلابية، كنت العقل المفكر لهم، لـم أقـل فلقـد قامت السنون وضعف نفسي ببرد ذلك النتوء من حياتي.

على أية حال فقد خففا كثيرا من رعبي من الاجتماعات ما يستدعيه ذهني من اجتماعاتنا السرية السابقة، سـاعداني كثيرا على أن أتجاهل الخوف من الاكتظاظ بالناس في مكان ضيق، وتراشق الآراء والآراء المضادة.. وأخبرني رشيد أنه مشارك في المؤتمر بورقة مع آخرين عن ختـان البنـات، قلت: دعني أقرأها، وقد أترجمها لمجلة متخصصة.

- لا .. صعب ، فالموضوع يشتمل على مصـطلحات متخصصة.

سكت ، أيضا، لـيس بالضـرورة أن أصـحح للنـاس أفكارهم عن إمكاناتي.. لكم تغيرت!

تقربت إليه، ذاك الفتى الوسيم، الكتوم، المتشرنق كمـن يخفي عارا أو جرحاً عميقاً : فيم يركز بحثك؟

- على إحساس الانتهاك لدى الأنثى الصغيرة.

لا بد أنني عدت للبيت بحبور نادر، إحساسـي أن ثمـة إعجاباً بيني وبين رشيد، قلت: إذن سأمني نفسي بنوم عميق

اليوم، فالأرق غدا مزمن رأيت أني أصوب بندقية على ولد، ثم رأيت عفريتا أسود اللـون يـرش شـيئا – كخـزعبلات السحرة. اشعر بالخوف، وأوقظ " على إدريس" وهـو قائـد طلابي وحبي الأول.. لأحتمي به،ولما لم أجد مفراً أمسـكت بيد العفريت ذي العينين الواضحتين للغاية.. مشينا في طريق به خضرة، أحادثه وأحاول إقناعه بشيء معـين. اسـتيقظت وساءلت نفسي : أيكون رشيد قد مس في مواطن ضـعف.. نعم، تلك الرغبة غير المحمية في أن أكون محط إعجاب وأنا أكبره كثيرا.

*** عدت بإجهاد ذهني من المؤتمر، وأعجب لحيوية وشعبية هـذه السـيدة، تعـرف الكثيـرين وتـتكلم بحـدة وعصبية،طوال الوقت تنفث دخان السجائر مـن منخريهـا، رغم رقة ملامح وجهها ولمعة عينيها الصغيرتين ترقد تحت عينيها سراديب السوداوية العميقة.. مع عزم وجرأة تجاوزت الذروة إلى حد التلاشي.. فإنها في كل الأحـوال ذات وجـه معبر، صادق، غير ممثلة،ومع ذلك أخشى سخريتها المبطنة والمريرة.

**لست أدري ما الذي ألم بي ذاك اليوم ، إذ انـدفعت أهاجم ازدواجية الرجـال،والمثقف تحديـداً، فهـو بـالطبع أسوأهم،وجهت غضبي على رشيد فقلت إنه مثلا يبحث عـن "سبوبة" وشهرة بطـرق القضـايا الرائجـة فـي السـوق الإعلامية،وأنه غير مقتنع نفسه بما يفعله، فما هي إلا تكئـة لسفريات ومناصب..إلخ.

لم يرد رشيد بل حاول تهدئتي.. وشعرت أن رد فعلـه غريب ولم أرتح له.

أحاول فهم نفسي، لِـم صـببت عليـه لعنتـي، أهـي صبيانية؟ .. بالطبع صبيانية وعدم نضج ، طيب.. لمـاذا ؟ أهو سلوك دفاعي، عندما أفتتن برجل، لا بد أن أكلـه وبـي يقين أني سأكتشف مدى تفاهته أو جموده أو قسوته ، فتتداوي نفسي من الافتتان، فأنا أراه بعين معجبة وذهني يبحث عـن نقائصه ولونه الرمادي، فأقتنع أنه لا منطق لانبهاري.

في اليوم التالي جاءني:

-أصحابك كثيرون!

-بعضهم صداقات من عمر.

-أرى أن مرونتك معهم زائدة.

نظرت إليه لأستفهم.

-أحسدك على فائض حيويتك وطاقتك..

وجز على أسنانه وهو ينطق الكلمة الأخيرة، ثم غمـز بعينه.

تساءل حالي..

- لا شيء شريف يفتت هذه الحيوية الزائدة إلا الزواج، فهو المتنفس الشرعي،وهو بحد ذاته لا يكفي، بالنسـبة لـك أنصحك بإنجاب أكبر عدد من الأطفال، المتـنفس الطبيعـي أشرف من المرونة الزائدة.

قال ذلك كله بهدوء.

بهت واستجمعت نفسي وبالهدوء عينه قلت:

-جميل، لعلك أحسست برد الاعتبار لذاتك.

ظللت حتى نهاية اليوم اللعين في اندهاش واضطراب.. ما هذه الألفاظ: شريف، متنفس شرعي، كيف يقـدم طالـب طب نفسي أي " تقاوي" دكتور على نسـف بديهيـة.. إلا إذا كان بغرض الانتقام وهذا مفهوم؟ واضح أنه على درجة من البساطة الذهنية، ألا يدرك ضرورة تفادي ألفـاظ الأحكـام القيمية، لأنها ألفاظ استخدمت دائما وأبداً للقمع، فضلا عـن

أنها ألفاظ نسبية تنطق لفرض معاني مطلقة لا يأتيها الباطل.. أو ليست مهمتهم تحرير المكبوتات، لا قمعهـا.. حتـى وإن تطلب الأمر ضبطاً وترشيدا، فجعبة اللغـة مليئـة بالألفـاظ الأهدأ وقعا ولا تبغي أبداً قهرا أو قمعا.

مالي وهذا التافه العدواني؟

وتعمدت تجاهله حتى نهاية المؤتمر.

في يوم لقائي بأصدقائي في المقهى.. وجدته بينهم، كان مقبلا على يحادثني بتفاهم ودفء، يعترف أنه منـذ عشـرة أشهر يمارس تمرينات روحية للتخاص مـن رغبتـه فـي الانتقام.. عاد كطفل وديع كما رأيته قبل مرات ويـوم داوي إصبعي لم يشف بعد.. قال إنه تناول دواء صباحا وهو يعلم أنه سيراني اليوم.

بعد يومين رأيته وشهيرة.. كان بريـا إلـى حـد مـا ومحبطاً.

كيف يعرف مواعيد لقائي مع أصدقائي، أهي مصـادفة أم يتقصد ذلك؟ وقررت بعد هجومه توسيع المسافة لأجعلهـا إلى حد ما رسمية، فأنا مشفقة عليه متفهمة أنه يمر بأزمة ما، غير أني أخاف انقلابه ، ورغبته الانتقامية تجرح مشاعري..

هل سأتحمل ارتداداته!.. غريب أن أجده ينتظرني عند نهاية سلم الجريدة،وكيف عرف ميعاد انصرافي؟ .. أخذ يحـدثني عن عزوبيته وأنه يأكل طعاما مـن السـوق،ويحدثني عـن شهيرة، قلت له: أنت عزها ، فقال: لا .. المهم موقفها هي.

عند ذهابي إلى بعض الندوات أجده جالسا ويحجز لـي كرسيا،وفي مرة تعمدت أن أجلـس إلـى جانـب صـديق، وظهرت شهيرة فحييتها وانصرفت جاء ورائي وسألني: لِـم انصرفت؟

ظهر بصحبة ثالثة" منى " تبدو أرق من شهيرة المدللة، كان سعيدا بوجود ثلاثتنا وسط الصحاب.. وبدا ضيق بـالغ في وجه شهيرة، وتململت في جلستها ثم همت بالانصـراف، طلبت منى أن أصحبها..قالت إن رشيد مثل الموج.. متقلب، يكذب كثيرا ويثير غيرتي بمني، وفي الوقت الذي قررت فيه الابتعاد عنه، يحاول مستميتا أن يحادثني فـي التليفـون وأن يراني ،ويظهر فجـأة اهتمامـا بموضـوعات تخصـني.. وتسألني: كيف تعرفين أنه يكذب؟

-عندما يطلق فتافيت كلام،ومخارج ألفاظه تكون غيـر واضحة، يأكل نصف الكلام ويمضغه متداخلا.

قالت يمنى لنفسها: لعب عيال، مالي وهؤلاء العيال.

وانتظرت" منى " في مرسى المراكب لمدة ساعة ، وبلغ بها حد الضيق والغضب مبلغه، لم تقلق أبدا أن رشيداً قد ألم به شيء عطله عنها، فهي تعرفه جيداً، مقبل حينمـا تـدبر، وحينما تقبل هي يفر بل ويعمد إلى مضايقتها ومحاسبتها على كل كلمة، يميل إلى الرومانسية، ويجنح في الوقت نفسه إلـى الغرابة.. خطر لمنى: " حقيقة أشك بقواه العقلية". تخشـبت انفعالات منى وجسدها، توقف ذهنها عن التفكير ، صاح بها مراكبي: ألن تركبي؟ سارت متخشبة إلى القـارب، جلسـت ساهمة غير شاخصة بنظرها لاي شيء بعينه، دار القـارب دورته ، سألها المراكبي: أترغبين في العودة أم أذهب إلـى أبعد؟.. لم ترد.. تنسم المساء ظلمته وانطلقت من فندق قريب ألعاب نارية، غطت المساء بنجوم تتساقط شهباً ترتد ترابـا، تنبهت منى، رغم جمال السماء النادر ساعتئذ.. قالت منـى: عد بي.

قفزت من المركب إلى المرسى، دس المراكبي في يدها ورقة، كمن تستيقظ من حلم غاضب، أسرعت في خطواتها،

نفخت كل الهواء الذي في صدرها في زفير طويل.. دسـت يدها في جيبها ، رفعتها .. كانت عشرين جنيها.

جرت عائدة إلى المرسى ، هيه.. أنت؟

- أنا.. ماذا ؟ نظر لها بابتسامة صفراء ظافرة.

-خذ.. ورمت الورقة المالية، طارت لتطفو على صفحة النهر، على المراكبي أن يسـابقها.. هازئـا يتمـتم: " إنهـا لساعتين.. إنها لساعتين!!".

في لحظات الصـفاء تـرى أن رشـيداً اختارهـا دون الأخريات، وأنه شد وثاقها إلى أعمدة سرير نحاسي .. لتبدو أنها نجمة بحر لمن ينظر من عل.

في جلسة جمعت الصويحبات الثلاث حول عـدد مـن كؤوس البيرة، قالت منى: أعتقد أنـه قضـيب رداري ، لا أدري على أينا سيحط.

ردت شهيرة لها: سافري خلف الوجه الجميـل وقامـة الجسد السمهري. عقت منى هازئة: كيف؟

وكأنها لم تسمع شيئا. واصلت شهيرة : لبضع مئات من سنين ضوئية .. ستصلين حتما إلى طفلة عطنة، لكن حـذار

أن تنزلق قدماك وتنبطحي على وجهك ، إذ تعوق حركتـك لزوجة قلبه الدامس.

تحسست يمنى أصبح قدمها وقد زال الظفر المصاب من تلقاء نفسه بعد نمو ظفر جديد، صغيرتين !! تقول لهما: إنـه مسكين، به توق إلى أن يكون محبوبا، وهذا حقـه،ولكن مـا يحنق كليكما أنه يبحث عن الدهاليز والطرق الخلفية لقـوانين الحب، يتحايل عليها.. يحوم ليستفيد من مشاعركما تجاهـه، يهتم جداً بتصريح الطرف الآخر له بإعجابه فـي أي شـكل كان.. هذا ما يرجوه بالدرجة الأولى.. وقد يـأتي بـالأخير الجانب الحسي.

ردت منى : غريبة.. إنه قال إنك تكنين نحـوه بغضـا مضمرا.

-ليس صحيحا وإن كان أحيانا ما تُرى الضغينة أوضح بكثير من المحبة.

ثم نظرت يمنى منتشية إلى الكؤوس : لم لا تصبح حياة المرء كرغاوي البيرة الطافية من الكـأس، تتـدلى أذرعـاً باسترخاء إلى المنضدة، منطلقة، من الظلم أن نحـبس فـي

الكأس شرابا متماسكا، التضحية أو الشجاعة أن نُمسخ!!هه.. أم نتحول !!هه.. ننفلت من عقال المادة/ الجسد.

أردفت منى: مثل عروس البحر في قصص "هانز كريستان أندرسون" التي دفعت ثمن إخفاقها في لفت أنظار حبيبها، بعد أن حولتها الساحرة إلى فتاة خرساء.

أضافت شهيرة: فكان نصيبها أن تتحول إلى زبد سرمدي على الشاطئ الذي يطل عليه حبيبها، وأفلتت من حناق مادتها/ بدنها وإن أخفقت.

-٢-

قالت صافيا: هي برقية بالحضور الفوري من شربين.

سأل حسن: ممن؟

-رابحة وزوجها" بهجت الأبلق".. أتذكرهما؟

-على نحو طفيف، ألم يقيما في قرية السرو؟

بعد وفاة صافيا الجدة فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، أشاعت العجائز من صويحباتها أن صافيا – وقد تناسين للتو ما أطلق عليها من اسم قطبي " حنينة" هي ابنة رئيس قبيلة

حبشية، اختطفت واشتراها المرحوم زوجها وعلمهـا اللغـة العربية والإسلام وأعتقها، وأصبحت صافيا امـرأة قانتـة، محبة للخير والناس، تصوم النهار وتقوم الليل،ويلهج لسـانها بالدعوى إلى الله، وبعض من الآيات الكريمة – وهو ما كان صحيحا – فكانت أن أرسلت لقبيلتهـا الحبشـية أن أسـلموا ودخلوا في دين الله.

عند وفاتها لم يكن معها من أحفادهـا غيـر " رابحـة" وعريسها بهجت الأبلق، ومضت أربع سنوات قبل أن يهجرا وطفلتيهما البيت تماما.. في حرب ١٩٥٦ حدث مـا يمـلأ روعيهما بالبركة والرهبة معا، حيث قال أحد فلاحي السنانية إنه بعد صلاة الفجر اتجه إلى الغيط،وكانت الطـائرات تئـز فوق المدينة وتسقط قاذفاتهـا.. وحـدث أن رأى صـافيا " المتوفاة" تطلع من سطح بيتها في صعود إلى السماء، وفـي منتصف المسافة بينهما تلقت " دانة" زنتها ألف رطل في لفاع طرحتها البيضاء،وهي تقول بلهجتها ذات اللكنـة: " ينصـر عبد الناصر على من يعاديه" ،وبينما يشـكك أحـد تلاميـذ المدارس في تلك الرواية التي تم تناقلها بسرعة البرق، جرت النسوة والأولاد إلى أحد الغيطان وحيث كان خبير المفرقعات

وعدد من العساكر يحاولون إبطال مفعول دانة استقرت فـي غيط وأحدثت به حفرة عمقها نصف المتر.

تضيف صافيا لحسن: منذ غادرا بيت صـافيا الجـدة، وهما وأبناؤهما في حالة تنقل دائم، يتندران بأنها بركة ولعنة صافيا، فما أن يطيب الرزق في " ميت الخولي عبد الله" حتى يوسع عمله في" الزرقا" ثم " فارسكور" ،وعلي ما يبدو أنهـم قد استقروا في شربين.

-أولهما ذكور؟

-نعم.. ولدان تءم بعد أربع بنات.

- لا تتغيبي كثيرا عندهم، المكتب بحاجة إليـك أثنـاء سفري لفحوصات القلب في لندن.

- لن أتأخر.

يطفو خيال وذاكرة صافيا الاجترارية أثناء قيادة سيارتها إلى شربين، تمسك بالملاءة اللف لأمها، جدتها قادمـة مـن نهاية الطريق، تتأرجح في مشيتها مثل بطة سمينة.. تواجـه ملاءتا اللف بعضهما.. تتعاتبان.. لتتحرر من الزنقـة التـي زجتها إليها بنتها، قالت الجدة: " قلت ما قلـت.. هـو أنـا توضأت باللبن؟".

لا يبدو الاقتناع على وجه الأم.

تواصل الجدة: " أهو كله سلف وديـن، بكـره صـافيا تلومك".

تتخاصم الأم والجدة.. لكن صافيا تهرع إلى بيت جدتها، تشب على أطراف قامتها القصيرة لتطول تقفيصـة الخبـز البيتي المفقع، المعلق على الحائط، تكبر وتطـول أصـابعها التقفيصة.. حينئذ لم تكن تعرف أن الجد البعيد كان قفاصا.

- أين كنت؟

- عند جدتي.

-لِم ذهبت؟

-اسمعي يا أمي و أنا لست طرفا في خصامكما.

تسكت الأم.

فجأة رأت على يسار الطريق حيث اتجاه سيارتها امرأة نوبية راكعة على قدميها،وبذراعها اليسرى تحتضـن وليـدا يرضع من ثديها البارز.. " هكذا دون حياء على الطريـق العام!!".. وتمسك بيمناها قربة متدلية بين قوائم ثلاثية، تقوم بحركة رتيبة بخضها.. على ما يبدو لصنع الزبد من اللـبن. أغمضت صافيا عينيها وفتحتهما عن آخرهما غير مصدقة..

إنها المرأة نفسها ذات الجدائل الرفيعة السوداء التـي تتـدلي على كتفيها.. فحازت السيدة المرضعة ودخلـت إلـى نهـر الطريق.. وبعد عدة أمتار أحست بالريبة فيما رأت، فعـادت بالسيارة إلى الوراء،ولدهشتها وجدت أن انجرافا حدث فـي تلك البقعة، بدا كانهيال تربة طينية إلى الترعة،ولم تجد المرأة ،بعد عودتها حكت لواطفة ولم تصرح بمـا فهمتـه، حتـى نطقتها واطفة: " ألا تعرفين أن صافيا حمتك من أن تنغـرز سيارتك أو تنزلق في الترعة".

كم هو شرير العالم بالخارج، كم هم ذئـاب الرجـال.. جملتان أثيرتان لدى عائلة الأبلق.. بلغـت كبـرى البنـات الثلاثين دون زواج، فأعربت " فاطمة" وتدليلها " أوطش" عن تمردهن على نحو فوق طاقتها وطاقة الأسرة. بعـد رحلـة صعبة أخفقت فاطمة في التعليم، فاسـتقرت بالبيـت دون أن تحظى حتى بإكمال المرحلة الابتدائية، صموت في الغالـب، محدقة، شاخصة إلى أشياء وأشكال داخل عقلها هي فقط، لا تحبذ التحاور،وإن أرادت شيئا تشير إليه كان الكلام يسـتهلك طاقتها المحدودة وسني عمرها الخمسة والعشرين.

تعاني فاطمة من فتى جميل، يأتيها في نومها، يهصرها هصرا، استمتعت ثم خافت، أكثرت من الصوم والصلاة – بطريقتها الصامتة- فهزلت وشحبت..

وأوطش يستغرقها التحديق في صور الرجال الوسام والنساء الجميلات، تمر أصابعها على ملامحهم على الورق فتستحيل تحت لمس أناملها إلى بشرة حية، تتأوه.

أفرط الفتى الجميل في الإتيان إليها.. برزت عظامها من شدة ما أصبحت عليه من نحافة.. ضغطت عليها أمها لتتكلم ، فهي تعرف خلافا للمحيطين بها أن فاطمة ليست محدودة الذكاء، بالرغم ممن ندرة تواصلها مع الآخرين.

صرخت رابحة: جني يضاجعك!!

أسرعت وبسرية في استدعاء الداية التي مدت إصبعها، فتألمت فاطمة. قالت للأم مبتسمة: لا تخافي الطبق سليم.

- هو إذن مس شيطاني.

اصطحبتها ، تخضع لعلاج بالقرآن تحت رعاية شيخ شاب وسيم، تعلقت به الفتاة في خيالها.. فجاءها في الأحلام ليلاً أو في القيلولة.

قالت صافيا: زوجوها أو اشغلوها.

ردت رابحة: ألقينا عليها كل عبء عمل المنـزل ولـم ينفع.

-ستقيم عندي حتى تنتهي من علاج طبيب متخصص.

- لا نرتاح لذاك، فالبنات يخـرجن إمـا بصـحبتي أو بصحبة والدهم أو أخويهما الصغيرين.

- لا داع للقلق، سأخاف عليها بالضبط مثلما تخـافين.. وسأرعاها.

أخذتها صافيا إلى مصنع للتريكو قرب البيت بالقـاهرة، أفصحت فاطمة عن رغبتها في أن تتعلم على آلـة التريكـو لصنع البلوفرات..خرجت معها صافيا لتوصيلها إلى المصنع – بتدرج حسب رأى الطبيب – معدة إياها لتـذهب وحـدها للتدرب، خائفة وغير مستسلمة كانت خطوات فاطمة الأولـى وحدها في الشارع.. ثم اعتادت الأمـر واعتـاد زملاؤهـا ومدربتها صمتها ولعبها الخيالي مع آلة التريكو وتطريـزات تنحرف عما أملي عليها.

تغيرت المدربة رجل أرمل، أثـار اهتمامـه صـمت وانكسار فاطمة، احترق اشتهاء لهـا ولـم يسـتعر، تقـدم

للزواج.. كان عليها أن ترعاه وأولاده.. بذلك صافيا مجهود ليقبل والدها أن تتزوج الصغرى قبل ثلاث يكبرنها.

انقطع زائر الأحلام عن فاطمة.. لكن مهلا، كونت عادة جديدة بشراء صور وبطاقات المعايدة والمجلات التي تضـم ألوانا ومناظر جميلة، لم تعد تمـرر أناملهـا علـى بشـرة الصور.. انتقائية في الصور لتخلق بها مناظر درامية مثـل صورة " مارلين مونرو" تطل من شـرفة بـأعلى طوابـق ناصحة سحاب في تايمز ستريت في نيويـورك، تحتضـن سيجارة بين أصابعها، أو صورة " ميل جيبسـون" : عينـان زرقاوان ثبت بندولهما على الحزن الشفيف.

تشدها صور الناس في حالة غفـوة، تتمـاهى معهـم: صمت ، دعوة حنين ، شجن، تناغم محبوبين في الحلم، تنافر وهجران، أو تذكر رجفة الغلمة لقبلة اسـتجابة لإشـعاعات منطلقة من بدن المحبوب.

يتكثف صمت فاطمة واستغراقها في عالمهـا.. تشـكي زوجها، لكنها لا تهمل البيت أو الأولاد.. انغمس فـي عـالم المقاهي، وتركها لرحابة أو ضيق نفسها التـي لا يخترقهـا سوى أولاده حين تظهر لهم الصور وتضع أيديهم عليها، أو

تقربها من نـاظريهم.. لكـن الصـغار شـغوفون بصـور التليفزيون والإعلانات فقط.

لم تهتم فاطمة حقا بأن تدخل عالمها مريدا جديداً.. ولن تفارقه.

علقت صافيا فـي نفسـها: " زائـر أحـلام.. زائـر صورة؟!".. عائلة مجنونة.

واستدركت: وخشنة.. لا .. هـذا ظلـم، إنهـا عائلـة رؤيوية، لا تعاني سوى مـن بعـض الأوهـام، المخـاوف ،الهوس، الوسواس، الاكتئاب، البارانويا، ومـن اسـتغراق طفيف في ألذات.. ناهيك عـن الغيـرة والماديـة والبخـل والتسلط.

***

نصف اطمئنان، نصف إخلاص.. كـان تقيـيم حسـن لفحوصاته الطبية وعلاقته بزوجته.. انشغال تفكيرهـا عنـه نصف خيانة ، حتى وإن تعافت من هيستريا المشـي أثنـاء النوم.

في رحلة علاجـه الأخيـرة فـي واشـنطن صـحبته صافيا،وفي كل يوم يعاودها حلم ظهـور نـاموس مضـىء

متكاثر، تفزع منه وتصرخ، قبل أن يلسـعها. وبعـد نجـاح العملية الجراحية أظهر بعض التعافي فـي فتـرة نقاهتـه، وعادت صافيا إلى النوم بجانبه بعد خروجه من المستشفى.. عادت تدفن رأسها في كتفه حين تحتضن ظهره، يعتلي ساقها كفله، تنفس هادئ ، أمسك يدها المرتخية على صدره وقبلها. قررت صافيا حل تناقضاتها بإغفال أحد أطـراف نزاعهـا النفسي وتناومت على ترضية زائفة- كما ستكتشـف لاحقـا نامت.. ونام حسن عميقا.. وإلى الأبد.

تقول لأوهان: لست إلا أنثى العنكبوت الأسود.

-كفاك تقريعا للذات.

- أتعرف أني أكتب له خطابات أرجوه أن يرفع عنـي لعنته، أنا لم أخنه .

-بنت حلال.

-يعني؟

-أنت فعلا بنت أجدادك أيتها الملكة " تي".

- أتحاول أن تضحكني.

- بالطبع، هذا حقك، كان المرحوم مريضا.

-أستأذنك لحظة.

اتجهت صافيا إلى التليفون لتستأذن فـي التـأخر فـي العودة، تستأذن ممن؟ .. لقد مات سيدها.

أمسكت السماعة ودار بذهنها أنها أدرات الرقم بالفعـل وقالت ما تريده، وأنهت ما تريده.. أنها حادثت أوهان عـن ضرورة تزويجها من أحد إخوة زوجها، وتطلعت إليه، لكنها لا تذكر رد فعله.

عادت صافيا ولم تتحدث في التليفون، لكنها تنتظر رأى أوهان:

- ما رأيك؟

- فيم؟

-زواجي بأصغر إخوة زوجي؟

- ما هذا الهراء !!

- ألم أقل لك؟

- إنني أسمع هذا الكلام لأول مرة.

- أعرف مقصدهم،وهو السيطرة على أموالهم، لكن ما قصدك؟

- أماني وأمان البنات.

نظر إليها دهشا.

-اسمع يا أوهـان، تقـول إن مـوت زوجـي حـدث عرضي،وكذلك الأمان حدث عرضي، ففي الظروف المواتية المليئة بالوضوح والضوء والناس، تقع أكثر الجرائم شرا.

-الخوف وهم.

- والأمان كذلك ،نحن جالسان هنا وحمـاتي سـاخطة تقول إنني مختصة بالبكاري من الرجال، وزوجات أولادهـا تتفكك أوصالهن قلقا وتحفزا أن تقع القرعة علـى أي مـن أزواجهن ليتزوجني لحماية أموال العائلة.

- النصيحة..

- النصيحة.. النصيحة، إنها تبدو في غالـب الأحـوال مثل قذيفة صاروخية تسقط على رأس المرء ،وقد تنفجر بها لا يحمد عقباه، فعندما يلقي شخص بقفاز في وجهـك.. ارم هذا الأمر خلف ظهرك.. ما أسهل الكلمات.. وقد تمكنت منى المشكلة، كيف ألقيها خلف ظهري، ويقال لي: لا تخافي؟ ..ما أبرع تلك الكلمة!

- لا ، أنا أقول ليس هناك ما يسـتدعي الخـوف، مـا رأيك؟

- ذلك يحملني على التفكير في الأمر الذي أخاف منـه وهل يستحق !!

.. أعرف أنه في الغالب لا يستحق.. ومن ثم فـلا داع للخوف. أى أنني اراقب تقييم الأمر،وفي الوقت نفسه مـدى جدوى خوفي.

- ماذا فعلت مع المرشح للزواج؟

- جلسنا مرة في كازينو على شكل سفينة، يحتسي هـو الخمر، واحتسي أنا المحبة المتصاعدة بـين بحـار يونـاني يجاس إلى صديقته المصرية، جلسا إلى جانبي.. كانا يتكلمان عن أخرى،وأخو زوجي يتكلم، استغل مهارتي في الإنصات، في الشرود.. لقد رايتهما عاشقين، ليتني كنت مثلـه جوابـا للبحار والمواني.

ليتني كنتها عاشقة تنتظر أن ترسو سفينة بحارها.

رأيتهما في الملحق المواجه لبيت " ألفيس بريسلي" فـي ممفيس ، ممسكين بأيدي بعضهما.. امـرأة بشـعر رمـادي ورجل بشعر فضي.. تربت على يده حـين انسـابت أنغـام أغنيات " الروك آند رول" لبريسلي.. كان عصر شـبابهما،

عجوزان عاشقان، يا أوهان.. أتعرف!! ليتني كنت الـزوج المحب الدافئ، ليتني أكونها الزوجة المحبة الوفية.

- ماذا بعد؟

- عبر الشارع في مزرعة الخيول لبريسلي رأيت فرسا شهباء وحصانا أدهم.. أتعرف ، رميت عملات فضية للتمني في ماء النافورة المقابلة للجياد المرحة.

- ماذا تمنيت؟

- أن أكونهما ، الجواد والفرس معا.

- أعرف أن هناك من هو متيم بحبـك، ويراسـلك ولا تردين عليه.

اكتسى وجه صافيا حمرة وحيوية ، مشاعر ترغـب أن تهدر داخلها، لقد تركت اليوم على مكتبها الصفحة الأخيـرة من خطابه الأخير.

صافيا

قبل أن أغلق الخطاب، خفت من ندم روحي على أننـي لم اقل كل عذابات روحي لك، فقلت أقول ، ولتكن فضيلة أو فضيحة الروح حتى أخرها.

أتمنى أن أرى العالم كله، وأتعذب فيه، أتمنـى أن أرى الأزهار والبحار،وأرى الناس على حقيقتهم.. لا كما ظننت.

الواحد منا مثل زجاجة ماء تنتظر شاربها.. أنـا مثـل زجاجة الماء هذه..خذيني يا صافيا ، فالغادر هي أيامنا.

أتمنى أن أعيش ايامي خفيفا من أحمـالي، أتمنـى أن أرمي أحمالي كلها في البحر، أو في عين من أحـب، فـي عينيك، هل ستتحمل عينيك أحمالي!..

أخطط لأسفار بعيدة جدا حتى أتخلص من روحي تماما ومن عذابي.

شهاب

قال أوهان : إنه تفكير رعوي.

رعوي!! ماذا تعني؟

- أنك في تناقض هائل ، دائما ما تبحثين عن الأب في شكل كل علاقة على درجة من العمق بالرجـل، كـزوج أو صديق، ترفعينه على عـرش مـن صـنعك، عـرش الأب لتلتصقي به، وتستمدي منه الدفء والحماية والرعاية، تلـك هي الفكرة الرعوية، إعلاء ذكر ليكون رأس العائلة، ثم رأس القبيلة، منه تستمد كل المفاهيم والقرارات.. التي هي تعزيـز

إضافي لقوته، تنسين أنه لا الأب أو الراعي الأكبر يمكن أن يمنحك أمانا تفتقدينه داخلك، انزعـي قشـوراً عفنـة مـن الإحساس بالضعف، غامري فـي الحيـاة، خـذيها بقـوة.. ستجدين أن الأمان ينبع منك أنت" أنت من صنعت". شـاردة رددت : أنا من صنعت؟!

- فندي مقولات زوجك الراحل، لن ينبع أمان مـن أب أو بديل الأب.. وضحك: " أخاف أن تبدئي بـالتمرد علـي، وتقولين – على طريقتك – إنها فقاعات من الأحكام".

باسمة ردت : أفكر بالأمر فعلا.

نام الجميع وتنتظرها صغرى بناتها في الشباك. ذكرتها بأمها الراحلة أقبلت عليها مهللة: " اصطحبيني إلى السرير.. يا أمي" ، أرقدتها صافيا لكن فيض دموعها غمر وجهها مع ابتسامة للصغيرة، فقامت الطفلة وفردت طولها – الصغير – أيضا، احتضنت رأس أمها.

- اقرئي قرآناً يا أمي، قولي أدعية.

وهي تكفكف دمعها سألتها: كيف عرفت ذلـك.. فـي الحضانة؟

- لا ، من دادة خيرية، كلما يضايقها زوجها عم أحمـد الطباخ ويهددها بالطلاق، تدفن رأسها في حضني الصغير يا ماما، أو ترقدني على حجرها وتحتضنني بشدة وتبـدأ فـي قراءة القرآن حتى تتوقف دموعها.

- هما دائما ما يتصالحان، فلا تقلقي على دادة خيرية.

وهمست: " كم تتشابه النساء!".

إلى جانب الصغيرة.. قبيـل أن تثقـل أجفـان صـافيا بالنعاس، ابتسمت وقالت: " نعم، لتكن فضيلة – أو فضيحة – الروح حتى آخرها".

تفاجئ صافيا نفسها والعائلة بقوة غير متوقعة، متمرسة بالتفاوض التجاري، توزعت الثروة وحصلت علـى أعلـى المكاسب لبناتها،وأن يشاركن في ملكية العقارات والأطيان.. " لقد حافظت مع المرحوم على ثـروتكم، ولـي دور فـي تناميها، ولن أسمح بالأعراف الريفية المتداولة في الميـراث أن تؤذي بناتي، أو تنقص أموالهن مليما واحـدا.. فالقضـايا أحبالا طويلة قد تدوم أجيالا، ولا تنسوا أن أموالكم كلها باسم زوجي".

الفصل السادس

الأزرق

الخطوات نفسها إلى الأمام إلى الوراء نفسها.. الجدار نفسه على الجـانبين.. السـحلية تجلـس فـي حفرتهـا، والعنكبوت في السقف.. فلو أن السماء بدأت تمطر .. فإلى أين سيذهب الطائر؟!

من قصيدة " سذاجة" .. يانيس ريتسوس.

- ١ -

حسين

اشتعلت بزهور الجهنمية الحمراء في بداية يناير، وكانت الشجرة قبل سنين في الشهر نفسـه لا تزال جرداء مبتردة.. أسـتقبلها بعينـي عند انحدار الكوبري كانزلاق الفصول مثل طفل مبتسر. نسغها أكاد أسمعه.. رائحة لون أخضر يكافح للانبثـاق فـي الأغصان، يمتزج مع رائحة الغبار القاهري، يسكن التـراب الدقيقي شقوق تجزعات الأغصان وتغضنات الجذع.

* وإذا بي أرى بحرين أمواجهما سـوداء عاتيـة ضـاربة بعضها البعض، بصخب وموسيقى زاعقة. البحران يواجهان شقتي الواسعة من ناحيتين ويرسلان إليها بثعابين .. مهمتـي

احتواء الثعابين في صفائح والقضاء عليها.. يبدو أنني نجحت – في حلمي – إلى حد ما.. هدأ أحد البحرين ثم صـخب ، أتحرك داخل شقتي ، أرى تفاصيلها الدقيقة رغـم أنـي قـد أسملت عيني.. زوجتي تنظر من فرجة الشباك.. إلا تنظر؟

* في شارع جانبي، في شمس الظهيرة المبهرة، حاصـرني صبية، وجوههم وقحة، عيونهم بين نعاس وعدوان.. حلـوا أحزمتهم، أخرجوا مدياتهم، مددت يدي بحافظتي، انتزعـوا من جيبي أوراقا آسية.

كان وقاري عتيقاً يتأبى أن يلين.

لون الكدمة أزرق بدكنة بنفسجية.

* حكى لي صديق عن قرية رآها في نيجيريا طافيـة فـوق الماء.. إذ هاجمت قبيلة إحدى القرى وحرقت أكواخها عـن آخرها، وكل ينجو برمي جسده في الماء، فيما عـدا كهـل كليل، فجمعوا له جذوع وسيقان أشجار وربطوها إلى جانب بعضها ، كأنها مراكب متكاملة، فإذا بها طافية علـى المـاء مهما كانت الحمولة عليها.. فأقاموا قرية مكتفية فوق المـاء كجزر متناثرة،ولكن مكان صيده لا يتجاوزه.. ولا ينزلـون البر إلا لماما.

الأمان: أزرق مائي.
* قد أكون أخا أكبر لهم.. وربما والداً، فما الذي يدفعهم إلى السرقة؟!
.. ماريجوانا؟ بانجو! هرمونات تدفعهم للطـيش والمغـامرة والعدوانية!! طبيعة فاسدة! الفضول إلى ما في طبق الغيـر! هوة طبقية تتسع !!
قال أخي الذي أقعدته الحرب: دع عنك كـلا مـن التفكيـر العلمي أو العملي ، فلا نتيجة مؤكدة أو سبب مريح، " انشف ، اصلب طولك فأنت مترف" .
سألت زوجتي: أيقصد ذلك حقا؟
لوت عنقها ومطت شفتيها،نزعت الإيشـارب عـن رأسـها لينطرح شعرها المتموج على ظهرها. لا ، لا أظن.
* كانت أمي تجلس إلى الشباك ساعات طويلة تنتظر عـودة أولادها من غربة أو حرب.. ترف عينها لغمامة بين الأبيض والأسود تظلل السماء، تستبشر بأسراب طـائر" الغـر"، = نشطة باتجاه بحيرة المنزلة، تقول : "لم يخلـف موعـده،كم يحبه الأولاد طعاما،وأحبه أنا اجتماعا للعائلة حـول موقـد

الجمر.. نستدفئ ونقشر الفول السوداني والحكايات التي تحلو في عز شهر طوبة".

* في ظهيرة سكندرية لما كنا مخطوبين وضوء البحر يتسال مرتجفا على وجهها وكانت ابتسامتها غامضة:

- سأكون أم أولادك؟
- العالم ليس رحبا ليسع ابنا لي.. ما قولك؟
- أصدقاؤك سيصبحون أصدقائي وسيبادلوننا الزيارات.
- لا أصدقاء لي، أنت صديقتي.

تضحك زوجتي منتشية على اسم زهرة" حنك السبع" وتـرب الأقحوانات في تفتحها في الشـمس، بيضـاء ناصـعة،وفي الغروب حين تلملم أوراقها فتبدو في بنية " المارون" .. ترقد على العشب، مسوية رداءها، ليتحرك الهدهد بحرية دونمـا استشعار بنذير، يفرد تاجه ليطير أو يضـمه ليـدب علـى الأرض ينقب عن رزقـه بـين الأعشـاب.. وفـي ربيـع الإسكندرية، نجلس بالساعات خلف تمثال عـروس البحـر والأشرعة المنطلقة حيث زهور الزعفران الكأسية البيضـاء تسمق بجمال.

تقول " تودد" : انحن واستقبلها بوجهك، افتح مسامك بكاك.. ما رأيك؟

- عبق عذاب ناعم.

-كطرف أثير يودعنا قبل ترحاله.

تتدحرج الحلزونات عند سيقان الزعفران نحو التربة الرطبة في اتجاه البحر.

*قبل سنوات طويلة، ضرب اخي كفا بكف: " مراتي وابني.. مين يصرف عليهم دلوقت وأنا مش عارف هيسـمحوا لـي إمتى بالرجوع إلى لبنان بعدما اعتبروها من دول الرفض!!

قلت : أسافر أنا.

* على قارعة الطريق.. لابثا أنتظر .. أشخص ببصري إلى امتداد الطريق، أرى غمامة من رذاذ الماء العالق.. حفنة من المطر تسقط في يدي، أمشي صعدا لأحتمي بمـدخل منـزل أخي، الواقع على رابية، وحيث لا تزال زوجتـه ووليـده، يتنفسان نوماً دافئا، رياح تكنس حبات البرد في الهواء قبـل أن تنفجر مثل كيس ماء على الإسفلت، تنثال عليـه روائـح أشجار اللوز في صيدا، أسمع البحر مائجا، تـأخرت علـى سيارة النقل المغلقة. أسفلت نظيف يلمع، وكذلك الأسفلت في

بلادتي بعد توقف سيل مزاريب أسطح وشـرفات المنـازل، تاركة مساحة منذورة لروث الحمير والخيل، السماء غيـوم رمادية، أهفو إلى كسرة من زرقة بها.. هل سيمضي اليـوم بخير أم يخبئ في جعبته غارات إسرائيلية أخرى؟.. يفـزع الأطفال من انفجارات البرق التي يعتقدونها قنابل إسرائيلية.

لاحت السيارة، فخطوت إلى نهـر الطريـق ليرانـي السائق، ركن إلى جانب الطريق،ونزل.. فتح الباب الخلفـي لسيارة النقل وحثني على الإسراع لارتياد الطريق العسكري في هدأة الصباح حتى حوران في سوريا.

تكومت إلى جانب آخرين وزججت بنفسي حتى يتسـنى للسائق أن يغلق الباب ، لم يكن بمقدروي أن اقف أو أجلـس إلى جانب الأثاث، فاتخذت وضع الراكـع، العتمـة تحـوم والأنفاس ثقيلة ، لا تحتمل عيناي العتمى فأغلقتهمـا، علـى رأس الطريق يتقاضى المكرسون أنفسهم له" فردة" عبـور ، يقولون : " أبيع لك الطريق مدة ساعتين ، لن يظهـر فيـه شرطي لبناني أو سـوري أو مخـافر حـدود". . يرتـاده المهربون: مهربو المخدرات والأسلحة وكل شيء سـري.. يطلقون عليه تندرا الطريق العسكري.

أسمع طرطشة المياه، فلابد وأن السيارة تخـوض فـي حفر مياه صغيرة صنعتها الأمطار.. أعمل مخيلتي في تذكر النباتات والأزهار الجميلة وشذاها ، فلا أرى سـوى حسـك أصفر حافل بالأشواك.. ينطبع كعبا حـذائي علـى كفلـي، وتغور في جبهتي علامات انكفـاء وجهـي علـى كرسـي خشبي.. كلنا عمال مصريون نهرب للعمل في سوريا بعد أن أوقف الاجتياح الإسرائيلي للجنوب أعمالنا (أهرب من القلق والخشونة بالنوم، عندما يتعارك إخوتي بالسـكاكين تصـفية لحسابات مالية أو استئثار أحدهم بالضغينة الموزعـة بيـنهم أبداً.. أنتحي جانبا، لا أتدخل وأبتعد عن الفرجة لأن أبـي – فاقد الوقار – يتعارك معهم يدا بيد).

أما يدي فنحيلة بأصابع طويلة.. راحتها لم تعبأ بخشونة، أناملي غالبا ما تبدو مصبوغة بلون " الأسـتر والجمالاكـا" البني، مهارتي في العمل كإسترجي كانت أقوى من عملـي كنجار موبيليا أو أيمجي أو قشرجي أو منجـد أو مـذهباتي ولاكيه.. وعموما في دمياط يحترمون التخصصات.

ألوان الأثاث بدرجات تتراوح بين البني والأسود، ولما تكون غزالتي سارحة – كما تقول أمي – فإني أرسم بمزاج

طيـب الغـزلان المصـرية دقيقـة الحجـم تـرمح فـي الصحاري،وأرسم الزهور والطيور على الزجـاج وبعـض قطع الأثاث.. وأحيانا لا يحاكي رسمي الطبيعة وإنما توليفـة من أنواع مختلفة من الزهور والأطيار والحيوانات.. داعبت خيالي مرة صورة لا أتذكر أين رأيتها، ظللت ارسـم حتـى شعرت بالارتياح إلى أنها تشبه ما رايته من قبل، عصـفور بوجه امرأة كالجواري الحسان،والذنب زهرة قرنفـل يحـد أطراف وريقاتها خط وردي أغمق.. قالت صـافيا – أختـي الكبيرة : "لِم تخاف رسم المـرأة:؟"، وينظـر إخـوتي : " مخبول حتما.. لكنه جميل".

كنت أنام نهارا وأذاكر ليلا، أقول : " كل ما أسـتطيعه أبذله، فأنا أعمل صيفا وشهر رمضان كله، أعمل فـي ذروة مواسم الزيجات.. أتعلم مما تكسب يداي".

- لكنك لا تدفع لأبيك أسبوعيا بانتظام!

- أعطيه غالب أجري حين أعمل،ولا أتساوم معه مثلما تفعلون فينذركم بالطرد من البيت.

-كن خشنا، فالناس قد تصفعك على قفاك لأنك رقيق.

* أية طبيعة جميلة، أي ضياء.. هل ارتـدت للسـماء زرقتها. في الجامعة شبت مظاهرات ، تفرجت عليهم و قلبي معهم،وعدت لحجرتي في المدينة الجامعية.. وفي مساء اليوم نفسه، كانت ثمة اعتقالات، وزجوني معهم. من وشي بي؟ .. العربة مقبضة والحبس مقبض.

* سأل مسئول مصري أخي الذي أوشك على الحصول على الجنسية اللبنانية لطول إقامته بها.. هـل توافـق علـى زيارة السادات لإسرائيل؟..

رد من فوره: " موافق جداً، بس كـان يفضـل هنـاك عالطول".

وقال لي مهموما: " مرت شهور طويلة" وصـرح بمـا كان يعتبره سرا: " و أبوها لم يكن موافقا على زواجنا.

قلت : أسافر أنا.

* ثمة وهدات بالطريق.. تترجـرج السـيارة.. كلـس يتراكم على خيالي، كسرة من زرقة تبعـث اطمئنانـا فـي نفسي.. يمتد الطريق أمام عيني، براح مريح، أراني صغيرا بالشباك وأمي تلوح من نهاية الشارع التفـت بمـلاءة لـف

محبوكة.. تقبل وتحت البيشة الشفافة التـي تغطـي وجههـا قطرات لؤلؤية من عرق.

هي الآن تلبث في انتظار عودة أولادها من غربـة أو حرب، وقد طرحت ضفائر سوداء مفتولة بالبياض.

متى نصل إلى حوران؟

* بعد نحو السـاعة.. توقـف اضـطراري، صـرير اصطكاك العجلات رهيب،صوت إطـلاق نـار.. صـرخة مكتومة كاحتضارات البرق واستغاثة لينة، عيوننا تتجه إلـى الباب، نشعل الكبريت ونرنو إليه فنجده شاسـعا كالأسـئلة.. أسئلتنا جزعة جافلة.. من يهاجم ؟ ميليشيات مسيحية؟ حزب الله؟ أنطوان لحد؟ فلسطينيون؟ .. في لبنان أربع عشرة طائفة دينية .. أتكون دورية سورية؟ .. الإسرايليون؟ ألم تنحسـر قليلا ذروة اجتياحهم للجنوب.

زجوني وزملائي العشرة،كان السائق مضرجا بدمائه، ملقى على الطريق وبيده مسدسه.. وفي داخل سيارتهم ثمـة آخرون، شباب وكهول .. ركلونا،ودققوا السؤال بعدوانية، لم يكن مع أينا سلاح، حينئذ لم أكن خائفا أو آمنا، ثمـة غيمـة عريضة ممتدة وندف الثلج تسقط فوق رؤوسنا، في عيني بدا

الطريق خائرا. وتوقف الهطول، رشـات وداع مـن قطـر المطر على أوراق الشجر تعانق الذي يتلاشى رويدا ،رويدا.

** قالوا: جواز سفرك يقول إنك ذو تعليم عال،في حين تقول إنك " إسترجي".

- في بلادتنا، المتعلم لا تفارقه الدفرة والأزميل والمنشار أو قطنة الاستر. كان أغلـب المعتقلـين مـن الفلسـطينين واللبنانيين. بينهم يخفت قلقي، جريرتي؟ يعلو وجيب قلبـي.. يصفو ذهني على حنين يحـط فـي نفسـي إلـى الأزرق.. البحر .. السماء.

من بعيد أرى في البحر تدرجات ألوان ستة في عنـاق الأخضر والأزرق في الصباح .. موجات تعلق الشط بلـون الأبيض الملحي ،يليها فيروزي فاتح ثم أخضـر فـاتح ثـم فيروزي داكن، يليه أزرق لنبـي يتـداخل مـع الأخضـر الفسفوري اللامع كالفضة.

وفي العصاري قد تمر سـحابة فتشـق الألـوان فـي انتصاف لوحة الطبيعة المتقدة بالحياة- بوشيش عذب يصلني – بلون أزرق فاتح.

البحر ساج.. ثم تنداح السحابة لتلقي ظلالها على الشاطئ، تنحسب مفسحة للضوء الكثيف البارد لشمس ما بعد العصاري.

قبيل الغروب يستحيل إلى لونين فقط: أخضر غامق وأزرق غامق وبعيني لا أراه أبداً بلون الرماد الذي تهيله رطوبة الطبيعة وشمسها الجيرية اللافحة..

لكن ما لون الأعماق؟

أقترب من الساحل الشمالي ، فإذا هو بحر الدوامات التي أججتها حفر قنابل الحرب العالمية الثانية، وفي العميق أكاد أحس التيارات التحتية، تلف رأسي، فأسقط في نوم عميق.

صبيحة عيد الأضحى، سمحوا لنا بالصلاة في ساحة السجن.. تحوطنا الجنود الإسرائيليون من جميع الجهاد، كانت أسلحتهم تسترخي عندما نسجد، وحينما نستوي واقفين في تكبيرة عالية، يكون صوتنا هادرا.. تتصلب وجوههم ويشهرون أسلحتهم.. في هذه اللحظة كنت مغلفا بالأمان.

انزلق من حلقي سؤال: ما جريرتي؟

ابتسم كهل على اتساع فمه حتى انغلقت عينـاه مخلفـة تجاعيد بعرض جانبي وجهه،وسمعت مـن يقـول إن هـذا السؤال يفضي إلى الجنون.. يبدو الأمر عبثيا.. لكنا توقفنـا عن ذلك السؤال منذ سنين عددا، يا ولدي إن الهناءة والشقوة لا شأن لهما بالفضيلة أو الرزيلة.

هيئ لي أن ذلك ما قاله الكهل، وبزاوية ناظري وجدت أن الضحكة للكهل والكلمة لرجل اكتمل نضجه وبأسه قبـل كثير من بلوغه الأربعين " سليمان حبيبـي" ، ذلـك الـذي سترتبطني به صداقة أبدية.. عاشر الموت وحمـل الشـهداء ودفنهم، تعرض للموت مرات عديدة فـي قتـال الفـدائيين، وربما لذلك يحب الحياة،بل يشتهيها ، عشق امـرأة أجنبيـة، خلع عنه كل الأقنعة أمامها الإ جنسيته ، لم يقـل لهـا إنـه فلسطيني أو اسمه الحقيقي ذلك الأمر ليس ملكه وحده.. بـل الحركة النضالية المنتمي إليها.

رأيته شارداً.

- أتعرف أن ابتسامة عينيك تشبه تلك التي لوالدي؟!

أجبا متفكها: لابد أن جدع أناخ براحلته في بلادتكم فـي هجراته العديدة.

- تمزح!!

ربت بكفه كتفي .. سألته : فيم شرودك؟

- فيما وقعت عليه عينا المسيح في طفولتـه.. طبيعـة فلسطين.. أقصد هل رأى " جراح الحبيب؟

- ما جراح الحبيب؟

- إنها شقائق النعمان.. ثم تنهد: " أني لكل فلسطيني أن يذوق زهرة اللوتس، من خَبر مذاقها السحري يفقـد حنـين العودة للوطن كما تقول الأسطورة".

-تخفيف وطأة الحنين أو فقدانه لا يحـول دون سـعير عشق الوطن.

تساءلت : ترى ماذا يرى المسيح في الطبيعـة البريـة لفلسطين الآن؟!..

تلك التي لم يتسن لي أن أراها.. سمعتهم يقولـون إن نوافذ عمارات المستوطنات كطاقات مفتوحة، تذكرت علـى الفور طاقات قلعة " قايتباي" بالإسكندرية، تخرج وتصـوب منها أسلحة وقت اللزوم، العمارة: قلعة ثكنة عسكرية.. هكذا يفكر الإسرائيليون.

** سأقطع برفقتهم جزءاً من صحراء سيناء لتسـليمي إلى السلطات المصرية وفقا لاتفاقية السلام.

سيناء رمال صفر ، رمال نحاسية، شجرة مدفونة فـي تلك رملي حتى هامتها.. حنين يحـط فـي قلبـي، وعلـي خاصرة الوهج المتدلي لشمسنا، بقايا صدئة لدبابات العدو.

** في هنيهة هاربة، أسمع صوت حماة أخي.. لبنانية في رشاقة صبية، تضحك بصفاء، تحتسي فنـاجين القهـوة طوال اليوم، تدخن وتثرثر وتضـحك ، وتتـورد وجنتاهـا المفرودتان بلا تجاعيد كشابة ناضجة، استشـهد ابنهـا فـي إحدى غارات القصف الإسرائيلي، فوضـعت كالفلسـطينية صورته في قلب معلق بسلسلة علـى صـدرها.. وهجـرت زوجها لإصراره على زرع أرضهم بالخشخاش والذي كـان ممتنا للاحتلال الإسرائيلي الذي أفاده بإبعاد الفلسطينيين عـن أراضيه.

واصلت الحياة دونما اغتمام، إنهـن يجـاورن المـوت ويقتنصن من الحياة بهجتها.. حتى أفقرهن اللاتي يـزرعن الزنبق في عبوات الطعام الزجاجية ويقطفن علـى جـدران بيتها الواطئ.

قبل أن تبلغ الأربعين تدثرت أمـي بالسـواد.. الكآبـة والانكسار يعلوان بشرتها المترهلة، تشخص إلى الشارع لعل أحد أبنائها يأتيها ويوفر لها حماية من زوج فظ.

حينما أخرج إلى ورشة أخي ، يلفني هواء نقي، سـماء بديعة ، شمس غير واخزة، أشجار بخضرة يانعة، شذا يوسع رئتي واستنشاق عميق مهدئ .

وفي بلدتي أصحو على صوت عربـة حنطـور مـع ميكروفون ومن يعلن " توفي فلان الفلاني.. والتعزيـة فـي الشارع الفلاني".

أنطق: يا فتاح يا عليم.. صباح الوفيات.

لم تسكننا الكآبة والنزوع إلى الموت؟

** الشتاء في دمياط،موحل ، مثل أوحال تفكيـر هـو ضرب من الأماني، كأننا سنسابق الغرب تقدما، أو تحقيـق إنسانية وكرامة الفرد بالرغم من تركيبة المستبد الخانع فينا.

مثل أوحال مراودتي لنفسي على التورط فـي غمـار الحياة.. أية حياة! .. إن حياتي لا تعني لي شيئا ومن ثم فأنا لا أخاف الموت.. الحقيقة أني أخـاف الحيـاة.. وطأتهـا لا تحتمل.

" الشتي السني دي زي الرصـاص " جـرس اللهجـة الدمياطية العتيقة، منغمة في نهاية الكلمة بياء ممدودة أو هاء مكسورة.. تخرج من فم الإناث دلالا، فـي مطهـن لنهايـة الكلمة، لتصبح " منى " في لسان صويحباتها " مونيه" مـاذا أقول ؟ ! إنها لوغريتمات.. في فم الرجال لها فتوة موسيقى " القرب" وحار الناس في لهجتـي.. مـرة يسـألونني: مـن بورسعيد؟ وكلما" تودكت في غربتي " أى أوغلت في البعـاد عن بلدتي .. يسألون: الأخ من أي بلـد عربـي؟.. باتـت لهجتي هجينا.. مثل !! .. مثل من ؟ لقب أحد عندما أنطلـق أنا من "دمياط"، تملأ الكلمة فمي وتضم شفتاي ، محبة فـي امتلاء الفم بالاسم ومخافة أن تنسل الكلمة بعيدا عني.. حتى أقاوم نوبات خوائي، أهمس لنفسي بالاسم: دمياط إنه الامتلاء المراوغ.

** تضرب المدينة عواصف باردة في أهم نواتها التي من نوفمبر (نوة عوه) .. يلجأ الناس إلى منازلهم، أما أنا ، فتهدر حركتي، إلى الميناء الذي أعيد بناؤه بعد أن أطمـى.. من قبل كـان سـينغلق البوغـار، لا دخـول ولا خـروج للمراكب .. يلطم وجهي صقيع العاصفة، أين أذهـب الآن؟

إلى أية مناطق مفتوحة قريبة من البحر ، تظهـر العاصـفة رعونتها، أأذهب إلى الشيخ ضرغام، لا ، فلا صـيادين الآن حيث هربت الأسماء إلى طبقات الماء السـفلي.. إذن، لا .. إلى قرية " شطا" ، ما حال أضخم الأشجار فـي بلـدتي!.. شجرة الجميز، تنحني ضارعة ، تلتوي وتلتف على نفسـها أغصانها الجرداء.

الجأ إلى السـور يـا " حسـين".. لمـدينتك البحريـة الحصينة.. كيف ألجأ وأنا جندي حراسة أرى مـن أبـراج السور قوات " عمرو بن العاص" تحت الأنواء تخفق في فتح المدينة بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا! .. وظلت دميـاط منيعة حتى رأيت.. هاهو" شطا" ابن " الهاموك" حاكم قريـة شطا قادم، في دمس الليل يفتح منفذا في السور ليدخل العرب إلى أغوار المدينة الحربية" دمات – ن – بتاح – تنن" مدينة الإلاه بتاح تنن، وأرض الشمال " تامحيت".

أين السور؟ لا أجد سورا.. بـالطبع بعـد أن هـدمها المماليك وساووا بها الأرض.

** جلست في الأريكة الأخيرة من الأتوبيس والتـي لا يقربها أحد، تمتعت بعزلتي ، أدب بحذائي علـى إيقاعـات،

إيقاعات الدبكة في أذني عندما أغمض عيني ، دبكة أخـوة "رفقة" زوجة أخي . والحذاء " شده على القالب" جدي قبل أن يتوفى، ظل جزمجيا حتى بلوغه الستين، ثم عمل ساعيا فـي أحد المكاتب الحكومية، حياة نشطة حافلة.. لم يكمـل بعـد أحالته إلى المعاش عاما واحداً، توفي بعد أن ألحـف أولاده في تقييد حركته بحجة أن تفرغه أدعى إلـى الراحـة.. أدق بكعب حذاء " جدي" على أنغام دبكة في أذني .. وينقر المطر على الزجاج في دقات تتسارع. رأيت " تودد " في الكرسـي أمامي، مغمضة بملامح ألم حدبت شـفتيها إلـى الأسـفل، سألتها:

ما بك؟

ألم في فقرات العنق.

-يقولون إن من يكون خاله هو عمـه – فـي الوقـت نفسه- يتمتع بأصابع شافية و يمكنها أن تعالج بلمسـاتها آلام الرطوبة، والتقلصات والتشنجات العصبية والعضلية.

ضحكت ما زحة.

قلت: لا أعرف عن كان ذلك صـحيحا أم لا .. لكـن أناملي ترسم في الهواء وعلى الورق أشكالاً تداويني من أرق الحياة.

كانت يدي النحيلة بأصابعها الطويلة سببا في قصة حبي وزواجي بتودد وأداة رزق، والتقطت بها المئات من الصور الفوتوغرافية، أنظمها لتعلق تودد، إن هذه الألبومات يوميات من الهروب.

** في نهاراتي العصيبة (النهار أثقل على نفسي مـن الليل) تقول لي تودد : لا تثقل جيوبك بالحجارة وتنزل إلـى الماء.. بالله عليك.. اندهش من الحياة لتخرج من ضـجرك ورتابة بحرية نفسك الراكدة.

- نصيحة مقدرة، لكني لن أفعلها حتى يأتي الدافع مـن داخلي. في الصباحات.. ضياء كثيف، لزوجة ، تعشي عيني، إفراط في النور.

استيقظ النهار، فتثـاءب الهـلاك، " الويـل لسـاكني المدينة". النهار يا ليل، ضوء أعمى ، يعدو فـي ارتيـاح، فيعثر بعيني ، لا !

وهج مسعور طليق في الفضاء يعض عيني.

النهار يا ليل، جنون مريض يبصق الصخب، في أذني.

النهار يا ليل ، نهر يغلي، يجرف نفسي صوب البحـر الناري.

في النهار يا ليل، تخرج الضباع من عتمـة القلـوب وتقفز من العيون، تنهش أجساد المـوتى السـائرين فـي القبور المشمسة**.

تقول تودد: تباشير الربيع تنفجر في قلب الشـتاء، فـي فيلم ياباني لفت انتباهي أن ثمة زنابق نبتـت فـي قراميـد متآكلة، متكسرة.

الفصل السابع

"شهاب"

- ١ -

عندما تنفس الصبح ، فتح " شهاب " عينيه ورأسـه لا تزال مرتكزة على البالطو المكوم تحت رأسه كمخدة، فـتح الشباك الجرار في الشوارع وتغمـر رؤوس المـارة الـذين يبدون اشباحاً تتحرك كإنسان إلى وسط ضباب كثيف بلـون رصاصي، مد يده الى جوربه الذي يخبئ بـه المزيـد مـن الجنيهات الاسترلينية هربا من الحد الأقصى للمبلغ المسموح بالدخول به من مطار هيثرو وهو في الحقيقة ضئيل للغاية.

شد شهاب الشباك الجرار ليغلقه، ويستمتع مجددا بالتدفئة المركزية للجامع، عليه أن يهرج إلى الأتوبيس المتجه إلى " إكستر" حيث الجامعة التي سيعد بها رسالة دكتوراه.

** تلك الطبيعة التي أنشدها.. الثلوج، غابات الصنوبر، التلال والمنحدرات، الأجمات، والسـفح المنبسـط بـآلاف الزنابق.. أما في الوادي بمصـر، بعـد أن خبـت علـى دوربها،انحصر حلمي في أن أقطن مع محبوبة بشعر شـفقي في قصر " تيمونيوم **Timonium** " أعيش فيه نسيا منسيا، بعيدا عن العالم مثلما فعل قبل ٢٥ قرنا الفيلسـوف تيمـون الذي لم يأنس أبدا إلى البشر.

السحاب كتلة رمادية واحدة إلا فجوة في وسطه كأنهـا مدخل لكهف جبلي.. ذلك الجو المعـتم يـذكرني بجلسـات تحضير الأرواح في غرفة مظلمة ذلك الذي يقوم به والـدي عسى أن يجد حلا لمشكلة ذراعي، أو أن يخفف من آلامي ، لا أتذكر ماذا كان يطلب مني.. لكنه أقبل على تلك الجلسات مرارا ومن أجلي.. لكني كنت مشغولاً عما سأركز عليه عما قليل، مولها وشاردا في " كوميون الحوامدية" لشركة السـكر حيث يعمل والدي مهندسا إلى جانـب الأجانـب فـي تلـك

المستعمرة المسيحة. كانت تنتشر الأشجار الجميلة وأشـجار الفاكهة والبساتين المنسقة والورد جذاب الألوان، كان بيتنـا يطل على دير ،ومن خلفه تقع حضـانتي ومدرسـتي التـي سأقضي بها بضع سنين.

في الحضانة كنت أرتدي روبا أسود، وتسألني الميـر / الراهبة.. كنت أبدو غبيا أو غير واع، لا أنتمي لعالم الفهـم ذلك وما يحشرونه في رأسي، فكانت تخرجني إلـى الفنـاء وتضع أمامي خبزا وماء وكراسة أكتب فيها الواجب.. وبعد انتهاء اليوم الدراسي تدعني أذهب،وهي تعتقد أنني فهمت ما معنى العقاب، لكني حقيقة لم أفقه ما العقاب ، فكنت لا أغادر المدرسة من بابها.. بل أمشي عبر الحدائق الخلفيـة للـدير، لأصل إلى حوض السباحة وأرى أولاد وبنات الأجانب،وكنت أزقهن إلى حمام السباحة.

في اليوم التالي تخرجني الراهبة من الفصل وتضع على رأسي طرطوراً يضحك الزملاء، لماذا؟ أبتسم لهم، وأحيانـاً تعطيني قطعة شيكولاتة هي في حقيقتها دواء كالسلفا مـثلا.. وكانت تجذبني ألوان غلاف الشيكولاتة والطرطور أيضـاً، وأمشي وحدي عائدا إلى البيت أجرب استطعام الثمار التـي

ثقلت على الشجر وسقطت على الأرض مثل العنب والتمـر الهندي والدوم وعنب الذئب والمانجو.

كثيراً ما كنت أمرض بالتهاب اللـوزتين أو بـأمراض معوية ناتجة عن ابتلاعي لثمار الطبيعة أينما وجـدت فـي الكوميون، وكنت على درجة من الغباء لم تنفض عني للمرة الأولى، إلا بعد استئصال اللوزتين،وفي سينما الكوميون كنت شغوفا بالأمواس ذات الجانب الواحد المتخلفـة عـن بكـرة الأفلام التي عرضت،وفي مرة هاجمت صبيا أشقر بضـربه بحد الموسى المرهف تحت أذنه .. فشد أبوه أذني، وهـددني بلهجة خرقاء أن يضعني في الإصلاحية، وأنا غيـر مبـال سوى بألم اذني، فلم أكترث بهجومي علـى الصـبي.. ولـم أكترث بالإصلاحية لأني لا أعرف ما معنى الإصلاحية.

أكثر أبي من الجلسات الروحية واصطحب معـه هـذه المرة بعض زملائه من المهندسين الأجانب، يتحدث معهـم بثلاث لغات غير العربية، وعلي أن أجلس ساكنا،ولا أفهـم سوى اسم شهاب يتردد.. إنه أنا،وصرخت فيهم : لماذا أتيتم بي هكذا من البداية؟ .. ثم تحاولون إصـلاح الخطـأ بتلـك الجلسات.

كنت كثيرا ما أخرج غاضبا وقت أشاء وأعـود وقـت أشاء.. ولم يقتصر ذلك على فترة إقامتنا بالمسـتعمرة وبـل واستمر ذلك دأبي طوال عمري، ولم أتـذكر أنـي تلقيـت توبيخا أو عقابا.. وكثيراً ما كنت أصرخ في والدي: " لم يكن يجدر بكما أن تنجبا بعدي ثلاثة.. كان عليكمـا أن تكرسـا نفسيكما لتعويضي".

هاهو صوت الطائرة الهليكوبتر البرمائيـة، علـى أن أهرع إلى النيل حيث أراها تهبط بقدمين كبيـرين يرتكـزان على الماء كقدمي بطة أو إوزة.. أو تشبه زحافتين.. ها هـو المدير الإنجليزي يهبط من الطائرة إلى القارب الذي غـادر الشط قبل قليل، بعدها أتفرغ لمشاهدة أسراب البط وأنواعهـا وألوانها، مثل البط برأس حمراء وخط أخضر بشكل الدمعـة حول عينيه وجانبي رأسه وفي جناحه خط أبيض قد ينحـف أو يعرض من بطة إلى أخرى. وثمة بط آخر بـذيل طويـل مدبب وبط بمقدمة جناح زرقاء،أما أكثر أنواع الـبط التـي أحبها ولا أراها إلا نادراً بين العام والعام، فهو ذلـك الـبط الذي قالت عنه أمي: إنه بط حمراوي، برأس لـون الصـدأ

البني المحمر وجناح رمادي فاتح .. ما أجمله وهو يغطـس ليصطاد أسماكاً صغيرة!

أعود إلى نزهـاتي بـين بسـاتين وفـيلات وأشـجار المستعمرة، وعن بعد تلوح لـي سـيارة رش الميـاه علـى طرقات وشوارع المستعمرة لترطيب الجو الرطب الحار في الصيف، أصعد إلى العربة، وأختبر أجهزتها وأشد ذراعهـا مدفوعا بفضول معرفة كيف تعمل، فإذا بها تمشـي وتـرش المياه، دون تحكم منى ويجـري ورائـي السـائق، يسـب ويلعن،ومن نصيبي قرصة أذن مرة أخرى.

نزور جدتنا في حي العجوزة، وأخالها دائماً السـاحرة الطيبة ذات الشعر الفضي، لكني توقفت أن أعتبرهـا كـذلك عندما سمعتها وقد بلغ بها الكبر عتيا،وإن لـم أع هـذا فـي وقته. تصرخ في عمنا الكبير بأن يعطيها المزيد من اللحـم المطبوخ.. ارتدت طفلة مثلنا،يبقى أن تدبـدب فـي الأرض ولكنها لم تفعلها.. فصعدت إلى سريرها ودسست يدي تحـت المخدة وأخرجت حافظتها ، فتحتها وأخذت منها شلن –خمسة قروش – كل ذلك وهي ترقبني مبتسمة، لم أسـتأذن منهـا، لكنها ربتت على وقالت: هي لـك ، لا تصـرفها لـم تجـد

تحذيرات والدي ألا أستطعم ما ألتقطه من الأرض، هم غيـر مدركين أني مدفوع بتذوق ما يبهرني لونه،وذات مرة سقطت مانجو يضرب لونها إلى الأحمر والأصـفر.. كانـا لـونين بديعين، التقطتها، واستطعمتها كان مذاقها بجمـال لونيهـا.. يومها لم أوبخ لأن درجة حرارتي كانت بالغة الارتفـاع،ولم يكن مفر من احتجازي بمستشفى الحميات بإمبابة، أتذكر ذلك العام لعله ١٩٥٧ وقد حددته عندما كبرت بقصتي مع تلـك الفتاة اليهودية، أخذت حقنة في ظهري "إني مريض بالتيفويد، هل أموت يا أبي؟".. دمعت عينا والدي.. مشـمولا برعايـة خاصة وفي حجرة خاصة وأمامي امتداد جميل من الأشجار العالية، وأراهن أنها أيضاً قديمة لكبـر حجـم جـذوعها.. وأغصانها تلك التي امتدت مترنحة إلـى الأرض وتحولـت جذوعا أخرى.. في نقاهتي –مازلت أتذكر – جاءني عمـي بمانجو " فونس" .. قال : تذكر لونها، شم رائحتها، إنها جـد مختلفة.

وفي أيام نقاهتي بدأت أعي أن وجها لطيفا شاحبا كنـت أراه يوميا وبجواره عسكري، ها هي جاءت فتاة ناحلة تقعـد ساهمة على كرسي بجوار سريري تنظر لي دون كلام لمدة

ربع الساعة أو نصف الساعة كل يوم، تلبس جلبابا أبيض من دمور ،وعندما انتبهت أكثر ابتسمت لي، لم تكلمني مرة ولـم أكلمها أبداً.

أتذكر مرة أني بدأت أستعيد وعيي، من تخدير، فإذا بي نقطة متناهية الصغر مدركة لذاتها تنطلق من القاع في اتجاه رأسي لا يحيد إلى السطح، ربما سطح البحر،وبدأت أطفـو مستعيدا بدني كله جزءاً فجزء، فتحت عيني، أنا الآن وهنا. مرة أخرى أتذكر تلك الخبرة: وأنا بصـدد الإفاقـة، رأيـت نفسي نقطة ضوء تتشعب وتنتشر حتى ملأت بـدني، فعـاد جسما كما كان.

ولسوف أشتاق عمري أن أرى نفسي مجرد نقطة ضوء وأنا بكامل وعيي، لست نصف مخدرا أو نصف وسنان.

طرقات واهنة على زجاج غرفتـي بالمستشـفى، إنـه المطر، أجري إلى الشباك ، يغسل المطـر أوراق الشـجر، ورقة .. ورقة،ويبدو لونها للمرة الثانية يانعا، المرة الأولـى وهي بندي الفجر قبيل الشروق وانتشار أطنان مـن تـراب المقطم على القاهرة.

بدأت عيناي بالاتساع كأن مشاهد العالم أمـامي تمتـد لتضم مناظر أخرى، وشرع عقلي يفهـم فجـأة، وسـعادات انفجرت من أعماقي، فصرت أضحك، أضحك ،كأنما انفتحت عن نفسي أبواب قبو مغلق منذ آلاف السنين. لقد كنت فـي غيبوبة لسنوات وعاودت الضحك مجـدداً ، يـأتي الطبيـب ويبتسم لي حازما: وبعدين؟

- أريد أن أمشي على الإسفلت المبلل.

- من حقك، بل وستخرج من المستشفى.

لملمت أمي حاجياتي، وتنبهت إلى أنـي لـم ار الفتـاة الناحلة منذ عدة أيام هممت بالخروج، قال أبي: إلى أين؟

- لأودع صديقتي تلك التي بصحبة العسكري.

اغتم والدي ثم بسط أساريره: لقد خرجت ، لقد شـفيت يا بني.

لم ترحني إجابته ، غافلتهم وجريت إلى الممـر الـذي كانت تأتيني منه، وسألت المرضي، فقالوا:

-راشيل؟ لقد أعدمت.

استغلقت على الكلمة لوهلة.. أعدمت؟

نعم، كانت جاسوسة في حرب ١٩٥٦.

ودعت أشجاري وبراح المستشفى وطرقها بائسا،وسيظل يبئسني تماماً أن الشجرة تعمر أكثر من الإنسان.. كمحارتين رددت أذناي وشيش خطواتها على بلاط غرفتـي، وسـكون العسكري بجانبها .. استرجعت نظراتها إلى، لكـن أنـي أن أعيها وكنت نصف غائب.. وما من خيار لي إلا أن تتيـبس هذه الذكرى، وكما سأختار مستقبلا، أن تتيبس في ذاكرتـي عذابات لي تضحي كزبيب للحظات أنتقيها بعنايـة عاشـق للحياة.

**وصلت إكستر لأرى لونا بديعا لـم يسـبق لـي أن شاهدته، وهي الثلوج تلتمع بلون وردي تحت بواكير أشـعة الشمس.. سبحان الله، الجمال يتحلى بمشاهد لا تحد،سبحانه، أيها المتمرد الناقم هلا نفضت عنك أحزانك ألـم يكـف مـا كمشت في قبضتي من عذابات وأسئلة.. رعشات من هـواء بارد نقي ربتت وجهي.. فاستنشقت حتى أعماق رئتي ، أنـا الآن وهنا.

عندما كنت أصلي كان الانتصاب يباغتني، أقلـع عـن الصلاة شاعرا بذنب ليس لي فيه ذنب، أتوجه إلى الصـلاة

بالجامع، تقع جبهتي على سجاد بقع بالزيت والشحم،ورائحة بعض المصلين إلى جانبي لا تطاق.

لم أنا هكذا؟.. لو لم تقفز خالتي محبوبة لتقسر طبيـب المستشفى لان يأتي معها لمساعدة أمها في ولادتهـا.. هـل كنت أستحق هذا ؟ وبالرغم من ذلك فقد ولدت بذراع قصيرة في طرفها أصابع لحمية.

أنظر للمرأة في كل جزء من أجزاء أنوثتها..أنـا فـي ثورة جنسية نحوها إلا أني أعاني من شيء مفاجئ، قـاس، ومعذب ، ولأني حساس فأنا أنظر بعمق وأشعر بعمق أكثـر من الآخرين.

" أنت موالٍ لجماعة الحمقى.. لست ميتا ولكن بالتأكيـد لست حيا".

أعترف خجلا أني أقلعت عن العبادات وبدأت تساؤلات كبرى بعد ١٩٦٧.. كنت أجلس على مقهى في الكربة بمصر الجديدة، رأيت عربات نقل الجنود محتشدة،،من يترجل عنها وبزاتهم العسكرية ملطخة بالدماء، ولفت نظري أن بعضـهم يرص في معصمه ما يزيد على أربع ساعات.

هممت أن أسألهم ،وأحجمت في اللحظة الأخيرة: كفاهم هما،وساءلت نفسي هل هي ساعات شهدائنا، أم كانت لجنود إسرائيليين؟

أبي جالس في البلكونة، يقرأ الجريدة والساعة قرابة الثالثة بعد منتصف الليل. هو لا يقرأ بل نائم والجريدة في يده، وبالتالي لا استطيع أن أنام في الحجرة لأني لا أستطيع أن أنام والإضاءة تتخلل شيش البلكونة،وهكذا يجب على أن أظل مستيقظاً حتى يصحو أبي من إغفاءته ويعيد قراءة الجريدة ثم ينام ثم يصحو ثم ينام ثم يصحو، ثم ينهض أخيراً إلى المطبخ حيث تدور معركة كل ليلة الضارية مع الصراصير،وأسمع صوت الأواني وهي تسقط خطأ من فعل قذف الشبشب والمقشة والحذاء القديم الذي يتركه أبي فوق المائدة الموجودة بالمطبخ استعداد للمعركة.. أبي يشخر الآن، كل ليلة بالطريقة نفسها، كل ليلة ، هو استيقظ الآن ويعاود قراءة الجريدة. أشعر بملل، لا .. أشعر بشعور أصفر كالصديد.

ألا يتردد أن مسيو شوبنهاور يقول إن :" الحياة عمل شاق لا يغطي تكاليفه".

من خلف زجاج مطعم في إكستر بانتظار " ميشيل" تلك الفتاة الطويلة بيضاء كالشمع، مسـتطيلة الأرداف.. تصـبح عصبية وشكسة حينما أداعبها تحت الدش.. أوه، كفى .. لـم تأت بعد ، رأيت رجلاً يتكئ تحت الزجاج ورأسه ظـاهرة، دخن سيجارة انتفش دخانها كثيفا عاليا.. ضربت الهواء بيدي لأبدد سحابات الدخان، تلك التي لم تصلني أبداً.

وتناهى إلى سمعي من بعيد موسيقى زاعقة، لا أعـرف ماذا يسمونها.. تذكرني بموسيقانا الزاعقـة، فهـي ليسـت تطريبية، بل أورجازمية، كشهقة ذروة.. إنها تخاطب أذنـي الغرائز الباكوسية.. من يسمعها لن يكون عنده أبداً اسـتعدادا لأن يجلس في وجه الصمت لساعات يتذوق أنغامـا سلسـلة ناعمة.

إن لم تغادر النـاس فهـم يغادرونـك، وهكـذا تـأتي للذكريات، " منيرة".. تلك الفتاة الحارة، صـغيرة القـد ، لا تزال تحتفظ بأوراق الحائط لتنزين بيتنا، كم كنـت أحبهـا.. وكم نعمنا بالمتعة معا، إلا أني لا أعتقد أني سـأتزوجها، ولا أعرف إن كان مشروعي هنا سينجح أم لا !!

صعدت و"هانا" نضرب بأقدامنا على دروب حصـوية صاعدة إلى الجبل حيث كوخ يطل من ناحية على جرف هو منحدر صخري شاهق على البحر،وفي طريق تحدرنا للعـودة لاحظت ما حدثتني عنه هانا في لقائنـا: " زهـرة العصـا الذهبية"، قالت: انعم بها قبل أفولها في نهاية سبتمبر المقبـل، لو كنت لاحظت هذه الزهرة نابتة بـين الحصـباء وسـياج الشجار القصيرة لنعمت معي أكثر.

نظرت إليها مندهشاً : نعم، أما أنا فـذاك ثـاني لقـاء رومانتيكي لي.

-رومانتيكي تقولين!!

-آسفة أقصد شاعري،والأول كان لقاء حب على حافة خطر " شاعري" أيضا.. ما هو؟ كنا في قارب صـغير فـي بحيرة.. وجلجلت هانا بالضحك: و أي حركة تخل بالتوازن، كنا سنسقط في الماء قلت: واحدة على حرف والأخرى على حافة مركبز. عناق على شفير هاوية!!

** "دعنا ندخل الغابة".. وسرنا بحذر في ارض رطبة تكسوها لمسافات بعيدة قصار الشجر، تفوح بأريج مسـكر،

منعش ، شعرت للحظتها بسعادة ورضا عن نفسي، أنا الأمير " شهبان" وسط مروجي.

.. اتسعت رئتاي وانضغط حجابي الحاجز إلى أسـفل، أمتلئ بعطر مغوٍ .. أنا جميل..

همست هانا: لا يجدر بك أن تغلق عينيك هنا. انظـر ، براح من آلات النفير الموسيقية، حمراء،بحلق ضارب إلـى المشمشي، ارتكزت تلك الأزهار على سوق ممتلئـة، ولهـا سبلات كاسية بيضاوية سامقة.. ما أجملها!

- أليست هذه إحدى أزهار الزنابق؟

- نعم.. إنها " سوسن النهار".

وتوادعنا.. لوحت هانا من الباص: ألن تركب؟

-بإمكاني المشي حتى الدار

- إنها مسافة طويلة.

-وإني لأفضلها كذلك.

ذلك الوغد المسكين.. لديه حلم جميل.. أن يصبح .. إمبراطور الآيس كريم.. استحالة!!

لأنه قابع في وحل حلمه المحطم..

إذ بعد أحقاب طويلة من ترحاله في اليم..

ظن أن نقوده القليلة.. ستضيء أشعة شمس..
يتحمم في دفئها .. فقفل عائدا إلى شاطئ..
كان يظن أنه يعرفه .. فرأي محبوبته متألقه..
كما لو كانت تنتظره!!**

قد تكون تلك المحبوبة المتألقة مثل المرأة المحجبة التي رأيتها جالسة على أحد المقاعد المطلـة علـى البحـر فـي الإسكندرية.. المقعد في الممرات المزروعة نباتات وزهـور في رصيف يقسم الطريق إلى سيارات تغـدو فـي نصـفه وتروح في نصفه الآخر.. كان إلى جانـب المـرأة أخـرى عجوز.. وكانت هي مستلقية على جنبها ومتكئة إلى مرفقهـا فيما ساقاها مضمومتان،وقدماها متلاصقتان مرسـلتان إلـى الأرض.. فبدت من ظهرها وبحق كعـروس البحـر، ذات خصر ناحل وأرداف تعتليه كربوة حسنة.. خطـر لـي أن أنبهها إلى جلستها المغوية في نهر الطريق..ولم لا أسـتمتع بذلك التشكيل الرائع، تراجعت وجلست في مقعـدي أنظـر إليها.. تقلبت المرأة في جلستها وظهر جسدها بدينا مكرشـا ووجهها عاديا للغاية، ليس به أي ملمح مميز.. بدت كآحـاد النسوة.

-٢-

الدنيا من غير الربيع ميتة.. ورقـة شـجر ضـعفانة ومفتقة.. لأ يا جدع غلطان تأمل وشوف.. زهر الربيع طالع في عز الشتا. عجبي..

من رباعيات " صلاح جاهين"

ثمل حسين ببؤس جديد، كان وقعه على ك" نوة عـوة" فأنا بصدد أن أفقد رجلي.. حبيبي، كل لحظة تمـر ، هـي انتقاص من لحظات ثمينة لحسين قبـل أن ينتـزع منـي.. غريبة، يفزع من النهار والحياة ولما عرف أنه يقـف علـى تخوم الموت، بدا هادئاً ، غامضاً ، بارداً ، نائيا.. بـودي أن أصرخ فيه.. ألومه، كم شكوت من الحياة، هل حصلت على مرادك.. هل يدخل تلك المملكـة باستسـلام الـذي أمضـه الانتظار؟

- تكلم لست وحدك بالعالم،أنا أحبك.
- لا شيء يستحق الكلام.. فقط بي بعض الوهن.

تتردد الصرخات المفزعة داخلي " بعض الوهن.. هـل سرطان اللثة بعض الوهن؟".

- تعرفين يا تودد، إنه نفس المرض الذي ألم بخالتي / عمي " جميلة".

- اسمع عنها ،وقد تركـت لجـديك طفـلا صـغيرا، يرعيانه،ولم يعطياه إلى والده.

في نقاهته الأولى، بدأ يشعر بفضول عارم تجاه الحيـاة التي يعرف أنها تتسرب من بين أصابعه – النحيلة – كقـدر من ماء حفه من نبع لم يصل إلى عمق إدراكه،عليه الآن وقد بات الوقت محدوداً وضيقاً أن ينهل من ذلك النبع، يستكشـفه ،يتمتع به.

بعد الإفاقة من العلاج الكيماوي.. يجلس إلى تصميماته المتفردة ليزين بها الأثاثات، يسهر الليل، لا ينتبه إلى لطلوع نهار يواجهه بالعداء تصميمات مبتكـرة، خلاقـة ونـادرة، وتتلقفها محلات ومعارض الموبيليا في دمياط وبقية مصر.. ولا يزال بالمخيلة المزيد.

** انطلق حسين وصديقان له ودليل إلـى الصـحراء الشرقية في أول شروق .. كانت أشعة الشمس ترمي ظـلالا

وتزيح أخرى، بدت الصحراء المنبسطة والـتلال كأجسـاد أنثوية تتثني.. ثم ساد قفر وفراغ.. صمت وتأمل وامـتلاء، رفع الأربعة أنظارهم إلى السماء،التجاء وتهجـدا ووصـالا كانت زرقتها صافية تجيبهم بالسكينة.. لم يمل حسـين أبـدا ثبات المنظر، بالنسبة له معاودة التعرف على الشكل الواحد، تمنحه عمق المعرفة والتذوق، وإدراك سـحر التفاصـيل.. خطر له : أقبل التدرجات اللونية الذهبية، إلا أن عيناً اعتادت الأخضر،سرعان ما تهفو إليه وتسعى. ثرثر الثلاثة الآخرون عن اصطياد الغزلان وخصوصاً غـزال إيريـال والكـبش الأروي، لن يشاركهم هو متفرج فقط، ولاح على البعد لـون ذاو ، لم يحدده، اللون مشوش، متداخل، يتضح شيئا فشيئاً ، يتكاثف باقتراب السيارة، إنها زهرة.. زهرة في الصـحراء، سياج للجدب المفجع والصمت اللا نهائي .. إنها محطة فرح للهائم ولجواب الصحراء، تغلغلت إلـى بـاطن الصـحراء تستقطر نقطة ماء أخيرة حيث زخم الحياة الحقيقية.

" للموت شدقان زرقاوان" برقت في ذهن حسين لـدى رؤيته الصبار.. هل أجد في طلب حياة مترعة مليئة حتـى الحافة بالمعنى؟!

طاردوا عائلة من الغزلان ، تعجب حسين من مناورات الوعل، إذ يقترب من السيارة ويجعـل نفسـه فـي مرمـى النيران، في الوقت الذي تتجه فيه أنثاه وصغارهما إلى أحـد التلال، حيث المخابئ بـين الصـخور.. ثـم يبتعـد عـن هدفهم،وهكذا حتى لاذت العائلة حتى لاذت العائلة إلى أحـد التلال،ولم يتبق سوى رب العائلة، هو الآن بالفعل وبطواعية في مرمى النيران، أطلقت رصاصة طار على أثرهـا إلـى أعلى،وهبط ينظر بعين مستسلمة، مستهجنة،منتصرة على من أطلق الرصاص، نظرة لن ينساها ما عاش..

قال حسين: لا تنظر في عين فريستك أبداً.

** على خط عرض ٢٤ شمالاً.. في مكان مواز لمقام أبي الحسن الشاذلي .. مبتعدين بمقدار خمسين كيلو مترا عن الطريق المسفلت،وثمانية وعشرين كيلو مترا عن آخر آدمي ظهر في طريقهم بالصحراء.. انطلقوا بالسيارة غير قـانعين بالغزالة وطائر يشبه فرخ الماء الذي أصـيب فـي جناحـه فقط.. متجهين إلى تل قيل لهم إن قطعانا من الغزلان تـرمح على سفحه.. وما إن صعدت السيارة إليـه حتـى احتـرق موتورها.. عجب الأربعة فالسيارة جديدة للغاية، تنبه الدليل :

أنتم الآن تجاوزتم وادي الجمال، إلى الكولة " المرصـودة"- من الجان – والتي تتكرر بها حوادث السيارات. ارتابوا في ذهنية الرجل وإن لم يعاودوا نفث شكوكهم – لأنفسهم علـى الأقل – بعدما عرفوا أن الإطارات الأربع لسيارة قد انفجرت في الموقع ذاته في أعقاب حادثتهم.

واتفقوا على أن يذهب اثنان منهم، أحدهما الدليل بالطبع إلى أقرب مكان به ناس..وقدروا أنهما قد يصـلان بحلـول المغرب.

بقي حسين وسليمان حبيبـي يقتاتـان علـى الوحـدة والصمت، وبحلول الليل سمعا موسيقى فلكية، مبهمة، تثيـر الوجد ، متسامحة، روحانية.. من أين تعزف تلك الموسـيقى و"ليس حولنا إلا الفراغ"، كانت " موسيقى السماء" هي ظاهرة طبيعية في تلك البقعة.

تذكر سليمان ما سمعه عن تمثال ممنون بالأقصر اللذين كانا يرسلان ذبذبات صوتية عند الفجـر ، وذاع صـيتهما.. ووفد الكثير من الأجانب في ضباب الليل لينصتوا إلى غنـاء التمثالين،همس لنفسـه:" توقـف ذلـك قبـل ١٥٠٠ عـام" ،واستوضح رفيقه: لِم لم يعودا إلى الغناء؟

قال حسين: بعدما رمم أحد الحكام التمثالين للتغلب على الانشطار الذي قد أصابهما في زلزال عام ٢٧ قبل الميلاد.. وحينئذ توقف التمثالان عن الغناء.

غلبتهما غفوة متقطعة.. متمددا على الرمال ، بدا بـدن حسين نحيلا هشا، وكأنما قُد من ظلال القمر المطل عليهما.. أفاق حسين ونذر أمرا في حال نجاتهم .. أخرج الغزال مـن شنطة السيارة،ووضعه على شبكتها العلوية ليلاً كيلا يفسد .. أو ربما يجمع حولهما أي حيوانات حتى لو كانـت ضـباعا متوحشة، المهم لهما الآن هو الإحساس بالائتناس.. ثم سمعا أنينا خافتا، استبشرا أنهما ليسا وحدهما.. بحثا حولهما، كـان الأنين للطائر الشبيه بفرخ الماء ،فأخرجاه من السيارة.

لدى شروق الشمس اقترح سليمان أن يتجها شرقا حتى يصلا إلى البحر أو مدينة " مرسى علـم" .. وبحرصـه رد حسين أن ذلك ينطوي على مخاطرة فإن ضلا طريقهما لـن يتوصل اليهما أي إنسان، لكنهما في هذا المكان الذي تتضح فيه آثار عجلات السيارة يمكن التوصل إليهما بعد موتهمـا " فندفن بشكل لائق".

تلفت إليه سليمان: ما يهمني شيء بعد موتي!

-المهم الآن أن نصنع شايا أو نسكافيه ..كيف؟

تمكن سليمان بمعالجة ولاعة السيارة أن يهنأ بكوبين من النسكافيه. ورأى غبارا باديا في الأفق،وحسين كعادتـه لـم يستبشر بالغبار.. " فمنذ شروق الشمس وحتى العاشرة أرى غباراً".

من فرط توتر الانتظار قال حسين: " دعنا نمش قلـيلاً وليكن في اتجاه الشـرق".. تـوغلا فـي أحاديثهمـا وفـي الصحراء.

اقتربت دوامة التراب، وما كانت سوى سـيارة تشـق طريقها مسرعة متتبعة آثار عجلات السـيارة.. جـاء بهـا صديقهما " محسن" والدليل .ز بعد تطوع سائق شاب إثر أمر من أمه العجوز: قف لهما لنرى ما حاجتهما.

قالت العجوز التي تناهز السبعين من عمرهـا: اغـرز عصاك على أثرهما، أو أحدهما،عندئذ سـيتوقفان، وتلحـق بهما..ولبث محسن والدليل والعجوز نصف الساعة حتى رأوا ثلاثة عائدين.

ثم أسند الشاب أمه لتخرج من السيارة وتتجه مباشـرة إلى حسين: فين نذر الشاذلي يا ابن صافيا؟

بهت حسين: كيف عرفت؟ ووجد نفسه يرد: لست ابنـا لصافيا، تقصدين أختي؟

ارتعشت شفتاها من غضب التشكيك بقولها: بل أنت من نسل صافيا التي مرت من هنا قبل مائة عام.

- آه .. صافيا الكبرى، صاحبة البيت الحجـري فـي السنانية!

قال السائق عن أمه بعد صلاة العشاء أطالت تهجـدها وأورادها.. ثم أعربت عن رغبتها في أن تـزور الشـاذلي ،أطاعها ابنها الذي يكن لها محبة عميقة ، فهو ابنها الوحيـد ويخشى أن تكون تلك أمنيتهـا الأخيـرة، فغـادرا قريـة " الأعقاب" شمالي مدينة " أسوان" بحـوالي ١٥ كيلـو متـرا متخذين طريقا مباشرة إلى مزار الشيخ، إلا أنها دعته إلـى تغيير اتجاهه.. قالت " ثمة اثنان ينتظراننا " ، ليجدا محسـن والدليل ينتظران سيارة الماء " الفنطاس" التي تأخرت.

أشارت المرأة: لتسرعوا قبل أن تدركنا " الأزيب".

- سأل الأصدقاء : ما الأزيب؟

رد الدليل : إنها ريح جنوبية شديد ومشبعة بالرطوبة.

ولم يكن حينئذ ما يدل على قرب هبوب الرياح.. ونقـل الأربعة إلى " سيد سالم".

قال لتودد بعد الرحلة الصحراوية: كـم تضـيق حيـاة واحدة أو حيوات ملايين عن أن تدرك ذلك الجمـال وتلـك الروعة لطبيعة مصر.. وأسر لنفسه: " أكانت تلك الروعـة مخبوءة عني.. أم أنني كنت عنها نائيا بفكري بتركيزي على نفسي واوهامها؟!".

سأل سليمان: ألا تكتئب أبـداً وعنـدك مـن الأعمـال والمسئوليات الكثير؟!

- الاكتئاب رفاهية ، فلا وقت له.. قد أشعر بكآبة يوما أو يومين ثم أنغمس في العمل العام.. فهي مسئولياتي ، لـو كنت أقل مسئولية سأعبر عن نفسي بشكل حميم في كتابـة، موسيقى، رسم.. لكن التنوع في الشخصية وتغير مسـارات الحياة يعطي غنى في التجربة، ومرونة نفسية، لأن الشخصية المنفتحة على العالم والحياة – دون الاقتصار فـي التركيـز على ألذات- يجعل النفس تطـاوع مسـؤلياتها وواجباتهـا المرتبطة بالآخرين، أكثر مما هي مرتبطة بذاتي.

تودد: من فضلك استرح، كم هو منهك العلاج، لا تقـل دعيني أعمل ، دعيني أرتحل، ألم تحدثك صافيا عما حـدث لابن جميلة؟

ما لم تقله صافيا لتودد أنها رأت جدها طويلاً، شـامخاً، يدخل غاضباً من باب عال،وقال لها: قولي لهم اتركوا البيت لـ " مجدي" وثبت ناظرها على وشم السمكة علـى رسـغ جدها.

واعتبرت صافيا التي كانت تحب جدها حبا جما،وتشعر بالامتنان لحدبه عليها وتشجيعه لها: " ما يجيبها إلا بناتها" ، اعتبرت الحلم رسالة.. فتركت زوجها وبناتها وسافرت إلـى دمياط.. ليستقبلها عمها / زوج أمها، استقبالاً بارداً خشية أن تبيت عنده، وحكت الحلم بسذاجة جديرة بها، فهـز رأسـه ساخرا كمن يقول لها " ابقى إتغطي كويس وإنتـي نايمـة" ، كان من الممكن أن يصرح بذلك من قبل، لكنها الآن امـرأة ثرية.

عرفت صافيا الحكاية بعدما تعارك أعمامها / أخوالها.. مع زوج أمها في تقسيم مبلغ بيع شقة الجد.. بعـدما ماتـت الجدة، وعندما رفعت جثتها من السرير للغُسل، كانت الديدان

ترتع في ظهرها، تركوها بلا رعاية بعد إصابتها بالشـلل..
فماتت من كمد ومن قرح الفراش، منهم من ربتهم كزوجـة
أب (والدها الذي توفي وعمهـا) وأولادهـا مـن زوجهـا
الأول،وأولادها من زوجها الثاني، أهملها جميعهم.

تفتقت حيلة في ذهن " إبراهيم" والد حسين أن يجعلـوا
الجدة توقع على ورقة – بعد تخـديرها بمشـروب- تـؤول
بمقتضاها الشقة إلى الورثة المباشرين.

قالت تودد: أتعرف بكم باعوا الشقة أو التنـازل عنهـا
بمعنى أصح؟

-هيه؟

ستمائة جنيه.

-وأين مجدي؟

-أخرجوه من الشقة ببقجة هدوم، قالوا له: اذهب إلـى
أبيك،وطلب منه والده التوقف عن الدراسة،وأن يعمل لينفـق
على نفسه.

يا لها من عائلة.

** كان يوما شاقا طويلا ، ممتعاً، تفتحـت فيـه روح
حسين،اتسعت ، اتصلت، زار فيه كرنك الأقصر ومقابر نجع

حمادي.. اضطجع على سريره بالفندق،وبلطافة ونعومة، بدأ إحساسه بنفسه يتلاشى، وبدأ الوجود يغيب، اسـتعاد مشـهد الفجر وضباب رقيق يتصاعد فوق البحيرة المقدسـة بمعبـد الكرنك وثمة صوت ناي شجي مفعم بمشاعر حـارة، تـأتي أنغامه من بعيد تنسال كحلم، في الصباح الباكر تداخلت أنغام الناي وذرات الضباب وعبق الحجـر الصـامت منـذ آلاف السنين، فتحير كثيرا.. لم يكن بمقدوره أن يفرق بين الـنغم والمرأى والعبق،داخله انتعاش، وخايلت عينيه ألوان الأحمر والأزرق والأصفر،وزخارف الزهور علـى مقـابر بشـكل سروج الجمال في نجع حمادي، لم يكن سوى مكـان يبعـث على البهجة، تتمة لعجائب الدنيا التي تتجاوز السبع.. مقـابر نجع حمادي في منطقة الهو، تخاصم تقاليد الحزن والتشاؤم، زاخرة برسوم كتلك المرسومة على التوابيت الفرعونية.

قسم " البحيري" من المقابر المختصة بالرجـال ، بـه رسوم للمصلى والمسبحة وأكواب الشاي وبنادق ومسدسـات ومقابر " أبو رقبة" للنساء عليها رسـوم الشـال والطرحـة والمقص والمرأة، أما مقابر الأطفال فهي غالباً دون رسوم.

عن لخياله – من قبيل المداعبة – الفلوت المطور مـن الناي ونباتات التبرك، وبنـادق الشجاعة،وضـباب رقيـق، ورائحة " خوص" ندي تضعه تودد على قبره،وعليـه رسـم مرآة حتى تتزين تودد ولا تنفي الحياة عن نفسها برحيلـه ، يجب أن تبقى على جمالها خالدا كملكة – إلهة مثل أحمـس نفرتاري.. وضوء قرنفلي ينسحب أمام النهار.

اقترب منه رجل أشقر، يحمل بردية لإخناتون ونفرتيتي وهما في قبلة دافئة.. أشار إليه بيده.. " تعال، سـأحكي لـك شيئاً عن مهد التوحيد".

صدمت بشرة حسين ماء الصنبور البارد، ولم يتذكر من تهاويم إغفائه، أو حلم ليلته سوى ذلك الذي دعاه ليحكي لـه عن أخناتون.. ابتسم في المرآة، أجدادي يشاغلونني وأنا بين أحضانهم منذ عدة أيام ،وتوجه إلى معبد " إدفو" .. في العادة كانت تتسقط إلى أسماعه شروح المرشدين سواء بالعربية أو بغيرها .. رأى مرشدا يخفي استياء من أحد السياح بالإفراط في التأدب والمجاملة له، كان ذلك السائح الذي أعطى ظهره لحسين يسأل أسئلة لجوجاً عن تواريخ أقدم من معبـد إدفـو الحديث نسبياً عن غيره، وسمعه يكرر اسم أخنـاتون، تقـدم

حسين ليصبح في قبالة الرجل.. لقد رآه بالفعل مـن قبـل.. أين؟ ..وانسل المرشد بالوفد إلى مكان آخر، وكان الرجل لا يزال يستحلب بعينيه الأعمدة والصور والإله " مين" ويعـود إلى مكان نوم الكاهن، الذي أصبح فيما بعد قلاية الراهـب.. مطبقا بيده اليمنى على الحديث، تخففت قبضة السائح علـى المجلة فظهرت على غلافها صورة عائلية لأخناتون وزوجته نفرتيتي يدللان بناتهما.

- أمعجب بأخناتون؟

- بالطبع ، أتعرف أن ثمة افتراض أخيراً لأحد هـواة الفلك والحضارة الفرعونية، يشير إلى أن أخناتون قام بثورته الدينية بعدما شاهد في فترة صباه كسوفاً كلياً للشمس. . وقام بذلك عقب اقتراح باحث فـي علـم المصـريات جـدول " كرونولوجي" جديد يبين التواريخ الدقيقة لعصـور الملـوك المصريين. بحسب تسلسلهم الزمني.

- أهو مؤلف" عصور في فوضى؟".

- لا .

- هي إذن موضة ترتيب الأزمان.

- أنت تعرف أنه لا شيء يقيني في مثل تلك الدراسات.

ودفع السائح بالمجلة إلى حسين، ليلـتهم فقـرات قـدر استطاعته وهما يتجولان.

" وفقاً للتواريخ التقليدية، فإن أخنـاتون صـعد عـرش مصر في أواخر مراهقته في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، في أوج نجاح عسكري واقتصـادي غيـر مسـبق لمصر..

ويرجح أن يكون " أمينوفيس الرابع" الذي أسمى نفسه " أخناتون" أي " ذلك الذي يقتنع به قرص الشمس" قد شاهد في طفولته كسوفا كليا للشمس، الذي كان بالتالي كسوفا كليا لـ ـ "آمون" مما حدا به إلى الشعور بحاجته إلى إله صـوفي ذي قوة محركة للشمس، باعتباره الإله الأكبر والأسمى ، الذي لا تؤثر عليه ظواهر وقتية كالكسوف، وبالتالي فقد تحول تمرده المراهق في الوقت الذي كان يعاني فيه من مشـاكل نفسـية وصحية إلى " ثورة دينية" أثر فيها انعزاله عن العالم،وهو ما يتبدى في رسائل تل العمارنة.

وتوضح طريقة رسم آتون أن أخناتون قد شـاهد ذلـك الكسوف الكلي في فترة كانت فيها البقعة الشمسية فـي ذروة نشاطها.. باستخدام التواريخ التقليديـة التـي تحـدد عهـد

الأسرات الملكية المصرية،فثمة ترجيح – باستخدام الكمبيوتر – لوقوع كسوف كلي للشمس في الأقصر بين منتصف الليل والساعة الثالثة عصرا، أو بين الساعة الخامسة عصرا حتى الحادية عشرة مساء في ٢٠ يونيو ١٠٧٠ قبل الميلاد ، ذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن آخر كسوف للشمس حـدث بـين عامي ١٩٩٠/٨٩ أي بفارق ٢٩٥٩ عامـا عـن كسـوف أخناتون. وهو الكسوف الذي يعني للشـعب- الـذي يعبـد الشمس – كسوف إلهم.

ويرجح أن عمر أخناتون في فترة الكسوف كان يتراوح بين ثماني إلى ستة عشر عاما، ويعتقد أنه توفي بين عـامي ١٠٣٦و ١٠٢٦ قبل الميلاد.

في كسوف ١٠٧٠ ، كشفت السماء المظلمة في النهـار عن كواكب المريح وفينوس في الجانب الغربي من السـماء أما في الجانب الشرقي فقد ظهر كوكب المشـترى، والـي الغرب بانحراف ثلاث درجات ظهر عطارد ،وذلك في لوحة بانورامية يندر أن تتكرر .

** خرج حسين من الإنعاش وقضى فترة نقاهة طويلة بالمستشفى، عادت به تودد إلى البيت وقد اكتسب توردا فـي

بشرته وبعض الوزن أيضا، فرحت به.. وإن توجست أنها " حلاوة الروح" زارتهما جارة، فشهقت متهللة بصحة حسـين الزائفة: " ما أنت أهه زي الحصان".. فصـرخت تـودد .. وراك ثعبان.. شهقت الجارة مرة أخرى ، تلفتت ولـم تجـد شيئاً وتفلت في صدرها من الفزع.

-تظنيني أحسده؟

- لا عليك يا أخت، سأحضر لك طاسة الخضة.

أرجعت تودد المنديل عن رأسها ، ثم شدته لتسويه على جبينها .

فيما بعد قال لها حسين معاتبا: ألن تكفي عن التطير يـا تودد، أن تخففي من ولعك بالترتيب والنظام،كم مـن مـرة ترتبين سريري بعدما أفارقه،حتى تصبح الملاءة دون كسرة أو كرمشة إطلاقا ،وكأنك تغيبين الأثر الذي طبعـه جسـمي على السرير.

-صديقاتي يقلن إن ذلك نوع من التسلط القهـري، ثـم همست لنفسها: يروعني أن يؤذي حسين، هشاشته ترشـحه للأذى ، لأن " نجمه خفيف"، وقد بكتتني يمنى صديقة صافيا مرة على ما يكتنزه عقلي مما تصفه بأنه خرافات.

كمن قرأ أفكارها، سألها حسين:

- لم كنت تغمزين وأنت تردين على يمنى أثناء زيارتها لي بالمستشفى، وقلت إن الإيمان بالخرافات أفضل من الـلا إيمان بالمرة؟

- لا شيء ، لا شيء.

- يا للنساء! المهم رتبي حقائبنا للسفر بعـد غـد إلـى سوريا ولبنان.

** في الجامع الأموي بدمشق ، تهجدت تـودد كثيـراً داعية الله أن يشفي زوجها وأخذت تحكي مع بعض النسـاء بالجامع، بينما حسين أخذ يتملى من النقوش الجميلـة التـي أظهر الترميم جمال وروعة الفن الإسـلامي، وتفكـر فـي مزيجه من الفنين البيزنطي والساساني فضلا عن القبطـي، وما أضفته عليهم من طابع خاص خاضع لتوجهـات الفكـر الإسلامي.

التقط صورة لزوجته وهي بالبالطو الأسود الذي يغطي الرأس، بعد خروجهما واصلت تودد ثرثرتها: ألم تـر تلـك المرأة البدنية؟

- ما أخدتش بالي.. كلهن متشابهات بالأسود.

- هذه المرأة هربت أيام الحرب الأهلية اللبنانيـة مـع وليديها أثناء احتدام القصف، اتخذت الطريق العسكري عبـر الجبال والمشابه أو الموازي، لا أعرف و لطريق المصـنع من بيروت إلى دمشق،وتركت زوجها وثلاثة أبناء آخـرين لهما على أن يلحقوا بهم.. وانتظرت أسبوعاً ولم تلتئم العائلة بعد وأخبار المعارك والقذائف التي تهدم العمارات وتصـرع الناس ترعبها كلما مر الوقت..فذهب لزيارة الجامع الأمـوي للصلاة ولتدعو الله، وسمعت النسوة هناك يتحدثن عن بركات الجامع، والنذر لاستجابة الدعوة.. وكانت امرأة شكاكة، لـم أعرف من طريقة حكيها.. هل هي تشك في أن يلحـق بهـا زوجها وبقية أطفالها،و أنها قاربت اليأس.. أم أنها تشك فـي بركات الجامع؟ .. ما علينا.. المهم أنها نذرت – متهكمـة – إن عاد زوجها وبقية أولادها، أن تتبـرع للجـامع الأمـوي بـ "كسـتبان" مـن الزيـت.. وحـدث أن عـاد أحبائهـا سالمين،وبكت من فرط فرحة و مـن نـدم علـى تهكمهـا يومذاك.. فوهبت برميلا من الزيت للجامع .. وعجبـا فلـم يستطع أعتى الرجال أن يزحزحوا البرميل عن مكانه ليدخل من باب الجامع رغ اتساعه.. وتعجب شيخ الجامع ، فحكـت

له حكايتها.. قال لها: لا عليك، عليك أن تفي بالنذر حرفيا.. فغمست كستباناً داخل برميل الزيت.. ودخلت بنفسها حاملة كستبان الزيت إلى الجامع.

سألها حسين وهما يتجولان بين الحواري متجهين إلى مسجد السيدة رقية: أتصدقين ذلك؟

- يا خبر أبيض، أستغفر الله ، بالطبع أصدق.. كم أوجع المنطق عقولكم.

كان حرس مسجد السيدة رقية البالغ الفخامة من الأفغان الذين فروا من الحر بالأهلية وكرسوا أنفسهم لخدمة المسجد.

بحلول المساء، صعدا جبل قيسون الذي يتلألأ بأنوار منازله حول دمشق، كثر السكان فسكنوا الجبل ،واقتطعوا مساحات من " الغوطة" الأسطورية في جمالها.

وباجتماع عائلي مع أسرة زوجة أخيه، حكى حموه عن فترة الوحدة بين مصر وسوريا.. وعن نكات انطلقت في دمشق،وانتشرت في القاهرة وأخرى انطلقت في القاهرة وضحك لها الشعب السوري.. سأله حسين أن يحكي واحدة.

- بالطبع تتذكر المذيع المشهور أحمد سعيد.

- نعم، كان بصوت العرب.

- يقال إن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قام بزيارة دمشق،و أذيعت عل الهواء مراسم الاحتفاء الشعبي السوري بمقدم الرئيس. فقال أحمد سعيد: هاهم جموع المرحبين مـن الشعب تلتف حول الموكب وها هي السفن تمخر عباب نهـر بردي العظيم مثلما تمخر السفن عباب نهر النيل العظيم.

فمال على أذنه أحد المسئولين السوريين: اعمل معروف يا أخي، لا تفضحنا.. فنظر إليـه أحمـد سـعيد دهشـا و الميكروفون بيده، مستكينا شرح المسئول هامسا: نهر بردي ما بيمرق سمكة.

بدا حسين شاردا، لكزتة تودد مشاغبة أياه.. فقال: إيـه لشد ما تغير أخي " محمود".

- كيف ؟

- أصبح مسئولا.

-شيء طبيعي.

- في مرة ، صحا من نومه متكاسلا قـرب الضـحى صاحت به أمي: ألا تعمل؟ فرد بلا اكتراث:" لا .. بطـال.. خالي شغل". وجلس على المقهى المجاور لبيتنا منغمسا فـي

دور " قمار " محموم بـأوراق الكوتشـينة، كنـت صـغيراً آنذاك،ورق له قلب أمي " إنده له ،قل لـه أن يـأتي علـى الغداء".

في العادة ، كان من لا يعمل وليس معه نقود ، ليس له – في عرف أبي – إلا المبيت في البيت فقط، بلا طعـام، إذ يرى أنه صعب عليه أن " يصرف على شحوطه" أي ينفـق على الكبار.. وذهبت إلى المقهى، رفض أن يأتي ليس تعززا بل لانغماسه في لعب القمار، عاودته في العصر، ثـم فـي المغرب، كان ينضح عرقا،واحمرت عيناه. وفـي العشـاء.. انتهى دور اللعب، كسب كثيراً، أوراقاً تلال من فئة الجنيـه والربع جنيه و الربع جنيه والشلن والبريزة.. رمق إليها دون تحديق أو اهتمام.. ثم تركها وانصرف.

كحبل مشدود ، استرخى ثم ترهل.. كعصفور حبـيس وقف على باب القفص مشدوها غير مصدق ، طار واهنـا ، شق الفضاء بنعومة،أسرع بعنفوان.. انفك حسين من عقاله – حسب تعبير الصحراء – وظل يجتر ويفضفض،ويبوح.

قال : كثيرا ما كان إخوتي " يطفشون" من البيت تاركين البيت تجنبا للمنازعات مع أبي و لأ أتذكر أين كانوا يبيتون،

لعله بيت جدي، أو بعض أصدقائهم،وكانت أمي تقلي السمك – نصيب الغائب –جيدا حتى لا يفسد السمك في اليوم التالي، لعله يأتي.. فلا يفوته شيء مما أكلنا خصوصاً مما كان يطلق عليه جدي " الطبخة السودة" وهي عبارة عن " زفر" بطة من دواجن تربيها أمي أو لحمة، ولا تقام وليمتها إلا يوم الجمعة من كل أسبوع أو أسبوعين. مثل تميمة يستعيذ بها المتصوفة مع تطويح رؤوسهم ردد: لطالما أوقع بيني وبين أخوتي قائلا لهم إنني الوحيد الذي أنفق على تعليمي دونهم جميعاً.

** في الطريق إلى بيروت مناظر جبلية بديعة، تفسدها العمائر المثقوبة بالقذائف والتي لم تصلح بعد، ولفـت نظـر رفاق الوفد أن التأشيرة التي حازوها على الحـدود اللبنانيـة لمدة شهرة، قالت تودد: دعنا نترك الوفد في بيروت ونتجـه إلى صيدا لزيارة أخيك وعائلته ونعود إلى دمشق.

بدا المرشد السياحي السوري مترددا إزاء ذلك الاقتراح ،ومن جانبي أعطيت أحد الرفاق رقم تليفـون منـزل أخـي وتليفونه المحمول،وعلى مدى ساعة قبـل أن تصـل إلـى "شكرية" صيدا، تجمع شتات حنيني لعائلة أخي ودفء وحنان

زوجته " رفقة" .. هي المرأة كما يجـب أن تكـون الـذكاء والتواضع والعطاء والإيجابية إزاء الحياة.

لن تنس تودد مشهد الدعة والمودة والسكينة.. إذ قامت " رفقة" تمسح على جبين زوجها .. وتشاوره، مـدخل رائـع لنقاش زوجين قد يختلفان ولن يحتدما،وعندما اعترفت الابنة الصغيرة لتودد " لي ثلاثة شهور ما ضهرت " أي لم تخـرج من المنزل، استغربت تودد وهي بنت عائلة دمياطية محافظة فأوضحت لها أن مناطق الشكرية وعين الحلوة هـي تجمـع طائفة السنة المحافظة بطبيعتها.

سأل رفقة : ألا تزال حارة " طل وارجع" قائمة؟

ردت باسمة : بالطبع.

ضحكت تودد: إنه الاسم ..دمه خفيف.

** اجتمعت العائلة و أقارب رفقة وبعـض جيرانهـا، ومنهن امرأة فضولية تسال حسيناً وتودداً أسئلة دقيقـة عـن رداءة العلاقات داخل العائلة، وعن علاقتهم بأبيهم.. لم تفهـم تودد تدخل تلك المرأة إلا عندما صـرحت بأنهـا مصـرية تزوجت لبنانيا منذ ربع قرن، قالت بفخر إنها تعـرف جيـداً عن حياة كل واحد في العائلة وأن الوالد يحكي لها كل شيء.

رد حسين ساخراً: يحكي ملحمة!!

لم تفهم السيدة ذلك الكلام " المثقف" فأردف : لا عليـك فهو مفتون بحكاوي الرثـاء لذاتـه، وأن أولاده قبيلـة مـن الثعابين آواهم في بيته.. ألم يقل لك اسمي الحركي؟

تخضب وجه المرأة حرجا.

- لا عليك .. ألم يدعوني رأس الحية؟

وغير أخو رفقة دفة الحديث فسألهما عن سـورية،وكان ينطق الاسم بمرارة ، فاستفهم منه حسين عن ذلك.

-قرأت في صحفهم في الأيام الماضية كلاما واضح أنه يتردد من قبـل ولا يزال،وهـو أنـه إذا سـحبت سـوريا جنودها،سوف تلتهمكم إسرائيل.

توقف كلام حسين فجأة إذ لم يبغ أن يؤجج تلك المرارة بصور زعماء دينيين منتشرة في شـوارع بيـروت وعلـي الطرق السريعة، كل يدعو لنفسه أو لفرقته الدينية.

ورن الهاتف المحمول لـ " سامي " وسمعته تودد يقول: نعم أنا هو، لكن من حضرتك؟ وتكهنت أنه الوفد السياحي.. أمسك الهاتف، ليخبرها المرشد السياحي أنهم موقوفون على الحدود، ولم تسمح لهم إدارة الحدود اللبنانية بالخروج دونها.

- لم ؟
- لأن التأشيرة جماعية للوفد كله.
- إذن نحن قادمان.

قالت رفقه : " قلبي غليان عليكن، لما توصـوا الشـام طمنونا".

و أصر سامي أن يصحبهما في سيارته،وقدر أن يصلا إلى جمرك طريق المصنع في غضون ثلاث ساعات.

في كل ربع ساعة، كان الهاتف المحمول يرن: أين أنتم الآن؟

- على طريق الشوف.
- أنحن حقا على طريق الشوف؟
- ليس بعد، لكن ليطمئنوا أننا اقتربنا منهم.

تقول تودد: يناوشني إحساس بالذنب لأنهـم ينتظروننـا لساعات.

سأل سامي : أحدثك محمود عن قلقه على الفلوس اللي مع أبينا؟

- نعم.

إلا ترى أنه قلق مبالغ فيه، هل سيأكل أبونا ماله؟

مدعيا حسين البراءة: ألم يحدث ذلك من قبل؟ يبـدو أن بعد المكان وعدم رؤيتك له منذ سنين تزيد علـى العشـرة.. جعلك تفكر في أبيك بنوع من " الحنين" الذي يجعلك تعتقد أنه قد تغير.. أنا أعلم أن " بكائياته" تصلكم في شرائط الكاسـيت بانتظام.

- وصحته؟

- أفضل من صحة شاب.. والسيدة جارتكم التي رأتـه يحجل في مشيته واشفقت عليه.. لو مشيت قليلاً واسـتدارت لترقبه بعد توديعها، لرأته يسير بمنتهى الحيوية.

صاحت تودد: لقد مررنا بالكثير من المخافر السـورية على السريع ، حينما نتوقف كان يشير إليك إشارة لا مبالية: استمر.

رد سامي : قبل سنة كان عـددها الضـعف.. يمكنـه ببساطة توقيفنا وتفتيشنا.

بقلق تمتمت : سيستقبلنا الوفد بسيل من العتاب.

ووصلوا إلى الأتوبيس المنتظر،ومن شدة دهشتها،وجدوا رفاق الوفد يصفقون لهما.

اعتقدت تودد أن المشكلة انتهت عند هذا الحـد.. لكـن مسئولا بالجمرك، صعد إلى الأتوبيس ومعه جوازات السفر، محدقا النظر بوجوه الوفد،وشاغبه بعض الشباب في الأريكة الأخيرة، فما أن يدير ظهره، حتى يحدثوا أصـواتا، يلتفـت فجأة، يجدهم نائمين، رغم فهمه لم تفارق الصرامة وجهـه.. وأطال النظر إلى أحد الركاب، وأغلق الأخير عينيه.. مـاذا يفعل؟.. " اللي يصير بيصير" حدث نفسـه .. ثـم استسـلم الموظف ونزل.

سألت تودد: لم توقف عند هذا الشخص بالذات؟

- إنه فلسطيني.

سار الأتوبيس عائدا إلـى دمشـق.. اقتـرب المرشـد السياحي متلطفا من حسين وحادثه في نزهـات الوفـد فـي بيروت،وفجأة سأله: يف الوضع الأمني في الجنوب؟

بهت حسين لثانية من الوقت،ورد من فوره متهكمـا: " هو إحنا لحقناً!".

احتوت الأتوبيس ظلمة الليل، إلا من أضـواء مبعثـرة داخله، قال حسين: أتذكرين يوم ركبنا ما يشبه الطوف فـي

جولة في بحيرة ناصر التي بدت مياهها كبساط مـن نجيلـة خضراء شذبت جيداً؟

ردت ولسان حالها يتساءل : نعم أتذكر.

-هذا البساط هو مات أخافني ، لقد راودتني هواجس أن الشكل الساكن للماء قد يغريك بمد قدميك خـارج الطـوف لتخطرين فوق الماء.

مسحت تودد جبهته بيدها، احتضـنت ذراعـه،وأمالت رأسها على كتفه.

** عاد حسين للرسم، لا يخرج من المنزل إلا لماما.. يراقب الأشجار والصبار الأخطبوطي والطيـور.. عنـدما يلاحق صورة أو لونا في ذهنـه، يتجـول بـالمنزل ويـداه معقودتان خلف ظهره.. يحدق دونما تركيز في منظر ما، لا يراه في الحقيقة إذ أنه يتأمل ما بداخل رأسه.. وذاك اليـوم، حدق بالكلب العجوز الرابض بالقرب من منزله.. " لكم شاخ ذلك الكلب!" يهدر بعوائه إذا ما دخل غريب سواء كان قطة أو إنسانا أو حتى كلبا صغيرا إلى دائرة عرينه.. كان يصبو إلى الصمت و الهدوء ، يستحاب بنصف ذهنه إلـى دائـرة عرينه.. كان يصبو إلى الصمت والهدوء، يستحب بنصـف

ذهنه السكون الأبدي لشارع قلما تطرقه سيارة.. ينزعج قليلاً لأي صوت حتى لو كان رفرفة حمامة، ثم يعود لاعتكافـه.. منتظرا ساعة ما قبل الغروب حين تصدح العصـافير فـي الأشجار كثيفة الأوراق، كأن ثلاث فرق موسـيقية يقودهـا ثلاثة من المايسترو – كل يرى أنه الأفضل – وكلٌ مصـر على لحنه الخاص (من يخلي بينه وبـين تلـك الفوضـى الشقشقية؟).. لا يملك الاستسلام حتى مغيب الشفق الأحمر.. وتهجع العصافير، ويظل مستيقظا إلـى الورديـة المسـائية لحماية منطقته / مملكته.

**صاعدا من سرداب عميق.. فتح عينـين تحوطهمـا هالات زرقاء " هيا شد حيلك لنا فترة لم نسافر" باسمه تودد، خطر له: منذ متى لم أرها؟ .. فتح فمه ليقـول لهـا إنهمـا ارتحلا بالفعل.. جاء صوته فحيحا.. لكنهـا قرأتـه ، ردت عليه: حقا؟

اعتدل في جلسته على فراشه: قبالة الشاطي المشـجر ، على بعد نحو ميلـين ترقـد صـخرة مسـتطيلة، بلونهـا الجيري،وسط زرقة عميقة داكنة فيمـا وراءهـا ،وأمامهـا

أخضر مائي، ينسجم بحب مع ألوان صخور الشط ذات اللون الجيري والطحلبي والبني والأصفر الفاتح؟

الصخرة تنحدر واجهتها المطلة على البحـر العميـق، هابطة في اتجاهها نحو الشاطئ، نبتت عليهـا شـجيرات.. والشجيرات في واجهة الساحل القائمة على منحـدر ، لهـا سيقان وجذوع أكثر قوة وضخامة.. فكأنها تقاوم زاوية الميل واتجاه الريح.. صخرة بشجيرات.. مطارحة دامت أبدا بـين الحجر والماء، والبحر والمطر.

-ماذا أيضا؟

تلال ساكنة تبزغ بجـلال ، بـين السـحب المتصـلة بالضباب المتصاعد من الأودية، بين التلال.. وقفـت علـى أعلاها،وهو أولها أو آخرها لا أدري ، سجدت خاشعا لتلـك التدرجات اللونية، مثل متتالية موسيقية،سوناتا سـماء بلـون أبيض حليبي يصعد داكنا إلى اللبني، بخط رصاصي فاتح.

ثم التل البعيد.. البعيد، رصاصي إلـى الرمـادي فـي وسطه واسفله، والتل الثاني بأجواني مخضب برمـادي مـع قمة بنفسجية تتداخل مع اللونين، ثم أبيض أشهب من بخـار يصعد من السهل ،وقرية تبزغ من ذاكرة القرون الوسـطى

على قمة التل الثالث. بنفسجي يميل إلى الرمادي مع سحائب بيض من غير سوء.

والتل الرابع مظلم معتم برمادية سوداء والخامس معـتم كله إلا من ضوء شحيح يكاد لا يبين قمة الأكواخ، يتـداخل مع السادس ليرسم إصـبعين بعلامـة النصـر، وسـحائب أرجوانية تنطوي داخل أبيض رمادي، ثم التل السابع، أسود ليس غطيسا، فذؤابات أشـجاره اخترقـت المشـهد.. وأرى بعيني خيالي أسراب طائر الغر تصـلي صـلاة الترحـال الشتوي إلى الدفء الجميل في دمياط.

سبعة تلال، أيام سبعة.. ألا أيها الموت، اسجد خاشـعا وتبتلا للجمال والجلال.

قرأ السؤال في عينيها فقال : ما لم تنسب الألوان مـن أهداب فرشاتي.. فإنني أحلم بها.

** في الغردقة أبحر الرجال في قارب بخاري مستأجر لمدة يومين يمارسون هواية الصيد أو التأمل.. لـم ترحـب النسوة بمشاهد الشعاب المرجانية إما خوفا من توغلهن تحت الماء ، أو لأنها رأتها من قبل ولمستها بيدها مثل سيلفيا.

بقيت تودد وصافيا ويمنى وسـيلفيا يـنعمن بالشـاطئ ووجبات الإستاكوزا والجمبري المدفون فـي الأرز بنكهـة القرفة وصاحت سيلفيا: يا بنات، توقفن عـن إكمـال أكـل الإستاكوزا.. فقد تذكرت شيئا.. بعيون لا مبالية تشـخص ال يالاستاكوزا فحسب، صدرت عنهن همهمة: لماذا؟

- إنها تقوي الرغبة يا فتيات.

فضربت يمنى على صدرها وقالت بجرأة: أربع سيدات ولا رجل واحد.

تضرج وجه صافيا و تودد، وضحكت يمنى وسيلفيا من حيائهما.. واحد.

تضرج وجه صافيا وتودد وضحكت يمنى وسيلفيا مـن حيائهما. وقالت سيلفيا: سـأحكي لكـن شـيئاً (فـي نيـو أورليانز، أحدى ولايات الجنوب الأمريكي، مدينة وليزيانـا وفيها ما يعرف بالحي الفرنسي، وبه شارع"بوربون" يشاهدن به العجائب – بالنسبة لكن أيتها المصريات – نسـاء شـبه عارية، يرقصن في نوافذ العرض، عاريـات الصـدور أو السيقان.. موسيقى جاز صاخبة، موسيقى تناسب مـن كـل مقهى خال.. عروض " ستربتيز" يعرض فيه رجال ونسـاء

على حد سواء.. يحمل المراهقون علب البيرة، يحتضن كل منهم الآخر، ليس من توله أو حب و بل لتفادي السقوط ترنحا، لأنهم جد ثملون.

مفعهم شارع بوربون بالنساء الجميلات.

في حلق الشارع ووسطه.. منظر غير عادي لفتيات وفتيان يرتدون ملابس محتشمة، الفتية شعورهم حليقة في تسريحات كلاسيكية بعيدة عن صرعات الموضة، الفتيات أطلقن شعرهن مسترسلا أو ملموماً في " شينيون" أو ضفائر عذرية.

كان الشباب يحملون الصليب،ولوحات مكتوب عليها "حيدوا عن هذا الطريق و إلا احترقتم" ، "ثق بيسوع"، "حان وقت التوبة"، "مملكة الرب تقترب".

الرجال والنساء مصطفون في الشرفات وفي أيديهم أكواب برميلية الشكل مليئة حتى حافتها بالجعة، ينظرون إلى الشباب البوريتاني/ المتطهرة نظرة محايدة، كأنهم ليسوا المعنيين ، يواصلون ضحكات منتعشة، وتثنياتهم الرشيقة على سور الشرفة.

وبالرغم من أن أحدا لن يتوب في تلك اللحظـة، فـإن العابرين الذين يمرقون عبر الشارع سراعا، قد يفكـرون أن ينعطفوا بعيدا عن شارع بوربون، وإلا احترقا بـ .. بنار..

ضحكت بغنج : أي نار يا ترى؟

تململت تودد في جلستها،و بحركة لا شـعورية شـدت طرف تنورتها حتى تداري كعبي قدمها داخلهـا.. بسـرعة بديهة ردت يمنى: نار الذوب، التشظي واللملمـة، وحشـية عذوبة لا ترحم، التلاشي.. أو ..

نور النار ، توهجها، وجدها.. ضـياء تتشـربه نفـس الإنسان ليصبح جزءاً لا ينفصم من فضائها، إشراق الروح ، شبعها،حبورها.

وقالت صافيا: ومن الممكن أن يبتعد المرء تماما " بـره اللعبة" فلا ذاق حلاوة النار ولا لسعتها قط.

عضت تودد شفتيها، مستنكفة في داخلهـا مثـل هـذه الأحاديث الصريحة.

** في مساء اليوم الذي يعود فيه الرجال، يجتمعـون، يمرحون،يوغل بهم الليل.. كان أوهام وسيلفيا و "وليد" أشدهم انتشاء ، بادورا،وهم على شاطئ البحر والسـماء مبـذورة

بنجيمات ساطعات بتناول كل ما وصلت إليـه أيـديهم مـن قناديل وأطباق صغيرة وطاسات ووضعوا داخلها شـموعاً، أشعلوها ثم دفعوها لتطفو علـى المـاء.. تتلاقفهـا أمـواج وسنانة، مدغدغة، ويااله من سحر خلاب، بحر ينطوي علـى ظلامه إلا من ذبالات شموع تتراقص على سفحه.

انطلق ستة رجال في القـارب البخـاري فـي البحـر الأحمر، الذي كانت مياهه ناعمة صـافية كالزجاج،وأوغـل النوتي بهم، بسرعة كبيرة لا يضـاهيها إلا بـدء اضـطرام الأمواج وزمجرتها، إذ تحولت الأمواج الصغيرة المتلاطمـة إلى أعراف جياد بيضاء جامحة، كان القارب يهتز بعنف إلى الأمام والي الخلف فيما كانت الأمواج تسلك مسـلك حـرس السواحل في خطواتهم العسكرية.

تقاذفت الأمواج القارب إلى أعلى وأسفل مثل قطعة من الفلين،وكان لابد من تغيير اتجاه القـارب بعـد أن انتفعـت ملابس شهاب، أوهان ، وليد، سليمان حبيي،وحسـين مـن تطاير رذاذ الأمواج وكانوا مبتهجين.

أما على الشاطئ ، كانـت الأمـواج المتكسـرة علـى الشاطئ ترتد على نحو ارتجاجي ، نظرت النسوة من شرفة

الفندق، ولم تعرن انتباها وانكببن على أحـاديثهن الخاصـة، تودد ابتعثت مزاجا قلقا.. ونسيت الأمر.

قال شهاب : أتعرفون أن تحت هذه المياه مدنا؟

-مدن غارقة؟

ليست كذلك، بل مدن العجائب البيولوجية التي تعد أكبر وأقدم المجتمعات الحية من النباتات والحيوانات على وجـه الأرض.. مرت بمراحل تطور وارتقاء تتـراوح بـين ٢٠٠ إلى ٤٥٠ مليون سنة مضت.

-تقصد الشعاب المرجانية!!.. إنهـا لواقعـة الآن فـي مأزق في الصيد وطرقه المدمرة لها كالصـيد بالـديناميت.. وحتى يتم استعادة شعاب مرجانية استهلكت أو دمرت فلابـد من الانتظار ما بين خمسة إلى عشرة آلاف عام.

- ثروة فادحة.

يتناقش الرجال بينما يشخص أوهان إلى المـاء بصـبر عميق و ينتظر أن يفلح في صيد سمكة.

يحكي شهاب: مجتمع الشعاب المرجانية يشـبه مدينـة حققت اكتفاء ذاتيا بالغا تحت البحر ، حيث كل تجمـع مـن الحجرات له حديقته الخاصة. ومثلما تتميز غابـات المطـر

بمظاهر للحياة لا تعد ولا تحصى في كل طبقة مـن الجـزء الأعلى من الغابة، كذلك تعتمد كائنات حيوانية ونباتيـة فـي حياتها على الشعاب.

يغالب أوهان سمكة انغـرزت فيهـا كلابـات الصـيد وطعمه.

يواصل شهاب: تتشكل بعض الشعاب قشرة رفيعة فوق طبقات أقدم وأكثر كثافة في هيكل الشعاب، ففي الحقيقـة أن غالبية مستعمرات الشعاب المرجانية ميتة.. فقط تلك الطبقات العلوية تغطت ببشرة رقيقة متغيرة من الشعاب الحية.

يقول حسين: أتذكر ما قاله المرشد في القالب الزجاجي المخصص لرؤية الشعاب، أشار إلى أن المرجانيات الصغيرة الشفافة في الشعاب المرجانية هي سيدة بنيات الشـعاب فـي البحر، فهي تقيم هياكلها المعمارية كقطعة من الفنون الجميلة على بقايا الأسلاف.

والمرجانيات تفرز كربونات الكالسيوم (المكون الرئيسي للحجر الجيري) الذي يتشكل في البيوتـات الضـخمة التـي يبتنونها بأنفسهم. ومن ثم فهذه المرجانيات توفر مأوى فاخر للآلاف من أنواع المخلوقات البحرية.

يئس أوهان من مراودة السمكة، فتركها معلقة قليلا علها تتعب والتفت إلى أصحابه قائلاً: باعتباري عاشقا للأشـكال والألوان مثل حسين،شاهدت في كتاب مصور – ذي فصـل رائع في الطباعة لألوان الصور – أنواعا بالغة الثـراء فـي أحجام وأشكال الشعاب المرجانية: فمن المخرمات الرهيفـة للمراوح البحرية إلى قرون الوعـل المتفرعـة، أو قـرون الأيائل إلى الشعاب المنتفخة الدماغ، والتـي تبـدو كـدماغ إنسانية ضخمة تحررت من الجسد.

عازما، لف أوهان بكرة الدوبارة بقـوة لـدفع السـمكة لأعلىو فأفلتت من يده.. فجذب السمكة بقوة أكثر، ووقع على ظهره.. دافعا شهاب وحسين المنهمكين فـي الكـلام إلـى الوقوع، أحدهما على جنبه والآخر على المقعدة.

ومن خرج قال ساخرا: أي ردود فعل معقدة تلك!!

نفض الثلاثة أيديه،وثبت أوهان قبعته المختصرة كإكليل شوك على رأسه.

تعاون الرجال في جذب السمكة لأعلى، لـم يفلحـوا ، تكهنوا أن وزنها أكبر مما يقدرون.. قـال أوهـان مشـجعا

صحبه: لنتعاون ونتقاسمها،عادوا الكـرة وفشـلوا ،اقتـرح سليمان بلؤم: هي من نصيب من يوصلها إلى ظهر القارب.

نأي حسين بنفسه ، يشعر بالإنهاك عند أقـل مجهـود، وبدأ شعر رأسه وحاجباه ورموشه في التساقط ومنحه الهزال لونا داكنا.

هاد الدور إلى أوهان بإصرار لم يخبره قبـل أن يبلـغ الخمسين من عمره، حشد كل طاقاته وكثفها وقفزت سـمكة ليست بالضخامة التي توقعوها وإن كانت بعنفوان سرب من الأسماك مجتمعا.

صاحوا يهنئونه: هي لك

نظر محتارا.

سخر وليد: بحوزتك صيد ثمين وحائر بما تفعل به؟ إنه كنز.

اجتر أوهان حياته في أقل من الثانية من الوقت،بمرارة همس: أني لي بأي كنز،وقد تيبس عمري وأصبح مزاجـي خشنا.

حسين: ألم تسمع عن عبقرية السوداوية التـي داهمـت الفنان التأثيري الأشهر " إدجار ديجا" في كهولته ، حين غرق تدريجا في العمي والمرارة، فظهر ديجا آخر غيـر مـألوف واتسمت أعماله بالعصوبة وإن لم تكن أقل تألقا .. في الثامنة والخمسين لم يعد رسام حياة الليل ، وتخلـى عـن اللمسـة الملساء على لوحاته.. ألم يقل عنه صديقه " أوجست رينوار" بأنه إذا كان يجا قد توفي في الخمسين من عمـره، فلسـوف يذكر كفنان بارع ولا مزيد.. أما بعد ذلك فقد اتسعت أعماله وأصبحت معبرة عنه حقا، لقد أصبح ديجا هو حقيقة ديجا.

كأنما المناقشات وحفلة الشموع الطافية علـى المـوج تستنفد الشعاع الأخير من طاقة حسين الواهنة.. وسقط فـي إغماء طويل.

بعد أسبوع في الإنعاش ، تبدلت ذاكرة حسين إلى شاشة شاغرة الا من مشهدين ألحا عليه، فيه رأى دبابيس مغروسة في كفه .. انزعج لعجزه وأعمل إرادته وبدأ يزيلها بأنامـل يده الأخرى، عندئذ تجلى له وجه " مجدي" وجده مشرقين.

يدخل حسين كهفا يشبه هيكل أحد المعابـد المصـرية، الباب متسع، السقف عال ، الحوائط صفائح مرمرية ، يغتسل

المكان بضياء الشمس المترشحة عبر المرمر الأبـيض، ثـم تقترب الجدران شيئاً فشيئاً ، كأنما نهار يتقدم نحو غروب ، يتشح الضوء بالغموض كضوء قنديل بعيد ثم عتامة شـفيفة لذبالة شمعة تتلاشى، ينخفض السقف حتي يصل إلـى يقـين بالعتمة ،وضيق الفراغ وتغضن الجـدران ليتـردد أصـداء صوت رخيم يبعث على الرهبة بالنبوءة .. " قدم صـلواتك" أغمض عينيه في وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم " الله لا إله هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات ومـا فـي الأرض" قالت تودد والأطباء إنه كان يقرأ القرآن طوال الأيام الفائتة.. واقترحوا عليه أن يسافر للعلاج بالخارج.

خمس حسين: ليس ذلك ما أفكر فيه.

ردت تودد: معنا من المال ما يكفي سفرك وعلاجك.

هادئاً راضياً قرر: لا أمتلك سوى، " اللضى" أما مـالي فهو لمجدي ولك، سأشتري شقة لكل منكما.. صمت هنيهة.. ثم استدرك: سينزع عني اللضى يوم رحيلي فلا تتركيني.

أصبحت تودد ذات دربة في الابتسام، احتضنت يـده.. دفنتها بين ثدييها و.. ابتسمت.

- الشيء الأروع أن يعيش المرء بكل طاقاته، ويعطـي كذلك بكل طاقاته، أوصيك برعاية مجدي حتي ينتهي مـن دراسته، أو يمتهن حرفة في صناعة الخشب.

** استقرت العائلة الصغيرة فـي رأس البر،واصـل حسين وتودد ومجدي حياة هادئة ، عاود الصـبي دراسـته ،وشغلت به تودد كابن ، رضا عميق يرين علـى النفـوس والمكان.. ذات يوم ارتفع مد البحـر حتـى لعـق أعتـاب الشاليهات المطلة عليه، من قبل كان المد يأكل بملوحة مياهه العشش التي يقيم بها المصطافون.. في رقدته قلق حسين في أنفاسه الأخيرة، مسدت تودد جبينه.

- أين مجدي؟

- نائم في حجرته.

-أتسمعين شيئاً؟

-لا.

- الموج عال .. صحيح؟

- ربما.

- أنا مطمئن وخائف.

- لن يخاف من ستقابله بنورهما والدته وخالته.

أغمض عينيه، وكفه تحتضنها راحتا يدي تودد.. فـتح عينيه، ابتسمت.

- لا يزال المد مرتفعا؟

- ربما.

قبلتها عيناه بنظرة امتنان.. ثـم حـدق فـي السـقف بابتسامة.

شرع المد في التراجع..هادئاً،

الفصل الثامن

" وليد"

- ١ -

يا فتى ... قلبك صاج جديد.. قلبي صاج جديـد.. يـا فتى.. للقبل نشيش الشواء ... وللمس ضـراوة النـار فـي الحطب... فأحذر الكل يا فتى... احذر الكـل ... قلبـك ... صاج حديد، وقلبي كذاك.

أغنية كردية.

لم

ثبتت عين الكاميرا على عقارب ساعة جامعة القاهرة؟ تتأرجح على الواحدة والثلث من ظهيرة أحد أيام السبعينيات، قيظ غاضب لظهيرة صيف.. ليتها كانت ظهيرة خريف أقـل اقتحاما وإبهارا.. جلست الفتيات والفتية على ربوة معشوشبة في صورة جماعية.. الكل يبدو أنضج جسمانيا مـن يمنـى بنحافتها وسيقان تلميذة المدرسة الإعدادية وشعرها الملمـوم في ذيل حصان.. اللون داكن السمرة والقد غير الأنثوي كانا من مشاكل يمنى في قبولها لذاتها حيـث المعيـار الأسـمى للأنوثة موجود مجسداً دائما في أمهـا وأختهـا البيضـاوين الريانتين.

تتساءل عن موعد الساعة الواحـدة و الثلـث؟ (هـل ستتوقف حياتي في ظهيرة عمري اللافحة.. إغواء لا راد له عندي، منحني شجاعة ومزيداً من الشفاء.. محبة الموت، إلا أن اللاجئين والقتلى والمقهورين هم ضحايا محبي المـوت.. اشتهاء كل ما يتعلق بالموت.. الجثـث، الـروائح العطنـة، التشبيهات الغليظة، المنطق السلطوي، بخس قدر الآخـرين، لست أنا منهم ، أحب الموت على نحو شعري، غير قـاس، في وقت تطرق فيه الباب/ الملاذ فتجده مفتوحا على الخواء،

حيث يغيب الترابط العائلي، وتسود الأفكار البالية ذات اليقين المتكلس ، المثاليات الزلقة إلى مهاوي اللا واقع،وغيبيات لا تروى حتى ظمأ الخيال).

** في محطة الرمل أرقب الشروق الـوردي ،وأنـا عروس لزميلي في الحركة الطلابية، عروس رغم أنف أبي، قضينا بضعة أيام في بنسيون " كليمنتس صورتها في لوحـة زيتية فوق البيانو العتيق.

في المبنى الحجري، أفتح النافذة القديمة بطـول البـاب ،أزيح الستائر الشتائية في غرفتنـا وأرى السـحب واجفـة والمساء غير مجلوة بزرقتها ،ترتطم عيني بأرجوانية فنـدق "سيسيل" وسطحه المطرز كتاج ملكي، وأمامه خمس عشـرة نخلة سلطانية، تميس اشتياقاً للمطر ، على حائط الغرفة أرى قعقعة الترام، يتأرجح على القضبان، سيارات تومض، أناس تمشي، يبدو كفيلم كارتون، هل يعرف هؤلاء النـاس أنـي أراهم منعكسين على حائط غرفتي في الدور الرابـع؟ أفـتح النافذة.. أرى قراميد المباني القريبة ورزانة معمار الغرفـة التجارية ذاهلة حتى تُقبلها زخات المطر، أرى البحر، أتذكر

الحب، تنفتح خلاياي برائحة أديم البحر، أتلفت هارعة إليـه، أدس أنفي في كتفه، يثني ذراعه على، أتوسدها.

نشق طريقنا عبر الممرات والصـالة حيـث السـاعة المتوقفة منذ زمن، الثريا الخشبية، لوحات استشراقية قديمـة دون توقيع، الأرضية الخشبية، السقف العالي، نهبط إلى البن البرازيلي لاحتساء الكابوتشينو أو قهوة الإكسبرسو.

نبحث في محطة الرمل عن إسكندرية "كافافي" ، بيتـه القريب حيث أزيلت مبان لتنفتح شوارع جانبية، وإعلان عن بيرة " تنتز بيرلسنر" والترام عبارة عن قاطرة واحدة، هـل كان يتجه إلى رأس التين كما الآن.. وشارع جامع العطارين والمحال ذات الحوائط العالية مثقوبة بمخرمات مثل مخرمات الدانتيلا، والتندات هابطة على مقدمة المحـل احتمـاء مـن الشـمس اللاهبـة.. وعربـات حنطـور تجرهـا الجيـاد، والحنطرجي يعتمر طاقية ويلبس جلبابـا فضفاضـا، يقـف للأفندية والأجانب في فسحة على الكورنيش.. أبحث علنـي أجد جواداً لونه أدهم، إلا من ساقه الأمامية بيضـاء حتـى منتصفها وكذلك ساقه اليسرى الخلفية، كأنـه يلـبس حـذاء طويلا " بوت " وفق أحدث صيحات الموضة.

أعود بواقعي إلى سبعينيات القرن العشـرين، حظيـت وزوجي بصداقة " كريستينا" التـي يطلقـون عليهـا إلهـة الإسكندرية، صاحبة محل إيليت، آخر يونانيـة علـى قـدي الحياة ، عاصرت كلاً من الشاعر " كفافيس" وكاتب رباعيـة إسكندرية " لورانس داريل".. وكفافي في رأيها جليل منـزو، بعينين وسيعتين تريان أكثر مما يجب وتعرفان أكثر مما هو مسموح به.. وتفاجئنا أن شخصيات داريل حقيقية، وبأسمائها الحقيقية " جوستين" الجميلـة الغنـدورة، نصـف مصـرية وقصرها كان في محرم بك.. و "كليا بدارو" الفنانة التشكيلية الشقراء والغندورة أيضاً كانت تزورها وبرفقتهـا أختهـا .. نسألها عن " ميلسا " تقول : لا أتذكر.

كانت الإسكندرية بحر متوسطية بحـق.. الآن نلحـق بالكاد تذوق ما تبقى من البصمة الإغريقية – اليونانية، قبـل أن تتلاشى في تخبط معماري لا يحظى بأي جمال .. وكنت ألوذ بها من قبح شقتنا بمنطقة عشوائية في المعصرة، ويهون على هذا المستوى اللاإنساني من العيش، المكافحة " صـافيا" بالنسبة لي، أن أتذوق المعيشة المتدنية شئ،وإحساسي بمهانة افتقارها لأساسيات الحياة شيء آخر .. فالشوارع طينية زلقة

صيفا وشتاء لا توجد لدي حنفية للمياه فقط برميل أملأه مـن حنفية وحيدة لكل سكان البيت ويتم كسح المجرور الكائن في وسط صالة الشقة شهريا، أو عندما يطفـح الغـائط،وتفيض المياه القذرة في الشقة.. مرة وضعت مشاية أمام باب الشقة، رفعتها بعد يومين ونقعتها في الجاز.ز حيث تكاثر جيش من الديدان تحتها، ديدان تسرح من تحت عقب البـاب.. أخـرج هاربة إلى وسط البلد طوال النهار، تزداد نبرتي حـدة فـي النضال من أجل هؤلاء الفقراء، المرتضين شوارع طينيـة، تدلق فيها النسوة مياه الغسـيل أو تنظيـف ريـش الطيـور الداجنة، أو أي مياه فقط لتقول لجاراتها إن علاقتها بزوجهـا تمام التمام.. لم تر " روزا لوكسمبرج" شيئاً من ذلك، لم تـر الطبقة الدنيا حقا، لقد عشتها ولم أقدر أن أتعايش معهم .. ثمة غضب دفين حيالهم.. قد يكسبون مالا، ولكن بـدلاً مـن أن ينتقلوا لمكان نظيف آخر، يشترون تليفزيوناً وثلاجة فخيمة، هل يستحقون ، عيشهم ذلك؟ في الحقيقة أنا لا أبرئهم تماماً.

كانت لي علاقة طيبة مع " أم مختار" التـي لا يفصـل بيني وبينها سوى شباك صغير في المطبخ ، واسمعها تشكر الله وتصلي له، كل ليلة قبل النوم، لم أسمعها أبداً تقـول يـا

رب ارزقنا ونخرج من هذا العفن، ولا مرة، وعلـي فكـرة كلمة يا معفن أو يا معفنة هي اللغة السائدة فـي المعصـرة سواء للسب أو للتدليل. وكانت أم مختـار حينمـا ترهقهـا الأعمال المنزلية أو يزيد زوجها من الضغط عليها وخنقهـا بغيرته، تبدأ في الهذيان بكلام غير مترابط، تسرف فيه فـي تحقير نفسها،ويعتبر ذلك علامة على حلـول روح أو مـس شيطاني فيأخذ زوجها في التزلف إلهيا، إذا لم تنفـع معهـا جلسات الضرب عند الدجالين.

حاولت أن أحدث جاراتي وأخبرهن أن ثمة عيشاً إنسانياً هن لم يخبرنه بعد، فما كان من أزواجهن إلا إصدار أوامـر مشددة قد تصل إلى الطلاق أو الضرب في حالة رد تحيتـي فقط.. عزلة ما بعدها عزلة، ألقيت بكل ثقلي على زمـيلات الحركة في إثارة تمردهن ومازلت وزوجي في حالـة كـلام وجدل ونقاش ، نعتقد أن الثورة على الأبواب ،أن المناصـب الفكرية أو التنفيذية ستكون من نصيبنا.. وفي يوم قلت فجأة" طلقني" بعد أن كان يبيت عند أهله عدة أيام متعللا، بهطـول الأمطار وتعذر المواصلات، أو تأخره في أحد الاجتماعـات حتى الفجر.. وخرجت بحقيبتي وفرشاة أسـناني.. بصـمت

على عتبه الباب التي تركت عندها مثالية هيجل ، فالحقيقة لا تعني الكل وليس التاريخ سلسلة من المضي قدما نحو الكفرة المطلقة.

إن الأوهام تقتات على سذاجة البشر.

كلما تقدمت في العمر واقتربت من السن التي قتلت فيها "روزا لوكسمبرج" قائدة انتفاضة سبارتكوس على أيدي قوات مضادة، أشعر بالخوف، رغم أني تركت السياسـة عـاجزة، خالية الوفاض، يرصد الآخرون ضعفي ويقارنونه بشـبابي حينما كنت أرى نفسي نموذجاً يجب أن يحتذى، وطغيـاني، وتأكيدي استقلاليتي في مواجهة من أدخل معه علاقة حب.. ألذاك السبب قاتلت " ليلي سعفان" كي أبتعد عن أخيهـا؟ .. وذلك في علاقة حب نارية وقصيرة لا تنسى. كان ذا أهداب طويلة كالنبات، وشارب كث، وقلب أبيض، وديون كثيـرة.. ليلي تلك التي كانت تكبرني بعشرين عامـاً ولكنهـا تسـير راضية في ركابي.. انتهت القصة، واسـتمررت صـداقتي وليلي، إلا أني كما يقولون مازلت مزاجية، حساسة، سـريعة الاهتياج وانفعالية،ومريضة بلمسة الرومانتيكية حين أفضـل تأمل باقة أزهار أو سماع مقطوعة موسيقية علـى حضـور

اجتماع. واعية بتفوقي الذهني أنا، ولكني لا أعدم السـذاجة في الوقت نفسه، أحببت معتز الصـامت، وإعجابـه بذاتـه أسطوري ، كان يتأذى من اعتدادي ،ولا يصـفح، وحينمـا دخلت السجن، لم يضيع الوقت ودخل علاقة غراميـة مـع أخرى.

قالت ليلى أثناء مساعيها لإفشال علاقتي بأخيها: " يمنى لا تنسي أنك لا تطيقين أية معارضة،وغطرستك لا تحتمـل ،وحينما تهاجمين فيكون ذلك بلا رحمة.. ليس هكـذا تـورد الإبل".

ولم يكن ليتحملني غير " بهي الدين" الذي جعلني أيضـاً أنسى رياء صديقتي ونفاقهـا الاجتماعي،واسـتأنفت معهـا الصداقة.. مع بهي مرت تجربـة طلاقـي بأقـل الخسـائر النفسية،إذ ظل الزوج لمدة عام من انفصـالنا يماطـل فـي التطليق، فما كان مني لحظة تسلمي قسيمة الطلاق، سوى أن أطرق باب بهي الدين: أنا حرة، أنا لك.

ضحك: يمنى بلا تناقضات ليست يمنى.

** قلت له : دعنا نجلس على هذه التبـة الحجريـة.. جلس قليلاً ثم فز قائماً بغتـة، تسـاءلت بإيمـاءة ، قـال :

مؤخرتي تؤلمني حين القعود على أماكن رخامية أو حجرية أو حتى بلاط .. إنها تذكرني بسنين من السجن وتقلبات أوضاع جسدي على البلاط، حتى أصابني الروماتيزم.

والأديبة العميقة، حذرها أبوها ألا تتورط في أي نشاط سياسي سري، فذلك الدرب لن يخلف لها سوى الدمار النفسي والبدني.. وكان على وشك أن يحدثها عن ثائرين يعتقدون أنهم سيخلصون بلادهم من الشرير،ولم تسمع له يمنى، فهددها بحرمانها من أي ميراث تتوقعه، سيسوي أمواله بين إخوتها.. فيما عداها.. وانطلقت يمنى غير عابئة بأبيها ولا بحكايته التي لم ولن تسمعها.. رددت داخلها: سأخلد ، غدا ستعرف.

ومثل شمعة تحترق من طرفيها.. ورغم كل ارتدادتها كانت تبحر كل يوم باتجاه المثالية التي تبدو بالنسبة إليها في مرمى البصر على الضفة المقابلة.. ولم تصل إليها بعد.. تلملم الجراح وتبحر، تتفلت من الأوجاع والمرارة وتبحر .. ليس ثمة حل وسط.

** ما الذي جذبها إليه؟ شيء فيه يهدر مثل تنين، ربما شكله الشبيه بـ " أرنستو تشي جيفارا" ببشرته البيضاء

وشعره المرسل ولحيته وعينيه القويتين ربما قضيته الكردية، أو عمله الإنساني في منظمة غوث وتشغيل اللاجئين .. بـه حماس " التنين " باصق النار حين يهبط من الجبـل ويبـدو كمخلوق أسطوري .. لكن تقول: أهو حقاً كـذلك؟ أم هـي صورة مفعمة بالنوستالجيا، الحنين لواحد من رجلـين همـا أكثر الرجال اكتمالاً.

يخطر لها حديث مع شهاب قبل عشـر سـنوات عـن "الماساي" .. وكيف احتدت عليه: " لقد جانبك الصـواب يـا شهاب" حين قال:" هكذا تصاغ الأيديولوجيات والاعتقادات.. انظري إلى قبيلة الماساي في كينيا وتنزانيا التي تأبت علـى كل المحاولات لإدخالها غمار الحضارة والتحـديث.. هـذه القبيلة المحاربة كانت بمثابة " الكالو" في أصابع قـدم وفـي دماغ الحكومة الكينية رغم أن تعدادهم لا يتجاوز حينئذ الـ ـ ٤٠٠ ألف نسمة، هؤلاء رعاة القطيع ومصارعو الأسـود ، مديدو القامة، المدججون بالرماح في وادي الصدع العظـيم. كانوا لا يزالون يرفضون التعليم وينأون عن تناول أي طعام سوى اللبن والدم ولحوم حيواناتهم.. لكن النقطة الأخطر أنهم يعتقدون اعتقادا جازما من البداية أنهم يملكون " كل ماشـية

العالم" ويحتم الواجب على شبانهم أن يسـتعيدوا " الملكيـة المفقودة" من مراعي ماشية الآخرين، لكـن ذلـك يجعلهـم لصوصا في نظر القانون والمسئولين في كينيا .. ولقد أبقت القبيلة على طقوس يمر فيها الذكور بسلسلة مـن الشـعائر المقدسة من فترة المراهقة والي سن" الشباب " المحارب قبل أن يستقروا لتكوين عائلات،وهم مكرمون كراشدين مسالمين.

وحتي يصلوا سن النضج فلا بد أن يمـروا باحتفاليـة مفعمة بالعاطفية تستغرق أربعة أيـام، يـتم فيهـا تجريـد المحاربين من رماحهم وخناجرهم القصيرة وحلق شـعورهم المضفورة في جدائل معقدة، ويخلعون أحزمتهم من الخـرز المتمنطقين بها حول خصورهم.. واكتشفت الحكومة الكينيـة مخرجا حاذقا يريحها من الصـداع الـذي تسـببه القبيلـة ومعتقداتها الخرافية.. فحثت الناضجين مـنهم علـى إقامـة الطقوس المقدسة نفسها لنقل الفتى المراهق إلى سن النضـج خلال الأيام الأربعة نفسها.. أي أن الفتـى سـيمر بمرحلـة الشاب المحارب رمزيا،وقبل أن تنتهي المواكب الشـعائرية يعلن أنهم دخلوا سن النضج، وما عليهم سوى تكـوين أُسـر وإنجاب أطفال .. فيغطي المحارب جسمه بالطين الأبـيض

ويتلقى رخات بيرة العسل من الكاهن ويحلق رأسه، وبـذلك يحرمون من فترة الشباب ومتعها وفتوتها ومن غارات سلب ماشية الآخرين، لأنه ببساطة تم إعلانهم آباء وحراس التقاليد ومالكي المراعي رمزيا.. ويتمنى لهـم الماشـية والأطفـال والقوة والسلام، فيما يتخذون أماكنهم بين قادة القبيلـة، فقـد أعلن كل ذكور القبيلة ك" جنرالات" ، " جنـود " يوجـدون لاستعادة ماشيتهم السليبة من وجهة نظرهم.. بم تختلف هـذه الحيلة عن حيل الحث على تبني موقف ما.. ما مـن شـيء يقيني.. صدقيني".

** وليد يسائل نفسه: لم يمنى؟ يشتهي الجسد مثل جسد صبي يافع .. لكن.. ؟ وقد عرف الكثير من النساء، هل هو الفراغ حقا؟ عندما رآها لأول مـرة ثـم سـمع ضـحكاتها وتعليقاتها الجريئة واندهاشة عينيها ، كل ذلك أشار إلى توهج في روحها، سيعرف فيها بعد أنه توهج غلفته مئات الراقات من خيبة الأمل.. لكن يبقى أن يمنى عرت منطقـة شـاغرة ومحرومة داخله.. لم ولن تمتلئ قط،وبقي جـاهلاً بهـا.. لا يلمح لها سوى حنين داكن حينا، ومثل ضوء مبال حينا آخر ، لم يجسد بعد.. كان ظهور يمنى إيماءة خفية لا إلـى تلـك

المنطقة من الحرمان في روحه.. وبالرغم من أسفه لاختلاف نظرتيهما للحياة والأخلاقيات اختلافا بينا، إذ تبدو من وجهة نظره فصامية متحررة عقلياً فقط.. " لم لا تفهم أنـي فقـدت وطني ، منفي ، ولم يتبق لي سوى الجانب الحسي للاستمتاع بالحياة، لم تفهم حينما أفضيت إليها أني أصبت بعجز جنسي قبل عشرة أعوام منذ مذبحة " حلبجة" ومثل هـذه المـذابح تكررت من قبل، وحدثت كذلك في التسعينيات ، فضلا عـن محاولة تسوية أربعة آلاف قرية ومدينة بالأرض وباسـتخدام الأسلحة الكيماوية".

قالت زوجتي السويسرية إن الأمة هي انتساب من كافة الأصول لجماعة واحدة يجمعها إرادة العيش معـاً ووعـي بوجود تاريخ وثقافة تربط بينها.. لم تحاربون للانفصال؟ ولم تفهم هي الأخرى، لكنها تومئ إلى أن الرغبة في الانفصـال والاستقلال ترتبط بأمل في الثراء الاقتصـادي، ولـم تـول اهتماما لعملية سحق الهوية والانحدار من عرق واحد.. ثـم تعترف بالتضارب بين مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها وبين مبدأ وحدة الأراضي.. أفهميني.. أقول لها.. تبـادرني ببرودها وهدوئها السويسري، تقول: أعرف أن أبناءنا نصف

منفيين،ولكن انظر كم عدد الشعوب والأجناس فـي الكـرة الأرضية. إنه يبلغ خمسة آلاف.. يا له من رقم مهول.

وترصد أن ارتباطي بقضيتي ازداد أضعافا عن الفتـرة التي قضيتها في السجن قبل نفيي ومقابلتي إياها.. لـم تكـن آاؤها حين تزوجنا كذلك و ما الذي غيرها، ثم تعتبر الأمـر كله مزحة وتقول: بقدر ما ينفتح العالم بعضه على الـبعض، بقدر ما يزداد تكريس الهوية الخاصة لكل جماعة.. وأتساءل ما الذي يربطني بهذه المـرأة الصـلبة كجبـل طـارق؟أهم أولادنا؟ الاكتفاء المعيشي؟ اتصالاتها العريضة التي أتاحـت لي أن أحظى بعمل يـرتبط وقضـيتي " اللاجئـين" ؟ .. لا أعرف، لكن ثمة اعتماداً متبادلاً بيننا.

** قال وليد ليمنى: زوجتي لا تصل لمستواها أي من النساء، وهذا موضوع لا أريد الخوض فيه.

لم تعلق يمنى أو تتساءل ، لكنها احتفظت بتلك العبـارة في مكان قصي من نفسها تدعوه" سندرة الكراكيب المهمـة" فقط كانت متوترة وعضلات وجهها متشنجة.

- ما بك؟

- استقلت من عملي.

- فقدت وظيفتك يعني؟
- لا ، بل تركتها أنا.
توترت معدته، وبحذر سألها : مم ستنفقين؟
زعمت عدم الفخر وردت ببراءة: معاش والدي طبعا.
وتهكمت داخلها: وليد،وليد متى تكبر!!
إنها تفعل مثل صديقتها صافيا وهي فـي حالـة مـن الانكسار، حين تردد صافيا دائماً : " أمي كانت تقول : قولة إهئ تريح" أي يجب أن تسايري النبي آدم حتى بابه الأخير.
واستفسرت يمنى عن مفهوم اللاملكية في الحب، قـال وليد: يعني ألا يمتلك أحدنا الآخـر، فقـد تجـذبني امـرأة أخرى،وحينها ستتحول علاقتنا إلى صداقة، ولك الحق نفسه.
تهكمت يمنى: هكذا بضغطة واحدة على الزر، ستحول الحب إلى صداقة، ولم تقل له إن ولعه بالتماك الجنسي ما هو إلا شكل من أشكال الامتلاك وأن غرامياته هي عجـز عـن الحب.
لا يعرف وليد متى تكون عدوانية، متهكمـة، أو متـى تترك أقوالا هامة دون تعليق، لكن الذي يعرفه أن قلبها يميل

إلى الضعاف ، وتتعاطف مع لفت انتباهها وحنانها حتى لـو كان غُلبه مفتعل.

قال : نحن شعب نعشق الحيـاة بـالرغم مـن تفتيتنـا وإبادتنا.. وأضعاف في جملة لا محل لها من الإعراب: لـن أطلق زوجتي، فستأخذ أبنائي ولكـن الموضـوعية وعـدم الازدواجية تملي على أن أقبل بأن تكون لها علاقات أخرى، المهم ألا أعرف. ومن قال لك إن الحب أخذ وعطاء. هو أخذ فقط.

تهمس يمنى داخلها: أفصح، أفصح، قل المزيد.

وكانت تستمتع بلجاجة لسـانه أمـام زوجتـه وخوفـه منها،وتود من جماع قلبها أن تكتشف زوجته العلاقة، وتلقنه درسا لا ينسى، ولأنها تعرف ولع الرجـال بـالحكي عـن مغامرتهم الجنسية صادقة أو كاذبة، أعارته أذنـا صـاغية، لتعرف فيما بعد أن الحكي يقوم الجنس نفسه، وتكتشف أنـه يتحدث عن ذلك كأنه يضاجع نفسه عبر المرأة.

قال : أثناء هروبي من إلقاء القبض على، ضاجعت في يوم واحد أربع نساء.

- بهدوء سألت يمنى: لم؟

- طلباً للأمان .. هيا نتمشى!!

وهو يحكي خطر ليمنى أمر نسيته وهو أن الذكاء والثقة وقودان حيويان لإطلاق العدوانية على كل المناورين، وليس إلى الداخل لتدمير النفس.. لن تحتاج بعد لأن تقف إلى مدفأة الفحم في بيتها حتى يضمحل شعورها بالإثم والبرد.

في مشيهما ارتطمت حقيبتها بظهره، قالـت: عـذرا ، أجاب، بل اضربيني.. اضربيني.

- هنا في الميدان!!

- نعم والآن.

فسددت لكمة إلى كتفه.. استطرد فقال: أنت لا تعـرفين أني أفهم بشكل حسي أولاً، ثم أجمع المعلومات وأصل إلـى التجريد.. ولا بد أن تعرفي أنك لست آخر امرأة في حيـاتي ولست آخر رجل في حياتك.

- تضع شروطاً لأمر لن تحصل عليه.

كأنه لم يسمعها أو أنه هيئ له مثل أشياء أخرى وهمية سيعاملها على أنها حقيقة.. حدث نفسه: لا بد لي من تـرك الباب مواربا لأتمكن من الاختفاء السريع أو إذا مـا لاحـت بوادر الملل والضجر.

ووجه إليها حديثه: تاقت نفسي إلى البنطلون الكردي.

- ما شكله؟

- واسع بكشكشات وزنار عند وسطه.

أعتقد أنه يشبه البنطلون السكندري عندنا.

أتعرفين معنى كلمة زمالك؟

- أعرف أنها كلمة كردية.

- معناها " مصيف الملوك".

- بالطبع ، فأنتم شعب عصي على الانصـهار، لكـن مصر هي الاستثناء، فهي البلد الوحيد – كما أعتقد – التـي اندمجتم بأهلها.

في إحدى مهماته زار وليد " ديار بكر" المدينة المسورة بحوائط من البازلت الأسود وحيث من الممنوع نشـر علـم كردي وتقييد استخدام اللغة الكردية، همس لـه الجرسـون واعتقده أوربياً: " هذه ليست تركيا.. هذه كردستان... ديـار بكر عاصمة كردستان.. لسنا أتراكاً.. نحن أكراد". وعنـدما بين له وليد أنه كردي والأوربي هو رفيقه، اختلس النظر من خلال الضباب المعتم لأشجار الطباق وهمس بشيء لصاحب

المقهى، وفي ثوان تغير شريط التسجيل بآخر موسيقاه بريـة وجنائزية.. كانت أغنية كردية.

تذكر وليد أن الأكراد في الحكايات القديمة في المناطق العربية يبدون على أهبة الاستعداد لتـرك جبـالهم بسـرعة والمشاركة في الدفاع، غير أنهم يعودون إلى جبالهم بالسرعة نفسها التي هبطوا بها بمجرد أن تنتهي المعارك.. ويفخرون بانتهاء نسب بعض العائلات مثل " برزنجـي" إلـى سـيدنا محمد.

-٢-

وصلني إنذار أنهم قد يضطرون لترحيلي ، لأني غيـر جاد في رسالة الدكتوراه.. لا يهم.. أعمل مدرسا ومترجمـا وفي الإذاعة البريطانية حتى تستنفد كل الإنذارات ويحـدث ماله بد.. وفي طريقي إلى لندن حيث يعقد " روس إسبيزيتو" الخبير الأمريكي في شئون الشرق الأوسط حلقة نقاشية.

مدفون في صحن الوادي.. إبريق من فضة.. أودعـت فيه وهجرت مصر..

لم يبق غير زمن قليل.. لرحيل النور.. ويعود الإنسان المهجور.. لظلام الوادي.

تحدرت دمعة تناقض شعره ذاك، ليختـرع مـن تـوه أسطورة دمعة: أرادت الإلهة أن تتوج ما خلقتـه وأبدعتـه، وفي اليوم الأخير، تحدرت دموعهم لتجري في النيل علـى شكل مفتاح الحياة لتهب النسيم والخضرة للوادي.

في الجلسة كانت الوجوه العربية هي الغالبة.. بـالطبع يهمهم صورتي في عيون الآخرين.. وقال إسبيزيتو متفكهـا إن والديه الإيطاليين كانا يشفقان عليه من التخصـص فـي منطقة ميتة، ولكنه اتبع حدسه وأصر على إكمـال دراسـاته العليا في تلك المنطقـة المحمومة،ونشـبت حـرب ١٩٦٧ ،واثبتت الظروف الوالدية وخطيبته أن حدسه كان عميقاً.

وقـال إسـبيزيتو إن الصـفوة الفكريـة فـي العـالم العربي،وكذلك المتعلمين من الطبقة الوسطى، هم " متغربون" في التعليم والمنهاج الفكري، وما إن نطق هذه الجملة حتـى تعالت الاحتجاجات من زوجة رجل أعمال مقيمين وأولادهما في أمريكا منذ ما يزيد على ربع قرن، ويباشرون صـفقات لهما بالقاهرة.. ومن أخرى قالت لي يمنى فيمـا بعـد انهـا

يسارية قح.. ومن أطلق لحيته يكذب هذه المقولة.. قالت لـي يمنى ووافقتها: إننا كالنعام ندفن رؤوسنا في الرمال بغـض النظر عن كل التوليفات المتناقضة من الأصالة والمعاصـرة وإحياء التراث وعبادة كل ما هو قديم، وبالرغم من كل مـا هو سلفي، نحن مجرد مستهلكين لمنتجـات غربيـة، أيضـا بغض النظر عما يمر به الغربيون أنفسهم من إعـادة تقيـيم للذات أو تجديد".

شعرت بلخبطة في ذبذباتي ومزاجي،ليس بالقطع لكلام يمنى أو لشكلها ، مع ارتباكي المبهم أبعدت نظري عن يمين ومن عادتي أن أنظر لمن يحدثني .. لأجدها سمراء، هادئة، بابتسامة ودودة، آه.. بأعطافها التي تكاد تفز.. بارتجاجـات الأرض تحت قدميها حين تدخل القاعة بصحبة يمنى، مثلهـا من تومئ فتلبى: قلـت لهـا: " **what's your name?** " سكتت قليلاً وقالت ك صافيا وأنت؟ .. شهاب.

في نزهاتنا فيما بعد قالت لي إنها صمتت لبرهـة فـي سخرية لاذعة ردا على سؤالي لها: " الأرض بتتكلم عربي". وقلت لها شتان بـين مـا يـوحي بـه شـكلها، مشـيتها ،

عيناها،وبين ما يعرفه المرء عنها حـين يحـدثها، سـألت : الفرق كبير؟

-بالطبع حين حدثتك عرفت أني بإزاء امرأة مفزوعة.. ولم أقل لها إنها أكثر أناقة من يمنى، ومـن الواضـح أنهـا ثرية، لكنها تتبع يمنى كظلها.. وقلت لها إنك لا تبدئين حديثا الا بعد أن تتحدث يمنى، قالت: أنـا لا أتقـن الإنجليزيـة.. صمت فهي كذلك حتى إذا كان الكلام بالعربية!!!

تغير ترتيب ذبذباتي ، إذن.. أحبها.. صافيا التي تبـدو شبيهة بإحدى الملكات الفرعونيات والتي تشدني عودا إلـى مصر، فرح وغير راض معاً:

يا روحي الثلجية (هل ظلت ثلجية بعد صافيا).

يا روحي الثلجيـة.. كفـاك انتفاضـا.. فـوق الأرض المتفحمة.. كيميت.. لن تعيدني حتى إيزيس نفسها.

لن أتمزق كثيراً.. عرفت من يمنى أن صافيا متزوجـة وأم لثلاث بنات.. سوف أنسحب عن مرآها، لن أظهر بـأي مكان قد توجد فيه وزوجها الذي يصطحبها لإبرام صفقات.. كم يقتضيني من وقت كي أطمر أميرتي السمراء فـي قـاع النسيان.. عجبا، كنت أتصور أني سوف أشعر براحة حـين

اعلم أني ارتكبت فعلا ضد الخير المألوف والمتعارف عليـه ،وهو شيء نسبي للغاية.. ولكن ذات المرء قد تبدد أوهامـاً وتصور إمكانيات عن نفسه حين تحتدم التجربة، هل لأنـي أحب صافيا حقا؟ لا أدري.

غادرت إلى ألمانيا وتخيم علّى شخصياً " فلاديميـر" و "إستراجون" في مسرحية " في انتظـار جـودو" لصـمويل بيكيت.. هما ذاتي، هما حياتي، هما مصيري.. وهذا ما أثور عليه ولا أقبله، ولن أقبله.. ما معنى هـذا التـآمر.. كفـى، كفى.. فتحل لعنتي على الحياة، هذه الحياة التي ستتجلى بعد شهور بالنمسا مثل الليل الذي يومض بمئات مـن الشـموع المكنونة في قوارير حمراء في مقابر الكومنولث في جراتس بالنمسا.. من بعيد مشهد أخاذ ولكن ما طمرته فـي النهايـة موات في موات.

أشجار الصنوبر الإبرية العملاقة ترتدي السواد المخيف لشبح أوغل في الليل.. لكني لم أر (وحشا عملاقا أبدا) مثل شجرة الكافور العملاقة الهرمة والتي ترتفع إلى الدور الأخير فـي بيتـي بالقـاهرة.. انحنيـت أجمـع أوراق الشـجر

المتساقطة،وأفركها في يدي لتتشرب برائحة الكافور.. مـاذا دهاني: " أنت في ألمانيا.. لست في مصر".

في الدرك الأسود الغطيس لعالم هاديس السفلي، خايلتني نقطة مضيئة، تخبو ثم تظهر في مكان آخر، تتبعتها بصـبر، ارتفعت إلى درجة أقل حلكة صعدتني معها إلى العتمة، تليها زرقة غامقة وزرقة شفافة.. ثم لا لون ، مجرد وضوح فـي الرؤية، لكن لا شيء أرى .. حدثتني الممرضة الألمانيـة: " يمكنك أن تجلس الآن في سريرك، مطيعا".

رفعت يدي إلى أعلى ودرت كما لو كانت ثمة كأس في يدي اليسرى، أحسست بأصابعي اللحمية في ذراعي تقبض على الكأس.. وبألم حارق.. ابتسـمت الممرضـة:" عمليـة تجميل ليس إلا.. أليس كذلك؟ والخطوة القادمة هي الـذراع الصناعية" .. ولم تكن تجربة ناجحة بـالرغم مـن الشـكل الطبيعي الذي منحته لي، حيث كنت أشعر أن ذراعي أحيطت بذلك العضو الصناعي، كأنني أرتدي قفازا.

-لك ضيفة في البهو .. ظننتها إحـدى زميلاتـي فـي الدراسة المسائية.. نزلت، لم أصدق عينـي، إنهـا الملكـة الفرعونية. أقصد صافيا بباقة ورد لطيفة وابتسـامة حلـوة "

صافيا الحاضرة في غيابك معي دائما، وكأنني أكتشفك مجدداً في بعادي ، هناك أناس لا تعرفهم إلا في غيـابهم، غيـابهم يؤكد حضورهم.. هؤلاء الناس يدسون في أرواحهم محبة لا نهائية .. ولكنهم لا يملكون أجراسا تعلن عنهم".

اندهشت.. بفرحة طفولية خجلة قالت: جئـت أطمـئن عليك، أخبرتني سيلفيا وبستر صديقة يمنى.

ومشينا طويلا ، في أحاديث كثيرة، أرسلت السماء إلينا تحية قطرات لؤلؤية غزيرة من المطر، كلانا يحب المطـر، فردت راحتيها لتصنع بحيرتين صغيرتين من هبة السماء لنا، فعلت مثلها ، وشعرت أن أصابعي التي تم استئصالها تستمع هي أيضا بملمس القطرات، قلت لها ذلك.

- إنها أطراف شبحية تشعر بها موجودة لأن مراكزهـا بالمخ لا تزال قائمة، إن جدتي واطفة بعـد إصـابة عينيهـا بالمياه البيضاء وقبل الإعتام، كانت تفتح نافذة في بيتنا القديم بالمعصرة وترى أشياء لا تتفق والمناظر السائدة فـي تلـك المنطقة العشوائية.

- ربما أنها مشاهدة نفسية.

- ليست كذلك، لقد سألت الطبيب فقال لي إنهـا رؤيـة طيفية أو شبحية تحدث قبيل فقدان البصر.

ولدي افتراقنا، تمنيت أن أشرب من قشرة الدمع الرقيقة والحزينة والتي أراها تتلألأ خفيفة في عينيها.

**ارتفعت الطائرة المتجهة إلى القاهرة ٣١ ألف قـدم، وسارت بسرعة ١٦٠٠ كيلو متر أرضي، ما بين فرانكفورت والقاهرة، بعد خطاب أخي الأكبر بأن أمنا تحتضر.. تذكرت عادتي عندما أعود ليلاً أن أنظر أعلى إلـى النافـذة،وكنت أجدها مضاءة" لا يزال والدي مستيقظا إذن" وفي ليلة حـارة ورطبة، كانت النافذة مظلمة " لقد مات أبي" ، وصعدت مـن فوري إلى حجرته، قابلني "يحيي " أخي الأصغر في الردهة: "لقد مات"..رددت: "أعرف، عايز أقعد معاه شوية".. وجدت عيني والدي مغلقتين على نظرة اندهاش ،وعلى فمـه شـبه ابتسامة، قلت له: "استرحت الآن يا أبي، أنا أيضا استرحت".

كان النهار صيفيا قائظا،وكان يحيى في غرفـة والـده وشعر بريح باردة كالنسيم،ونطق الوالد المحتضر باندهاشـة طفل، أمي ، أمي.. ثم اسلم الروح.

** قالت صافيا في النادي: "انظري هذان خطابان لـك من المفترض أن أرسلهما"، كان وجهها بمسحة وردية مـن ترقب مكبوح.. ولكن سيلفيا قادمة الآن.. أتفاهم معها بالكـاد وقالت إنها ترغب في الدردشة معي.. بشعر أحمـر نـاري وفدت سيلفيا، أبدت صافيا إعجابها، فردت أن الفضل يرجـع للحناء.. والتفتت إلى تريدني أن أشاركها العجب والدهشة من تصرفات صافيا في لندن. " جريئة هي ، تحمل ألف جنيـه إسترليني في حقيبتها، وأنا حتى في بوسـطن فـي أقصـى الظروف أسحب من البنـك الفـوري والكـوارتر وبضـعة دولارات إلى جانب الفيزا كارت".

برغم تباسط سيلفيا معـي لا أدري لـم شـعرت مـن إطلالتها الأولى على المكـان أنهـا شـعرت بخيبـة أمـل لوجودي .. لكنها كانت ممثلة جيدة.. إلا بـالعلاج بالإنجيـل وقلما يذهبون إلى طبيب،ومضت تتحدث عن عـدم وجـود طاقة تسامح بين الناس ومعتنقي الأديان المختلفـة وإغفـال تحقق الإنسانية.. ورددت كلمة" تحقق " لنفسها عدة مـرات، سألتها ما الذي تفكرين به؟ .. قالت غاضبة إلى حـد مـا إن صديقها متدين يردد كلاماً كثيراً عن الفضيلة ،وكذلك بعض

البرامج التليفزيونية والمواعظ.. كم كبير من الكلمات تسـقط في أذني.. متغافلين هم أنفسهم عن أن كـل شـيء حولنـا يدعونا إلى الانطلاق،وحقيقة أن الإشباع والسعادة تفضي إلى إمكانية التحقق في إمكانيات أخرى للشخص،والمحصـلة أن تكون شخصية إيجابية من دون مشاعر الذنب التي يجدر أن تزاح كأشياء واهية ووهمية.

قالت صافيا: شهاب ، اسألها هل هي ملحدة؟

-كلميها بالعربية فقد أتقنتها إلى حد ما.

ردت سيلفيا : بالطبع لست ملحدة، إلا أني أمـرر كـل حكاية على مجسات المنطق.

قال شهاب: إن الإيمان بحاجة إلى الخيال، لأنه وحـده يمكنه إدراك الروحانيات.

اعترضت صافيا: لقد علقت على جزء من حديثها فقط.

- لأنها – جزئيا – تقول كلاما صحيحا، أو على الأقل يعبر عن تفكيره وبيئتها.

واصلت سيلفيا: كنت أشعر بالحنين حين أسمع أجـراس الكنائس وتتقصد أمي لما كنت أقيم معها أن تدير على جهاز التسجيل إنشادا كنسيا قبل استيقاظي ما بين الصحو والمنـام،

أسمع أنغاما وتراتيل ،يغص حلقي وتخترم جسدي مشـارع الذنب وأحصي منذ متى توقفت عن التحدث إلى المسـيح.. وما إن أغادر سريري حتى تتلاشى تلـك الأحاسـيس فـي صخب النهار ووهج طموحاتي العملية.

وكانت سيلفيا قد بثت يمنى في وجود صافيا قلقها بشأن الاحتفاظ بوظيفتها كصحفية والتطور فيها.. ردت يمنـى أن ذلك مبالغ فيه، فلا شك أنهم تعودوا دائما البدء من جديد وفي أي وقت من أوقات العمر.. اعترفت سـيلفيا أنهـا تتطلـع لإنجاب طفل ، ليس من المهم من يكـون أبـوه، أو حتـى تتزوج.. فقط هي تريد استقرارا في عملها.

قالت لها صافيا: قالت لي يمنى إنك تشـبعين أمومتـك بتبني طفل، هو طفل من جنوب السودان، ترسلين له مالا مع البعثات التبشيرية.. لم هذا الاختيار؟

-أنا متعاطفة معهم لاستئثار شمال السـودان بخيـرات البلاد كلها في حين يفتقر الجنبو إلى البنية الأساسية بـالرغم من غناه بثراوته الطبيعية.

-صافيا: فقط.

- نعم .. فقط.

ردت صافيا متشككة: وتوحين إلينا أنك بلا إيمان.

غيرت سيلفيا دفة الحديث: إن ثمة حـرب خفيـة بـين الجنسين حالما يصلان إلى سن معينة، وتعبر عـن نفسـها بالنكات.

قالت شهاب فاهما مقصدها : في النكات و تنتشر بـين الرجال نكات عن خيانة الزوجات،وبين النساء نكـات عـن خيبة الرجال.

** ما عرفته فيما بعد كان متوقعا بالنسبة لي وخاصـة بعد أن قرأته في مجلات غربية، ومصدره كان واحداً، وكالة الأنباء التي تتبعها سيلفيا ، لم أكن بحاجة لأن تفضفض لـي صافيا عن سؤال سيلفيا لها فقالت: لا تتوقعي فائدة من تغيير العلاقة بين المرأة والرجل،وإذا قال زوجي يميناً ، أقول لـه بل يمين اليمين، وإذا غير رأيه: شمال .. أزايد عليه وأقـول بل شمال الشمال.. وعندما سألتها عن الأوضاع التي يفضلها زوجها في الفراش.. جفلت صافيا: مثل هـذا النـوع مـن الأحاديث في مقام المحرمات.. فلجأت سيلفيا إلـى أن يقـوم بهذه المهمة سيدة من الطبقة المتوسطة العليا، حسب الجدول الإحصائي الموجود أمامي ٣٥ زوجة لرجال مـن الطبقـة

المتوسطة العليا من رجـال أعمـال وأطبـاء ومهندسـين وغيرهم.. لكن ما الفائدة؟

"صافيا:

صدقيني إنني أتشوق إليك في حرقـة، حرقـة أكيـدة.. لدرجة أتمنى أن أشرب من قشرة الدمع الرقيقـة والحزينـة التي كنت أراها دائما تتلألأ ، هـل هـو اكتشـاف متـأخر لعاشق.. لا أعـرف.. ولكـن صـدقيني هـي أحاسيسـي نحوك،وهي أحاسيس صادقة.. لا .. هي إحساس " غريب " يشتاق أن يحرك مشاعر فتاة، ولكن هـذا نبضـي الحقيقـي حيالك.

الناس مدن غامضة لا ندخلها ولا نعرفها الا بعد ضني العيش فيها.. نعم أنت هادئة، ولكن داخلك صـخبا عاطفيـا جملا لا يحد.. وإن شاءت حظوظي ، أحس أنني ستكون لـي معك حكاية، لا أعرف الآن أولها ولا آخرها،وقد أتعذب فهيا وحدي،ولكني آمن لعذابك جداً ، أحس أن عذابك غير غـادر بالمرة.

المحبة لا تدارى ، المحبة هواء، هل يحاسـبنا خـالق الهواء على ما في داخل صدورنا،وهل نحاسب أنفسنا علـى

ما في صدورنا للناس. هذه هي محبة صدر يلك، مـا فـي صدري لك. دون زيف ودون تحايـل، أحبـك حقا،وأحـب حكايتك على أي وجه إلا وجه القسوة على نفسي أو عليك أو على أي أحد.. أحبك صافية كما أنت، كذلك الدمع الذي كنت أراه دائما يضحك في عينيك".

**توفيت أمي عن ملامح تشي بالعذاب مـن مـرض السكر وبتر جزء من ساقها.. لمستها، خرجت من الغرفـة، قلت ليحيى مهموما: الحقوا جسم ماما بارد، فضحك يحيى.

وخرجت كعادتي أمشي مسـافات طويلة،وأرسـل لهـا الفاتحة التي ستكون عما قليل، ستكون فاتحـة أقرأهـا قبـل نومي على روحي أمي ووالدة صافيا المشتركتين في الاسـم نفسه " عطيات" ، عدت بعد تغسيلها لـيلا علـى أن تـدفن صباحا،وجدت جمهرة من إخوتي وأقـاربي فقلـت لأخـي الأكبر: كله تمام، خلصت الأمور؟ فضحك الحضور ضحكة مكتومة ورددوا في كورس جماعي يتنهد من سذاجتي :"كلـه تمام".

** تنتهي المحطة الأخيرة لترام جراتس في النمسا إلى غابة، تقع بعض مناطقها علـى ربـوات مرتفعـة.. كنـت

أصعدها وحدي " ها أنا الآن أهنأ بصحبة شهاب فهو خيـر صديق لي، نتشارك صحبة الطبيعة التي هـي خيـر مـن الإنسان".. لكني هذه المرة بانتظار صافيا قادمة من فيينـا ، نعم فيينا حيث بيت الطالبات الذي يسمح بالإقامة المختلطـة في الصيف، تبسمت لذكرى تلك الفتاة اليهودية مـن أصـل مجري.. كانت طويلة وممتلئة وبأسنان أرنبية، كانت تلفـت انتباهي،وصادقتني هي وكانت تعد لي الشاي أحيانـا، بهـا شيء غريبو لم أحدده مدفوعا بفضول، تتراءى لي أنه شهوة بالرغم من أنها ليست من النوع الذي يثيرني، يعجبني فيهـا ذكاؤها الحاد وتحدثها بلغات ثلاث، هاجر أهلها من المجـر إلى النمسا بعد الحرب العالمية الثانية.. تدرس الاقتصاد، فيها روح التلميذة الدءوب المطيعة رغم سـنواتها التـي تتعـدى الثلاثين.. داعبتها مرة فتحول صوتها إلى ارتباك وملامحهـا إلى خوف.. معقولة !! إنها تخاف الجنس.. ربما كنت شريرا ولا بد أن أعرف، جاءت مرة إلى غرفتي فطرحتهـا علـى بطنها ورميت بجسدي كله على ظهرها.. فانتفض جسـدها، ليست انتفاضة لذة بل خوف، وأصدرت صوتها تزوم، وظلت

في حالة " شعتفة" حتى بعدما أطلقت سراح بدنها.. لم أوذها" لا عليك أنا آسف".

صعدت وصافيا طريقا بين تلين ، قلت لها سـأهديك " شبشب الهانم" ، دائما ما تتسع عيناها في اندهاشـة أبديـة.. فتحت الكتاب: لقد جففت لك هذه الزهور البرية.

- إني رأيتها في غابة قديمة عل يصخور حجر جيري ،واشجارها بأوراق عريضة وتحت يدي أحسسـت بلمسـة الوغب على أغصانها.. ما اسمها؟

- إنها زهرة أوركيد.. أوركيد " خف السيدة".

- إني أراها في شكل القارب، مظهرها على كل حـال يشي بالأناقـة بورقهـا الملـيء بالتجزيعـات المتوازنـة والمتغضنة. ألا تتذكر غنوة " عبد العزيز محمود".

يا شبشب الهنا يا ريتني كنت أنا – في فيلم مع اسماعيل يس؟

بعيون مترعة بالحب، نظر شهاب لها: سأقول لك ما هو أجمل.

- أشعار لك؟

- لا ، إنها أبيات من قصيدة عاشق فرعوني متيم:

ليتني كنت جاريتها التي تغسل لها قدميها.. فلا يلمسها غيري ولا تريحها إلا على يدي .. ليتني.. أكون الخلخـال الذي يزين قدميها.. حتى لا يلمسها أو يقبض عليهـا أحـد سواي.. ليتني أكون زهرة اللوتس التي تزين ضـفائرها.. حتى لا تلمسه أو تعبث به إلا أناملي .. ليتني أكون عقـد الورود والياسمين الذي يزين جيـدها.. ويـداعب خـداها ويلمس شفتيها ويحمي نهديها.

ابتسمت صافيا.. أطرقت قليلا،ومدت يدها للمرة الأولى لتتعانق أصابعهما، رأسها بالضبط عند كتفه.. يخطر لهـا " هل هي دعوة لأن أحط رأسي عليها.. له رأس جميلة، بـي توق عظيم أن أحتفظ بمرآها أبداً و لا تغيب عني.. أين ؟ في رقائق الذاكرة البصرية بمخي؟ .. ربما .. رأس بديعة".

-شهاب ، لقد رأيتك أمس.

- كيف ؟

- بعدما أغلقت الهاتف رأيتك فجـأة متجسـدا أمـامي تبتسم.

- أشعر بالظفر والراحة، بدأت تشعرين بي.. لا تردي، أعرف ما وراء الأكمة.

- ليست تلك هي المرة الأولى.

- لي ؟

ابتسمت وربتت ظهره.

- منذ سن الخامسة وأنـا أرى سـيدة علـى فتـرات متقطعة،ولما كنت صغيرة على وشك الشعور بالرعب إلا أن ابتسامتها الودود جعلتني أطمئن، فضلا عن إحساس لم أفسره إلا عندما كبرت أن هذه السيدة قد خرجت من ذاتي رغم أني رأيتها في أعمار مختلفة وبأزياء كان بعضها غريبا.

ثبت شهاب عينيه عليها، كاتما أنفاسه تقريبا، خشـية أن تفر الحكاية كما فرت قرون الوعل منذ قليل.

- حكيت لأمي فخافت أن أكون ممسوسة،ودارت بـي على المشايخ الذين لم يهتموا بأمري بل بنقود أمي، لكني قلت لهم إن تلك الرؤيا نادرة الحدوث.. وتعلمت المكر، فحكيـت لهم – صادقة – عن معلمتي التي كنت أتابعها أينما ذهبت في الفصل فأجد طاقة نور حول رأسها.. جربت كـل الزوايـا واختلافات الإضاءة على رأسها وكانت هالة النور لا تـزال تشع حول رأسها.. ذهبت إلى بيتها ببعض الحجج ورأيتهـا وهي حاسرة الرأس وبجلباب نصف كم، وكانت هي محجبة

في وقت لم تنتشـر فيـه فكـرة الحجـاب بـين السـيدات مجددا،ورأيت الهالة أيضا، خرج زوجها من السجن بعد نفحة كرم من الحكومة بالإفراج عن الإخوان المسـلمين، ذهبـت لتهنئتها ووجدتها لأول مرة مكحولة العينـين حييـة كفتـاة وبجلباب مدندش ،ورأيت أيضاً الهالة حول رأسها، لم يكـن خداعا بصريا لأنني جربته في عدة مواقـف.. هكـذا قلـت للمشايخ التي تحملني أمي إليهم قسرا.

قالوا لأمي : ربما ممسوسة قليلاً أو مبروكة قليلا.

ولما بلغ مكوثي مع والدتي وعمي وأولادهما اعتبرتهـا أمي خطرا، ما إن جسدي يزهر ويفوح برائحـة الأنوثـة.. اتفقت مع أخت جدتي " واطفة" أن تكمل رعايتي.. وارتحت كثيرا معها فهي امراة معطاءة ،وتسمعني باهتمام، وسـألتني بالتفصيل عما أراه: " صفي لي شكلها".

- إنها تشبهك قليلاً يا جدتي.

- لعلها جدتي صافيا، تقولين إنها تلبس ملابس غريبـة أحيانا ! لا تخافي .. أنت في رعايتها الآن.

سألها شهاب: لم خافت والدتك من أنوثتك؟

- لا، هي خافت على من زوجها.. وهو أيضا عمـي، تقول عنه إنه بلا وقار،وافق بعد مماطلة على زواجي،وبعـد عقد القران همس لزوجي بعيدا عن الناس: أنت أخذت أكبـر مقلب في حياتك.

- ما غايته؟

- لا أفهم، ربما لانفلاتي من سيطرته.

- هل سألت إذا كانت هذه الـرؤى – لا تؤاخـذيني – اضطرابا نفسيا.

- أو بارا سيكولوجي؟

أو لا شيء على الإطلاق ، محتمل أن تكـون صـوراً مخزونة في الذاكرة.. الذاكرة البشرية.

- ربما يا مستر كارول جوستاف يونج.

وضكا.

- ألم تشرعي بشيء قبل قليل؟

- نعم، لفحة هواء باردة مرقت بسرعة.

- كان وعل مرق منحدرا من هذا التـل علـى يميننـا عابرا بالدرب صاعدا إلى قمة التل الأيسر فـي أقـل مـن ثواني، لم أشاهد سوى ذؤابة قرونه.

- وما سر اهتمامك؟

- هه.. لا شيء، انظري ، ليتسع ناظراك إلـى أبعـد نقطة في الفضاء، ماذا ترين؟

- نقطة بيضاء تقفز قفزات واسعة حتى اختفت وسـط منخفض معشوشب.. أرنب بري!

- الأجمل، أنك لم تشعري بارتطامه بك!

- حقا!

- ذلك أنه كاد يرتطم بفستانك الطويل،ويبدو أنه غيـر رأيه في أقل من الثانية الأخيرة.. وحـول مقـود سـيارته ليتفاداك.

ضحكت صافيا ثم قالت: ما بك، إنني أصارحك.. أفـلا تصارحني فكر معي بصوت عال، أحس أحيانـا أنـك لـم تتحقق، لم تنجز طموحاتك بعد.

-ولن أنجزها، أنا بصدد التوصل إلى معادلـة مريحـة للحياة ، وأعاني من ألم وانتفاضـات مـا قبـل الاسـتقرار النهائي .. كنت أساءل نفسي عمن ألقي عليه تبعـة أزمتـي وإحباطاتي ، هل هما والدي، الطبيعة، الصـدفة، القـدر ..

للراحة الساذجة ليس على إلا أن أزيح عبئي ليحملـه آخـر حتى لو كان قدراً .. لأن كل حقدي سينصب عليه.

ويمنى...!!

- ما ذكرك بها؟

- كآبتها وشكلها وتزعزعها وانشراخها الروحي.. إلى من تكله يمنى؟ إلى البيئة المحيطة؟ الظروف ؟ عدم نضـج تجربتها ؟ آمالها الكبار؟ مثاليتها المخدوعة؟ بالنسبة ليمنـى ثمة متكئات ومشاجب ملموسة على نحو مادي.. ولكن مـاذا بعد؟ في كلتا الحالتين لا شيء سوى أن نتآكل من الداخل .. وأن تقتات علينا نيران عدوانيتنا تجاه ما نعتقده السبب.

- ما رأيك التصالح؟

- التصالح معه أضل سبيلا، في حالة يمنـى، سـتكون ممارسة عبادة الطغاة.

- انظر اعتبر لا أحد مسئول.. ضع في ذهنـك ذلـك، اقبل ذلك.

- لا إيمان إذن.

- الإيمان لم يعدنا بحياة هانئة مكتملة، أو سيجنبك آلام النمو والفهم والتجارب أو المكتوب، لكن الإيمان بحد ذاتـه قدرة عالية على الصموت والحياة بتفاؤل.

تحرك الهواء ببطء فداعب وجناتهما وأهـداب صـافيا، نسمة باردة منعشة، تكثف النسيم في هبوب نشط، سمعا لحنا مبهما غامضا ينطوي على حنين، سارت أقـدامهما باتجـاه الحنين .. أشرفا على هوة عميقة، تتـدرج فيهـا الأشـجار الطويلة المائلة في الطبقة العليـا.. وأجمـة أخـرى علـى منحدر.. وشجيرات في القاع، مرور الهـواء عبـر أوراق وأغصان ثلاث طبقات من الأشجار صفي اللحن مـن كـل نشاز..حملت الريح من بعيد عبقا غامضا، إنـه الـراتينج أو بلسم البرتقال. تتضح الرائحة في أنف صافيا: هل هي بعيدة؟

- ربما في مكان ما من الغابة.. أتعرفين الاسم الشعبي لهذه الزهرة؟ اسمها " لا تلمسني".

كبتت صافيا رد فعلها على التلميح.

شمس نحيلة باهتة منحت ضوءها لأشجار الهوة.. كانت في أفول فنشرت غلالة ضبابية رقيقة على الهوة، وظهـرت في القاع عائلة غزلان ترعى في هدوء دون صوت، كأنهـا

نسالة من حلم بعيد، بدت أزهار الأشـجار فـي الإضـاءة المخملية بألوان ناعمة، وكانت قبل قليل في زهوة من ألوانها القوية. الأخاذة، امتدت أشعة شمس " أتونيـة" تنتهـي بأيـد لامسة رحيمة لهامات الأشجار، وتتخال ثناياهـا.. ترشـحت أشعة الضوء إلى نور حريري تنتقل أبداً على أجساد عائلـة الغزلان، في بقع رقطاء على جلدها.. همس شهاب" غـزلان أسطورية".

** ظل شهاب لدقائق مأخوذ الأنفاس.. ربتـت كتفـه صافيا: ما الأمر؟

بهدوء وحكمة بدت بالنسبة لـه عميقتـين: وجـدتها.. وجدتها.

- ماذا؟

- أتعرفني الطائر الأسـود الـذي يعـزف سـيمفونية متكاملة؟

- أنت تحول الموضوع.. " زي بعضه". ما هو؟

- طائر أسود غطيس وبمنقار برتقـالي فـاقع، كبيـر الحجم، يتحرك بكسل ويقفز بشكل عبيط.

متماوجة مع مرحة المفاجئ: أعرف حل الفزورة إنـه الطائر الأسود، رأيته وسمعته من قبل.

- وجه ذكي، لونه بني زاهٍ؟

- الثعلب الأحمر.

لم ينتبها لتحولات ضوء ما بعد الغروب، انغمسنا فـي ألعابهما ومرحهما بمزاج متماوج من الضحكات، شـهاب لا يضحك ، فقط يبتسم، أما صافيا فمـلأت الغابـة بضـحكتها الصاخبة.

لن يمر عقد من الزمان حتى يصر شـهاب وبضـراوة على " أنا أحب رفقتي".

واجهتهما الغابة كتلة من السواد، لتداري صافيا خوفها، سألت بدلال وعشم: شهاب .. ما الذي وجدته؟

- جزئيا " أورلاندو".

- آه .. فيرجينيا وولف.

- " قالت المرأة/ الغسالة أنهما غرقا في قبلة مشـبوبة مثل عاشقين ودلفا إلى الحجرة معا، وأسدلا الستائر ،ومن ثم لم يمكن رؤية المزيد " ، أتعرفين متى حدث ذلك؟

- سمعت يمنى تقول إنه نص ملغز، مخايل.. شيء من هذا القبيل، أتذكر قبيل تحوله إلى أنثى.

-فكري معي.. هل كان أورلاندو بحاجة إلـى لمسـة وحشية حرة لغجرية ليتهيأ لهذا التغيير؟ هـل هـذه اللمسـة معدية؟ أم هي القوة المجازية للمسة الأنثى؟

- لا أفهم شيئا.

- " أحبت " اورلاندو أن تفكر بأنها تمتطـي صـهوة العالم، أن تلجم نفسها إلى شيء صلب.

-تقصد الاكتمال !!

- نعم، هو بعينه.

- ليست الفكرة جديدة، ثمة عراف إغريقي، ما اسمه؟

- تيريسياس الذي جرب أن يعيش حياة كل من الرجل والمرأة، ومن ثم حكم في نزاع بـين" زيـوس" رب الآلهـة وزوجته " هيرا " حامية الزواج والمرأة عمن يكـون أكثـر استمتاعاً ،وكان أن جنت هيرا غضبا وعاقبـت تيريسـياس بالعمى الأبدي، لأن زيوس ليس بمقدوره إبطال ما حكمت به امرأته ، فقد منح قاضيه الحكمة والبصيرة.

ضحكت صافيا : وما رد أورلاندو على أحجية النشـوة هذه ؟

- وجدت أن كليهما بالتناوب مترعان بأكثر النقـائص بعثا على الأسى، ومن ثم فهي غير متأكدة لمن تذعن النشوة بقدر اكبر، هذا ما فهمته.

- وماذا جنى هذان المتأملان المجربان؟

-تيريسياس أصبح نصف إلاه.. أما أورلاند فلا يـزال حتى لحظتنا الراهنة يكدح في عيشه.. محكوم عليه/ عليهـا بعدم التحقق أبداً .. هو أو هي يقتربان من اللايقين والطبيعة الإنسانية القلقة والتورط الدائم في التساؤل عن مكان الإنسان في الكون دون التوصل أبداً إلى حل نهائي وحاسم.

-تعزف أنت وأورلاندو على قيثارة الغموض!

-عاش أورلاندو حياة ثرية حافلة.. وفي حياته كـامرأة اكتشفت أن حياة المرأة تختلف طفيفا عن الرجل.

- حقا.. إننا بشر، هلا حدثتني عن الجزء الآخر مـن وجدتها.

- صافيا قد تمر سنون، ونحن في حالة مـن الجمـود السرمدي، لا أدفعك إلى اتخاذ خطوة تضر بك أو بأولادك.. اعتبريني أشكو لحالي.

لم يعرف شهاب أن حياة صافيا كانت تمور بغليان مـا قبل الانفجار.

وما لم يقله شهاب لصافيا آنذاك هو أن حياته مجمل من الغضب والإحباطات والحزن، فقرر أن يصل إلـى اليـأس المريح،وأن تقتصر حياته علـى العمـل والمشـي والمتـع البسيطة' كان له أصدقاء واكتفى، يزيح أية محاولة لـدخول عالمه بلطف وبمرح من يتقن السخرية.

قرر أن يصبح انتقائيا.. يصفي ذاكرته وألا يتذكر منها إلا الجميل عرف نساء كثيرات، لكنه لا يحتفظ في ذهنـه إلا بذكريات الحب غير المكتملة فهي الأجمل، لأن قصص الحب الكاملة تنتهي بإخفاقات فيسقطها من الذاكرة.

اكتفى من الأصدقاء والنساء،ولم يعد لديه سوى اليـأس الجميل والمشي لساعات يوميا فضلا عن التوحد بالطبيعـة، والإيمان الرومانسي الخيالي المغلف بشاعريه مرهفـة بمـا

وراء الطبيعة والأرواح والأطباق الطائرة والظواهر الفلكيـة والطبيعية الغريبة.. لقد وجد المعادلة المريحة.

يقول لصافيا بعد سبع سنين من زواجهما أن الحاضـر ليس موجوداً بالنسبة له.

ترد صافيا وعلى متنها ركان السنين: إن الحاضر هـو الزمن الوحيد الذي بإمكاني أن أمسك بتلابيبه ، أن أعيشـه ، الماضي أصبح في عداد الذكريات والمستقبل أفكر فيه بعـين الخيال، هل تؤجل حياتك من أجل لحظة لم تأت .. عش الآن وهنا.

- من حقك أن تفكري بهذه الطريقة.

- بالطبع انا أم لثلاث بنات ، يعنيني الآن وهنـا، أمـا المستقبل ففيه قد تنجح بعض خطواتي لتأمين حياتهن.

- بعد غد، سيمر على زواجنا سـبع سـنين، أراهـم كيومين.. من بين فتافيت كلام.. تعلمت صافيا أن تلتقط مـا يقال عن زله اللسان وليس الكلام المنمـق، قـال يـومين وحسين وأتبعها بفتافيت كلام.

- لم ؟

صمت.

- ألا تشعر بالرغبة في حب جديد أو امرأة جميلة؟

- هن بالنسبة لي مجرد صور .. بيني وبينهن هوة، الصور رمز، عندما تقول لي إحداهن " من فضلك ولاعة" أعطيها لها متمنيا من الله أن تشعل سيجارتها وتمضي،وألا تجذب أطراف الحديث، لأني لا أرغب في ذلك.

ازداد لدي كره الأشكال القبيحة، الوجه والقوام سواء لرجل أو امرأة ، قبل ذلك كنت أكتفي بالابتعاد ما وسعني الأمر.. باتت تزعجني الوجوه الهرمة، وأخشى أن يفتضح أمر ضيقي وامتعاضي لكن ما بيدي حيلة.

- ألا تبحث عن التوحد بإنسان، حب ما؟

- لا أبدا، أتوحد مع الطبيعة فقط، لا أحب التوحد مع الكائنات المركبة والمتنقلة.. أتوحد مع شجرة تنبثق ، تنمو، تشيخ ، تتعرى عن أوراقها ، تثمر وهي في مكانها. الحيوانات أتوحد معها بدرجة أقل.

أحب الرياح والأعاصير والفيضانات والأمطار الغزيرة والبراكين، الطبيعة بكل ضراوتها ووحشيتها.

- والنساء اللائي أحببتهن.. ألم يكن توحداً؟

- لا .. إنه عشق.

- جنس يعني؟

- نعم.

- بماذا تشعر إذا فقدتني؟

- لا أعرف .. فداخل الإنسـان منـاطق مجهولـة لا يعرفها،ولا يتوقعها حتى تظهر هي في موقف أو آخر.

أشعر بالهمدان.. رغباتي أصبحت هامدة، أرغب أكثـر أن أكون وحدي على الدوام.. أنا بانتظار علامة.. أن الـذي يحدث ليس عبثاً.

الفصل التاسع

أرجعت رحلة الغردقة واعتلال حسين، أوهان إلى أن يمسك بالفرشاة بعد توقف لسنين وضع ثقله فيها في الموسيقى.. هروبا قام باستنساخ لوحة جدة صافيا أو شـبيهتها، تسـاءل: مـن يدري؟ سأهديها صافيا في عيد زواجها السابع من شهاب.

وفي لحظة استرخاء والأضواء شـاحبة للغايـة ،كـان يحدق في الإعتام المريح لعينيه، اصطدم ناظراه بعين وسيعة في اللوحة الأصلية في مناطق اللون الفاتح، أشـعل النـور، اختفت العين، عاد إلى العتامة، وجدها تحدق بها في نظـرة ثابتة لكاهن يسبر غور عابد، حرك كتفيه اسـتهانة ومضـى يرسم " لعلها أخيلة فنان".

أسهد الشك لياليه.. دعا صديقا له خبيراً في اللوحات .. ابتسم من النظرة الأولى، وقال : تحت لوحة النوبية.. لوحـة أخرى، يمكن الكشف عنها بأشعة الليزر والكمبيوتر.

أحلام يقظة لذيذة متوهجة استعرت في خيال رغباته "ها هو حلمك يتحقق وتبيع اللوحة الأصلية لواحـد مـن كبـار الفنانين الأوربيين في صالة سوثبي للمزادات، وتربح ملايين وتنفذ مشروعاتك.. لكن أين شهادة ميلاد اللوحـة بطاقتهـا الشخصية؟".

بدأ الصديق يصف اللوحـة، إنهـا بورتريـه، عينـان كبيرتان، بنظرة حانية متأملة وفاحصـة فـي الآن نفسـه، حاجبان طويلان، ببشرة بنية ، نضر وسـيم دون خـيلاء ، خصلات جعدة من شعره الأسود تتدلى على جبهة وضيئة ، لحية خفيفة، أنف مستقيم، يلتفت برأسه جهة اليسار، إكليـل الغار المذهب يرقد في مقدمة شعره المتماوج.. يلبس قميصا أبيض ذا شريط أرجواني على كتفه الأبيض.. وهو مصـور بـ "التمبرا".

- أتقصد؟

- نعم، إنها من بورتريهات الفيوم ليوناني متمصر على غرار أسلوب بورتريهات منطقة " الشيخ عبادة".

- وتلونت ملامحه بالسؤال : ماذا ستفعل بخبيئتك؟

- الآن، لا أعرف.

حدث نفسه : البورتريه لمتمصر وربما تـزاوج أهلـه بمصريين من الطبقة الغنية، إنه متمصر؟ وأنا كـذلك ؟ لا.. أنا مصري المولد.

بدا ذهن أوهان معرضا لكل الاحتمالات ، ينظـر إلـى العين التحتانية كأنها تنتحب على قراره.

ست عيون، ثلاثة أذهـان: أوهـان، صـافيا النوبيـة، اليوناني المتمصر .. تحتدم بينها الآراء والآراء المضـادة.. رأت ضميرا رجراجا، والدولارات ترقد في إغواء متبـادل مع أوهان.

طرق أبواب مسئولين ليسوا هم المعنيين، كان ملحفا في أحاديثه إلى الصحافة.. تـرددت نغمـات أوبـرا " الحمـال والبنات الثالث" تشق جواز فضاء متعدد الجنسيات ، مؤلـف موسيقي عالمي، ليس أقل من ذلك وقد تطارده عين الأوجاع أينما حل .

دس يده في جيبه، أخرج جنيهات ثلاثة.. رفع ذراعيـه تتقاطعان في حركة متواترة.. تحيه لـ " تطلعات كبار".

**كانت فترات سفر وليد استراحات بالنسـبة ليمنـى زاخرة بالمشاعر المتضاربة، افتقاد مشاغباتها، تكرهه وتحبه

في اليوم مئات المرات، وتتذكر قوله أن كل واحـدة يـدخل معها في علاقة تفوق سابقاتها.. شكت بقواها العقلية، تقـول لصافيا: أنه ناعم حبتين،ومرن ثلاث مرات، وأنـاني علـى طول الخط.. أرسل لي ديوان لشـاعر يدعونـه " شكسـبير كردستان" اسمه أحمدي جاني عاش في القرن السابع عشـر يقول:

دع أحداثنا المقبلة تتجلى.. دعنا نعرف إذا مـا كـان المستقبل.. ينطوي على وعد لنا.. أنظر لقد صـعد حظنـا السيئ إلى ذروته.. فهل تعتقد أنه شرع فـي التحـدر.. أم سيظل ضاغطا علينا.. حتى ينتهي أمدنا.. ألن تبزغ نجمـة في قبة السماء.. دع الحظ بجانبنا مرة.. دع سـيدة الحـظ تستيقظ من أجل التغيير.. من أجل أن يكون لنا ملك أيضاً.. دع سيفه يشهد على بأسنا.. دعهم يعرفون قوة قلمنا.. وأن تُوجد لمأزقنا حلاً.

- وماذا أيضا؟

- تصوري أرسل لي خطابا ينتقد فيه أسلوبي فيشير إلى حدة باطنية في الحديث، وأسلوب الكتابة عبارة عـن جمـل طويلة، تقرأ كدفعة واحدة تورث اللهاث،ويزيد الأمر وطـأة

كثرة ما بها من جمل اعتراضية، تعترض سبيل التـدفق، إلا أنها مرتبطة به، بل ملجومة إليه، كحصان جامع يناظل أبـدا للفكاك.

- هل جانبه الصواب؟

- هو يرمي لأمر ابعد، يهيأ إليه أن بإمكانه تشكيلي من جديد، برؤى جديدة.. إنه يذكر غير مـرة أننـي فصـامية ويتساءل ماذا قدمت لنفسك؟ وهل شعرت فـي اول تعارفنـا بانجذاب نحوي؟

احتضنت يمنى نفسها ،ودت لو تكورت.

- ما بك؟

- أشعر ببرد رهيب.

تضع صافيا يدها على جبينها ويدها: غريبـة مـع أن جسدك دافئ.

- لنقف في الشرفة حيث الشمس دافئة.

وتواصل يمنى : بل ويسألني عن فتاة، هل تعتقدين أنها أحبتني؟

أقول له لا أدري، كيف لي أن أحكم ولم أرهـا سـوى بضع دقائق قليلة، هو لا يتخيل أنه أعجـب بـامرأة دون أن

تعجب به. ويقول إن المنجذبين لمثاليات معينة، يقعون فـي منطقة رمادية بين المرض العقلي وعدم التكيف الاجتماعي، بل ويعتقد اعتقادا جازماً أنه إذا احتلم بي، فـلا بـد وأنـي سأنتفض من النشوة في نومي ولو على بعد آلاف الأميـال. إنه يجرفني في اتجاه مضاد لتركيبتي ،ويقـول إن التجربـة تقويني.

- عند الناس ذوي الحساسية الرهيفة، الأزمـات التـي تكسر لا تقيم الظهر كما قال كاتب كبير،ولكنها قد تشـرخه إلى الابد.

- حاجة غريبة، أحياناً أرى له عيني من كرس نفسـه للتضحية وأحيانا نظرتها لا تشي إلا بالافتتان الخشن بالـذات عبر أجواء الوهج والاكتشاف الجديد. الآن تذكرت وأنا أشكو لك أن حلم الرجل الأسود كالأبنوس قد عـاودني وأحسسـت بفزع حقيقي، قلت له غير مرة أني أعشق الأشجار المعمـرة التي تصبح أغصانها المدلاة – بمـرور الوقـت – جـذوعاً إضافية قوية..

يمكن للصبية والفتيات أن يتسلقوها إلى بيـت الشـجرة الأم.. ولم يفهم!

-ربما أنتما من نوع لا تطيب لـه المشـاعر إلا بعـد استنفاد الخناقات وتبادل العذابات.

لا ، لا أعتقد، أحيانا أجد نفسي متلبسة بشعور بالرغبـة في الذهاب إليه مدفوعة بإحساس بالوحدة واللا انتماء لأحد.. وهو لن يهدأ قبل أن يقنعني ضد مصلحتي، علـى حسـاب نفسي- كما يأمل – وعلي أية حال فلا بأس، فأمواج الحياة لم تندفع يوما نحوي، فهي إما منسحبة ألا حقها، أو معترضـة. ضارية، أقاومها.

- هذا رثاء للذات!!

- ليكن.

في الخطاب الأخير، أخبرها أنه نقل للعمل فـي المقـر الأوربي بجنيف وأنه يقوم بجولات مكوكيـة إلـى مناطقـة اللاجئين.. وحكى لها عن نوع جديد من فـن السـجاد فـي أفغانستان، بالرغم من الصراع الجاري لابد للاجئين الأفغان من أن يدبروا لقمة عيشهم، فرأى أحد الأفغان يعرض فـي السوق سجادة تعلق على حائط أسماها الرجل" سجادة حرب" ، بها أربع دبابات في وصف فـي أعلـى السـجادة بخـط زجزاجي، داخلها بعض نقاط تتخذ شـكل ورود ومـدرعات

وطائرات هليكوبتر وكلاشينكوف ومـدافع وعربـات نقـل الأسلحة.. وحكى عن السوء البالغ للطقـس الشـتوي،والذي يعرقل توزيع المعونات، فقد اكتسحت ثلوج فـي مقاطعـة" بادجيس " شمال غرب أفغانستان، وأصبح اجتياز الممـرات التي تمر عبر جبال " صافدكوه" عسيرة، مما حبس جيوبا من الأشخاص النازحين في دوامات عميقة.. وقد عجزت قافلـة المعونة عن السير في ركام الثلج وغرقـت فـي بحيـرات الطين، غير أنها نجحت في إيصـال الأغذية،والبسـكويت، والبطاطين إلـى جيـوب الأشـخاص المحتجـزين.. وقـد استطاعت امرأة مسنة إنقاذ نفسها بالانكماش بعمـق داخـل كيس من الخيش محشو بالقش.. واستطاعت الأسـر البقـاء على قيد الحياة فقد باستخدام المياه المغلية وفتات الخبز.

وكتب: " أعرض عليك اقتراحاً بأن تقيمي جمعية غيـر حكومية للتنمية العمالية في مناطق حلوان وطرة.. التمويـل موجود من معارف لي ولزوجتي، ما عليك سوى الموافقـة وسترسل لك تذكرة الطائرة والتكفل بكل مصاريف الإقامة.. وافقي من فضلك.. قدمي شيئاً لنفسك.

فكرت فيك أخيراً،ورغم أن زوجتي بنظري هي امـرأة تستقطر الملل، فتيل شمعة خامدة،امرأة الفراغ الأبكم .. فأنـا أجد نفسي مقارنة بك أن شحوبك يؤكد نضـرتي، جمـودك يبرز حيويتي ، انسحابك يجعل من إقدامي مبهـراً.. فـاقبلي هذه المرة.. افعليها".

رددت يمنى: " إن كنت وصفت زوجتك بأنها صـخرة، فأنا صخرة تتكاس عليها الرمـال، تنفـرط ذراتهـا مـا إن تجتاحها موجتك،وحينما لن تلتجئ إلي مرة أخرى، سـتذهب إلى راعية غنماتك، يدها على مقود عالمك، تهدهد أطفالـك، تطلق نداء من حجرة نومها ذات الإضاءة الخافتة،ولن تفلتك أبداً، تأتيها طفلا طائعاً لتلبد في صدرها الصـغير،وأعلم يـا عزيزي أنك ستستمر معها ليس بالرغم من أحقادكما الدفينة، بل بسببها.

تنبه أنك لم تكف بعد عن إعادة شخصيتي!! لكن هدوئي يؤكد صخبك،تعقلي يبرز طيشك ، مـوازنتي بـين نفسـي ومحيطي تجعل فرديتك أنانية فجة".

غلقت يمنى الخطاب، والتفت لمرآتها تحادثها: وليـد.. وليد متى تكبر!!

أنا لا أنتمي لأحد ، لا أحد ينتمي إلي.

ابتسمت متذكرة صداماتهما التي أطلق عليهـا" صـدام الديناصورات" بعدها تتركه على راحته لأن يفعل مثلما فعلت هي مرارا من قبل : أن تختفي .. فكانت تشعر بوجـع ألـيم وبرد قارس كأنما تعاقب نفسها،وعندما حدثته شعرت بأنهـا ربتت الجزء الموجوع منها والذي انفصل عنها والتـأم فـي المكان نفسه من جسدها ومن روحها .. تتذكر براعتـه فـي السيطرة على نغمات صوته حسب الحالـة التـي يبغـي أن يوصلها إليها، إنه يعزف على أوتاره، إذا كانا متفقين يـأتي صوته هادئاً ومتسما بالمعقولية، ويحدد النغمة المضبوطة إذا بدأت التراجع، فيغلف صوته بالخشونة، أو صوت الاستجداء أو الغضب إذا ما تشدد رفضها له.. وكل نغماتـه المتنوعـة تقول " يجب أن تستسلمي".

ولأيام طويلة، تبحث يمنى علها تجد نقطة في أعمـاق قلبها محبة له،ولم تجد ، فوجئت بذلك.. سألت نفسها: لـم ؟ قالت: من خوف خرافي وهروب لعين.

وتصارح نفسها: أعترف بفضله، لقد أعاد إلي شخصية خبت وانطمردت داخلي.. تلك الحاسمة بديلا عن المتـرددة الرعديدة التي سيطرت على لسنوات.

** أقبل شهاب يحمل حلقة بمفـاتيح كثيـرة، أعمـل المفاتيح كحكيم ساه ، تقول صافيا: " فـتح خزانتـي بدربـة وصبر وموهبة، ولسان حاله يدعوني أن انظري هـا هـي كنوزك، استمتعي بها.. أقول لها .. بل دعني أنـدهش أولاً، معقولة!! أمتلك كل تلك الإمكانيات " أضاف: الجميلة.

- الآن عليك أن تتحمل طنا من الإمكانيات.

- بل طن من العسل.

أحب فيها رائحة الخبز الفينو تنبعث من جلدها، شـذى بعيد كالحنين.. يدفن رأسه في صدرها يبحـث عـن كثافـة مرجوة للعبق، لكن الحنين هفهاف يتضوع حتى في تجعيـدة انثناءة ذراعها.

تحبه بنات صافيا، لكنهن بغريزتهن، لـم يقـبلن علـى تعميق الصلة فهو يمازحهن كضيف عابر،ولا مزيد.. يذهب إلى جناحه البعيد عن حجراتهن بالمنزل ، كيلا يضـطر أن يطلب منهن الهدوء. إذا ما حادثته صافيا عنهن أو مشاكلها

مع أعمامهن.. يومئ برأسه ولا يرد .. يحتفظ بمسافة، هـذا ما عرفته من قبل،وإن لم تقدر مساحة اتساعها.

يمل من التفاصيل التي تتطلب تركيزاً سمعه، والمزيـد من التحاور، وبعض خبرات صافيا لا تزال نيئـة، أو هـي بحاجة لحوح إلى التواصل، تتحدث عن إدارة اموال بناتهـا، عن طباعهن، مشاكلهن.. فـلا تكتفـي بسـرد الموضـوع الرئيسي.. حضرتهما يمنى مرة، وهو ضجر ينتظر أن تفرغ من حكيها ، أطالت في مقدماتها،واستطردت، أطنبت، كررت مقاطع من حكيها. ببرود صرخ فيها **HIIT THE POINT** .

دهشة محرجة: يعني إيه؟

قالت لها يمنى هامسة: هاتي م الآخر. وانسحبت لتترك الزوجين يتواجهان.

أطلقتها يمنى كلمة واحـدة ظنـت أنهـا ستحاصـره: خواجة!!

وساءلت نفسها: أهذه الطريقة في الكلام إهدار للوقـت والطاقة، أم رغبة في ألا ينقطع حوار و تواصل بين الناس ، الذي أعرفه أننا لسنا في جلسة للأمم المتحدة.

هونت عليها يمنى ذات يوم: احمدي ربنا أنه لا يتـدخل في خصوصياتك ولا يفرض عليك سيطرة.

- لكني أريده جانبي.

- مقارنة بـالواقع ، هـو الأفضـل.. لا تلقـي بثقـل اعتماديتك عليه.. لا تنكدي على نفسك، فتشي عن إمكانيـات تحمل حياتك والاستمتاع بها، شمشمي عنها، أظهريها بفخـر وبمسئولية.. لا تخوني نفسك.

همست صافيا: ثمة من ينصحني دائماً.

**وضعت صافيا الكتاب جانبا، نامت علـى تمتمتهـا: نساء خرافيات يلتهمن الرجال ونساء خرافيـات مخـدولات، وفي خيالها تتساقط لقطات متتابعة لنساء الليلة ١٣٤ من ألف ليلة وليلة.. دليلة المحتالة، عزيزة ابنة عم عزيز.. والسـيدة دنيا ابنة ملك جزائر الكافور التي رأت مناماً عجيباً، يظهـر فيه الصياد وقد أوقع بشبكته طيراً ذكرا، فهرعت أنثاه إلـى فك رجله من الشبكة، وفي منام تال ترى أن الأنثى قد وقعت في الشبكة دون أن تجد من يعينها على الخلاص.

" سارت صافيا وأختها أمينة وأمهما، وأقبلـت طيـور لمهاجمتهن، وتصيب أمينة – التي تراها في مشهد آخر أنها

يمنى – في الجبهة.. يركضن جميعاً، يختبـئن وراء مكتـب الزوج الراحل لصافيا، يخفت صوت الطيـور ولا تهـاجم، وتنظر صافيا من بجانبها وراء المكتب.. كانت الجدة صافيا".

يقول شهاب لصافيا: تبزين النسـاء اللائـي عـرفتهن وأعرفهن.. لديك دائمـا المزيـد لتقديمـه.. يكفـي سـعيك للاستقلالية وإن غُلّف بتبعية عاطفية، هذا السعي ينطوي على غني في شخصيتك ، بالرغم من إعلانـك أنـك متواضـعة الطلبات من الحياة،ومن الناس بالتالي، لكن ليس من نفسـك، فأنت تلازمينها بالأقصى.. تتطورين دوما.. وهذا لا يخفى.

- أحقا؟

على غير عادته، أخذ شهاب يكلم صافيا وهما في قطار الإسكندرية وكانت قد سقطت في نوبات من نوم.. وهو أمر نادر بالنسبة لها أن تنام في مركبات أو طائرات.. يسـألها، تجيبه نصف واعية،نصف متفهمة،وفي الليل حينما تذهب إلى السرير قبله، كان يبدي ملاحظات بعيدة عن اهتماماتها ، إلا أنها تجيبه أيضاً.

يتساءل شهاب في نفسه: هل النوم هجران؟

واندس تحت الغطاء : " أنا ذئب وحيد".

** لا تدري لم كلما ساءت علاقتها برجل، سـألته أن يدعها ترفو له بنطلونه كشهقة احتضار في علاقتهما.. فـي عينيها بدت باهتة تلك الومضة الأخيرة لشهاب يحترق، ومـا تعانيه من تناقض بين الحب ومرارة الإحساس بالخـذلان أن يصافح يدها بعد، أو قد يضعها إلى كتفها.

جسدها يرد: لا مبالاة.

هي ترفو بنطلونه.. أنا أكتب.

قالت لنا: ورقة خريف صفراء ، سقطت عن شـجرتها كان بيننا شيء جميل ومات.

كيف أنسى؟

ما إن كانت تلمسني شفتاه حتى ينتفض جسـدي كلـه.. لحظات العشق صارت اختلاجات، زفير سفينة تغرق.

يسألها شهاب: لم تبكين؟

تعتق عشقه في أقبية حواسها.. بعده لن تعرف أن ذلـك العشق لن يمنح لها أبداً من جديد.

أنفاسه تتردد بين جدراننا .. دفء، جسده الممدد إلـى جانبي أمان صوته ترنيمة في تراتيل التوحد بالكون، عبقـه أثيري ناعم.

قبل شهور صرخت فيه: " انطلق اعشق غيري"، تبسـم بدهشة مستنكرة.

- صدقني أعني ما أقول.. فقط عد إلي متدفقا بالحيـاة، لا تضاجع العدم.

يسألها : لم تبكين؟

- لا عليك نفسيتي متعبة.

أخذ يحكي لها، التفت إليها مع خفوت تنفسها .. غلالات النوم غلفتها ، خطرا له مجدداً " هل النوم هجران؟ .. أنـا ذئب وحيد".

هي نامت ، أنا أسهر عليها.

حكيت لها: " يحكي أن امرأة شابة تمنـت علـى الله أن يرزقها بالخلف حتى لو كان بنتا، مضـي علـى زواجهـا عامان،وتخشى أن يأتيها بضرة، فاستجاب الله لأمنيتها، وكان أن حملت وولدت بنتا أسمتها (ست أبوها)، ومضت الايـام والبنت تنمو، لكنها تأبى أن تنزل عن كتفي أبيها متى ظهـر بالبيت قادما من الغابة، لا تتركه إلا لتعتلـي ظهـر أمهـا.. رافضة أن تمشي على قدميها، مات أوبها ،وناء كاهل أمهـا بحملها .. هربت إلى الغابة وتزوجت بآخر، لجـأت " سـت

أبوها " إلى الجدة.. حتى أظهرت لهـا الشـيخوخة الضـنا والشقا وأصيبت بالعمى.. فسارعت (ست أبوها) بالزواج، وبدون شروط ولوائح منطوقة أو مكتوبة، اعتلـت كتفيـه ، وصالبت ساقيها حول رقبته شاعرة بالامتنـان، سـعيد هـو بعطائها اللا محدود وجسدها الرائع .. خشي أن يطلب منهـا أن تفك قليلا من مصالبة ساقيها حول رقبتـه، كـي يـدخل المزيد من الهواء إلى صدره ، خاف أن تنـزل عـن كتفـه ويفقدها.

جاءهما هادم اللذات ومفـرق الملتصـقين ببعضـهم.. قضيت الوقت غير معنية إلا بإسداء العطاء اللا نهائي والحب غير المشروط لأولادها.

استعطفها محب " لا تتركيني".

اعتلت كتفيه ، خالفت ساقيها حول عنقه.. بعـد زمـن انسحب داخله، تدلت ساقاها إلى صدره، ظلت تحلم بجيـوش تحتل مدينتها ، وتتطلع إلى انزياح الغمة، لكن ما لا ترضـاه فرضه قدرها عليها".

توقفت الحكاية.

تناولت صافيا من درجها لوحة صـغيرة أهـداها لهـا صديقها أوهان راسما (الخنثى.. هرما أفروديتي) في القرن الواحد والعشرين.

تلون وجهها بالهزء، ثم الجدية، وتبلل بالدموع.

كتبت خلف الصورة: " أخوض الآن في الغابة".

القاهرة في ٢٨ مايو ١٩٩٨

٢٠ بشنس١٧١٤

٢ صفر ١٤١٩

فهرس